الدكتور أحمد قايد الصايدي

المادة التاريخية في كتابات «نيبور» عن اليمن

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

المادة التاريخية

في

كتابات «نيبور» عن اليمن

دار الفكر
دمشق - سورية

كر المعاصر
ت - لبنان

الكتاب ١١
الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ = ١٩٩٠ م

لبنان - بيروت - ساقية الجنزير - خلف الكارلتون - ص . ب ٥١٤٩٧
ص . ب (١٣٦٠٦٤) هاتف (٨١٠٧٣٩) تلكس : FIKR 44316 LE

إهداء

إلى الذين يقاومون موجات التردي والانهيار بسلوكهم القويم وعشقهم للحقيقة وتفانيهم في الواجب وتعففهم أمام المغريات وترفعهم عن السقوط وحبهم المنزه لتراب الوطن وإنسانه.

إليهم أهدي هذا الجهد المتواضع، تقرباً واعترافاً بوجودهم في عالم يبدو كما لو أنه لم يعد يتسع لقيمهم السوية.

منذ حركة
القرن السادس ع
تمثلت هذه الفتوح
معروفة للأوروبيين
دراسة جغرافية وا
معروفة عن هذا

ولقد كانت
البعثة العلمية الد
مختلف ميادين الم
بعصر التنوير، عص
(١٦٨٥ ـ ١٧٥٣)
وفولتير (١٦٩٤ ـ ٨
وكانت (١٧٢٤ ـ ٤
أوروبا في القرن الث
من أبرز أحداث ال

مقدمة

منذ حركة الكشوف الجغرافية، في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، والتطلع الأوروبي إلى فتوحات جديدة لم ينقطع، سواءً تمثلت هذه الفتوحات في الكشف عن مناطق جديدة في الكرة الأرضية، لم تكن معروفة للأوروبيين من قبل، أو تمثلت في دراسة بلدان معروفة خارج أوروبا، دراسة جغرافية واجتماعية واقتصادية وسياسية.. إلخ.، تكشف عن جوانب غير معروفة عن هذا البلد أو ذاك.

ولقد كانت أوروبا في القرن الثامن عشر - وهو القرن الذي قدمت فيه البعثة العلمية الدينماركية إلى اليمن - مسرحاً لنشاط فكري وإبداعي في مختلف ميادين المعرفة الإنسانية. إنه القرن الذي شهد ما اصطلح على تسميته عصر التنوير، عصر لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) ونيوتن (١٦٣٤ - ١٧٢٧) وبركلي (١٦٨ - ١٧٥٣) وهيوم (١٧١١ - ١٧٧٦) ومونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥) وفولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) وديدرو (١٧١٣ - ١٧٨٤) وروسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) وكانت (١٧٢٤ - ١٨٠٤)، وغيرهم من قمم العلم والفلسفة والفن. وكما كانت أوروبا في القرن الثامن عشر مسرحاً للنشاط الفكري المستنير فقد شهدت حدثاً من أبرز أحداث التاريخ، حدثاً غير وجه العالم، وهو الثورة الصناعية، التي

بدأت في ستينات ذلك القرن في بريطانيا أولاً ثم امتدت إلى البلدان الأوروبية الأخرى ثم إلى العالم.

وكانت أوروبا في الوقت نفسه مسرحاً للصراع العسكري والتنافس السياسي بين القوى الأوروبية المتنافسة، داخل القارة وخارجها، حيث كانت تدور معارك سياسية وعسكرية ذات أطراف متعددة، منها بريطانيا وفرنسا والنمسا وبروسيا وروسيا وإسبانيا.. إلخ..

وفي هذا الإطار التاريخي السائد في أوروبا؛ وفي غمار الاهتمام بالعلم والعلماء والأدب والأدباء والفن والفنانين؛ وفي جو مفعم بالتنافس بين كثير من الحكام والأمراء، على احتضان العلم ورعايته، وتحقيق إنجازات علمية، يعزى تحقيقها إلى تشجيع هذا الحاكم أو ذاك، بزغت فكرة إرسال بعثة علمية إلى (العربية السعيدة)، لدراسة هذا البلد، دراسة تاريخية، لغوية، اجتماعية، اقتصادية، جغرافية، نباتية.. إلخ.. وكان الدافع العلمي وراء هذه الفكرة نابعاً من اهتمام عالم واحد، متخصص في اللغات وعلوم الدين، كان منهمكاً في دراسة التوراة وتفسيرها، والخروج عن حرفية النصوص، إلى فهم أعمق؛ وقد تراءى له أنه لن يستطيع أن يتعمق في فهم نصوص التوراة إلا إذا درسها من خلال فهم كاف للبيئة، التي كتبت فيها. وهداه تفكيره إلى اختيار اليمن، باعتبارها أقرب إلى بيئة التوراة من فلسطين نفسها، حيث كانت اليمن لا تزال محتفظة بنمط قديم من الحياة، لم تؤثر فيه المؤثرات الخارجية. ومع أن دائرة هذا الاهتمام الديني قد اتسعت، لتضم اهتمامات علمية أخرى متخصصة، لعلماء على امتداد القارة الأوروبية، إلا أن صاحب الفكرة قد نظر إلى جميع الاهتمامات على أنها تخدم هدفه وغايته في توضيح معاني التوراة. وانتقلت الفكرة إلى أيدي رجال السياسة، ليضيفوا إلى الاهتمامات العلمية اهتمامات سياسية. فقد وجدوا أن تبنيهم لمثل هذه البعثة العلمية سوف يضفي على السلطة مظهراً تحرص على الظهور به، كراعية للعلم، إضافة إلى أن التعرف

على الحياة الداخلية لبلد يقع في منطقة استراتيجية من العالم امر يخدم المطامح السياسية والاقتصادية بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

وفي مطلع عام ١٧٦١م انطلقت البعثة العلمية الدينماركية من كوبنهاجن، عاصمة الدينمارك، قاصدة اليمن، مروراً ببحر الشمال فالبحر المتوسط، حيث توقفت لبعض الوقت في تركيا، ثم اتجهت إلى مصر ومنها عبر البحر الأحمر إلى اليمن مروراً بميناء جدة. وكان مقرراً أن تمكث في اليمن عامين إلى ثلاثة أعوام، ولكنها لم تمكث سوى سبعة أشهر، وغادرت ميناء المخا بعد أن فقدت اثنين من أعضائها، بسبب الملاريا، أحدهما دفن في المخا، والآخر في مدينة يريم. ثم مات أعضاء البعثة الأخرون تباعاً، بعد مغادرتها اليمن متأثرين بالملاريا، التي أصيبوا بها في سهول تهامة. ولم يبق منها حياً سوى نيبور، الذي عاد إلى الدينمارك واستطاع وحده بجده ودأبه أن يحقق جزءاً كبيراً من مهام البعثة؛ فسجل جوانب كثيرة من الحياة اليمنية، سياسية واقتصادية واجتماعية وجغرافية وتاريخية ولغوية.. إلخ، ضمنها جميعاً يومياته، التي تم نشرها في ثلاثة مجلدات بعنوان:

Reisebeschreibung nach Arabien und den Umliegenden Ländern

(وصف رحلة إلى بلاد العرب والبلدان المجاورة) كما ضمن جزءاً هاماً من المعلومات التي جمعها، والتي جمعها زملاؤه، قبل وفاتهم، في كتاب نشره بعنوان: Beschreibung von Arabien (وصف بلاد العرب).

ولقد مثل مجيء البعثة الدينماركية إلى اليمن لحظة لقاء تاريخية بين إطارين ثقافيين متباينين. وقد قدم لنا نيبور في تعليقاته على موقف اليمنيين تجاه ما كانت البعثة تعرضه من أدوات، أو ما تقوم به من سلوك مغاير لما اعتاده اليمنيون، صورة معبرة عن هذا التباين. فإذا بنا أمام مجتمعين مختلفين في ثقافتهما وقيمهما ونظرتهما إلى الحياة، تختلف استجاباتهما تجاه موضوع معين

او سلوك محدد، اختلافاً يعبر بصورة مكثفة عن خلفيتهما الاجتماعية والثقافية والتاريخية.

ولا اريد هنا ان أستبق الأمور، فأتحدث عن أهمية البعثة الدينماركية او عما انجزه نيبور ، إذ إنني قد خصصت حيزاً في البحث لهذا الغرض. ولكني أود ان أشير إلى أن سر اهتمامي بما كتبه نيبور وما كتبه الرحالة الآخرون عن اليمن(*) يكمن في أن أولئك الرحالة قد حاولوا رصد وتسجيل كل شيء صادفوه اثناء تجوالهم. ومن نافلة القول أن نؤكد، أن العين الغريبة تلتقط تفاصيل ودقائق في حياة البلد الذي تزوره، لا تلتفت إليها عادة عين المؤرخ أو المواطن المحلي، وذلك لسبب بسيط، وهو أن هذه الأشياء تدخل ضمن ما هو مألوف في الحياة اليومية. والمألوف، عادة، لا يلفت الانتباه ولا يدعو إلى التوقف ولا يثير الاستغراب. ولذا قلما ينتبه أحد إلى أهمية تسجيله. ولكن كثيراً من الأشياء المألوفة والتي تشكل جزءاً من الحياة اليومية، فتبدو أشياء غير ذات بال، تصبح بعد زمن مادة تاريخية على درجة من الأهمية، قد يصعب رسم صورة للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية لمجتمع ما في فترة ما من تأريخه، دون الإلمام بها. ومن هنا تنبع أهمية ما سجله الرحالة الأجانب من تفاصيل وجزئيات عن الحياة اليومية في اليمن، كانت بعيدة عن اهتمام المؤرخ اليمني.

وبما أن توجهي منذ البدء لم يكن يستهدف وضع تاريخ لرحلة البعثة الدينماركية أو إعادة تدوينها، وإنما كان هدفي هو التقاط المادة التاريخية، التي تضمنتها كتابات نيبور، والتي تسلط الضوء على فترة من تاريخنا الحديث. لهذا فإن جزءاً كبيراً من المادة العلمية التي وقفت عليها لدى نيبور، والتي تتناول، مثلاً، أنواع الطيور والنبات والحيوان إلخ.، لم تندرج ضمن دائرة اهتمامي في هذا البحث.

(*) سوف يتبع هذا البحث بحث آخر يضم بعض ما سجله الرحالة الأجانب عن اليمن، وخاصة الرحالة الألمان.

وقبل أن أسلم القارىء إلى فصول هذا البحث أود أن أشير إلى أنني قد اعتمدت في تبويبه على المادة التاريخية المتناثرة، التي تضمنتها كتابات نيبور نفسه. فعمدت إلى استخلاصها من صفحات كتبه، وتجميعها وترتيبها، بحسب موضوعاتها، ثم تبويب البحث وفقاً لهذه الموضوعات.

ومع أن كتابات نيبور كانت هي مصادري الأساسية. فقد عملت على جمع وقراءة كلما تيسر لي العثور عليه، من كتابات حول رحلة نيبور وخاصة باللغة الألمانية، وهي لغة نيبور نفسه، وإلى جانب ذلك استعنت ببعض المراجع المتعلقة بتاريخ أوروبا الحديث أو بتاريخ اليمن الحديث، ولم أورد في هوامش البحث من هذه المراجع إلا ما تطلبه السياق أو اقتضاه الاستشهاد.

واستناداً إلى هذه المصادر والمراجع أمكن لهذا البحث أن يرسم صورة لعمل البعثة، منذ كانت مجرد فكرة، ثم أصبحت فريقاً علمياً في مرحلة الإعداد ثم مراحل سفرها ومعاناتها. إلخ. ، ثم إنجازها وأهميته العلمية، ثم شخصية نيبور ومكانته وأهمية كتاباته، باعتبارها تمثل خلاصة ما أنجزته البعثة في رحلتها. كما أمكن لهذا البحث أن يحقق هدفه في تقديم فصول عن الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية في يمن القرن الثامن عشر، وأن يقدم وصفاً للمدن ونبذة تاريخية لأحداث قريبة العهد كانت لا تزال تروى من قبل معاصريها عند زيارة نيبور.

وقد تعمدنا الإيجاز في عرض موضوعنا وقصدنا الدقة والابتعاد عن التنظير والشروح والاستطرادات. إذ إن هدفنا هو استخراج المادة التاريخية وتقديمها للباحثين والدارسين، المهتمين بتاريخ اليمن الحديث. وهي مادة رصدت وسجلت ميدانياً من قبل باحث أجنبي، تميز بدقة في الملاحظة ومنهجية في البحث.

وربما يظن البعض أنه كان من الأسهل والأفضل لنا وللقارىء لو أننا قمنا بترجمة ما دونه نيبور عن هذا الموضوع أو ذاك. كالبن، أو الملابس أو العملة.

. . . إلخ، ترجمة مباشرة، بدلاً من عرض ما كتبه عرضاً يبدو كما لو كان تكراراً لما دونه نيبور مع إيراد بعض عباراته بين الحين والآخر، مترجمة وموضوعة بين أقواس. ولكن مثل هذا الظن المتعجل سيتبدد إذا عرف القارىء أن نيبور لم يتحدث عن البن مثلاً في فصل واحد أو في مجموعة صفحات متلاحقة؛ بل انتثرت معلوماته هنا وهناك. وكان لا بد من تجميعها جميعاً، ثم صياغتها تحت عنوان واحد. وفي هذه الحالة يصعب اعتماد الترجمة المباشرة. لأن الترجمة تقتضي منا، إذا أردنا أن نأتي على المعلومات التاريخية كلها، أن نعمد إلى ترجمة كل كتابات نيبور . ونحن إذا قمنا بذلك، فسيغدو من الصعب على القارىء أن يلملم المعلومات التاريخية المتناثرة وينسقها ويرتبها ضمن سياق واحد ووفق منهج واضح، يؤدي إلى رسم صورة للحياة اليمنية في القرن الثامن عشر، من شأنها أن تيسر دراسة وفهم تلك الفترة من تاريخ اليمن الحديث، وهو ما قصدنا إليه.

وسوف يلاحظ القارىء، في ما سيلاحظه، أنني قد أوردت بعض الأساطير، التي تضمنتها كتابات نيبور، كما سردها، رغم إدراكي أنها لا تمثل حقيقة تاريخية. فالأسطورة شيء آخر غير الحقيقة التاريخية. إنها قد تنطلق من واقعة تاريخية، ولكنها تعيد صياغتها بشكل أسطوري مما يؤدي إلى إمحائها تماماً، وسط ضباب الأسطورة؛ ويصبح أي جهد للتعرف من جديد على معالم الواقعة التاريخية ضمن غلافها الأسطوري جهداً ضائعاً. ومع ذلك فإنه يمكن للمؤرخ أن يفيد من الأسطورة، كمادة تاريخية من حيث الدلالات التي تقدمها عن المناخ الفكري للبيئة الاجتماعية، التي انبثقت منها تلك الأسطورة. كما يمكن للمؤرخ أن يفيد من الإشارات التي قد تتضمنها الأسطورة، إلى العلاقات الاجتماعية والعادات والتقاليد وأساليب الحياة. . إلخ[1]. ، وفي هذه الدلالات والإشارات تكمن القيمة التاريخية للأسطورة.

---

(1) قارن: كولنجوود، فكرة التاريخ، ص ١٤٠.

كما سيلاحظ القارىء أنني قد وضعت فقرة خاصة، أوردت فيها بعض انطباعات نيبور عن اليمن. وهي انطباعات أبرز فيها نيبور خصالاً تمثل بالنسبة لمجتمعنا قيماً تدعو إلى الاعتزاز. كالكرم والتسامح الديني ولطف التعامل. إلخ.، وهي قيم مارسها اليمنيون ولا زالوا يمارسونها؛ كما لا زال يتكرر ذكرها من قبل من يزورون اليمن من الأجانب حتى اليوم. ولكنها تمارس بتلقائية وعفوية، خارج حدود الوعي، إذا صح التعبير. مما يجعلنا نخشى أن تهمل وتترك مع مرور الزمن ومع نشوء قيم جديدة في المجتمع اليمني الحديث، بالتلقائية نفسها والعفوية التي مورست بها. ولذلك فإن إبرازها وإدخالها في إطار الوعي، كقيم تشكل جزءاً من هويتنا، وتجعل الآخرين ينظرون إلينا، ونحن نمارسها، بإكبار وإجلال، بل وتجعل تعاملنا مع بعضنا البعض تعاملاً راقياً مريحاً، هو أمر على درجة عالية من الأهمية. لأنه يجعلنا ندرك قيمتها ويحثنا على التمسك بها، وبالتالي التمسك بهويتنا، لا من منطلق التزمت والإحساس الفارغ بالتميز، كما هو الحال لدى من يعتقدون أنهم أفضل الفرق أو أفضل الأجناس، منطلقين من إحساس وهمي بالتميز المذهبي أو العرقي، وإنما من منطلق الإيمان الراسخ بأنه من خلال هويتنا فقط، يمكننا كشعب أن ندخل دائرة التفاعل الحضاري الإيجابي وأن نسهم بدور في إغناء التجربة الإنسانية.

ومن الملاحظات المنهجية، التي تجدر الإشارة إليها، أن نيبور قد حاول أن يصل إلى استنتاجات جغرافية ـ تاريخية، استناداً إلى بعض التشابه بين أسماء بعض المدن والقرى اليمنية وبين أسماء وردت في التوراة. فموزع مثلاً ربما تكون في تقديره هي مدينة Mesa، التي ذكرها موسى عليه السلام في كتابه العاشر(*). ومثل هذه الاستنتاجات المستندة إلى مجرد التشابه تقود غالباً إلى نتائج خاطئة.

وترتبط بمشكلة الأسماء وتشابهها صعوبة واجهتها في هذا البحث. فقد

(*) انظر: الكتاب المقدس، سفر التكوين، الإصحاح العاشر.

اعتمد نيبور في كتابته للأسماء على السماع(*). وهناك كثير من مخارج الحروف العربية تلتبس على الأذن الأجنبية. وهكذا نقرأ اسم رداع، لدى نيبور، على هذا النحو: Rodda، واسم الروضة: Rodda. ولولا السياق الذي ورد فيه كلا الاسمين، لما استطعت أن أفرق بينهما. وقد وجدت صعوبة شاقة في التعرف على بعض الأسماء، رغم استعانتي بالمعاجم والخرائط والأصدقاء.

ولا شك أن كتابة الأسماء العربية بالأحرف اللاتينية، أو كتابة الأسماء الأجنبية بالأحرف العربية يؤدي في كثير من الأحيان إلى تحويرها وتحريفها. فإذا اعيدت كتابتها من جديد بالأحرف الأصلية، استناداً إلى كتابتها بالأحرف اللاتينية، فإننا نحصل عند ذلك على أسماء مختلفة، بهذا القدر أو ذاك، عن أصلها، فمدينة عدن تصبح إيدن ورداع رودا وصعدة سادا... وهكذا. ولذا فقد أوردت الأسماء، التي راودني بعض الشك في صحة فهمي لها، بالأحرف العربية، على سبيل الترجيح، ووضعت أمامها الاسم نفسه بالأحرف اللاتينية، كما سجلها نيبور نفسه. أما الأسماء التي لم أصل إزاءها إلى أي ترجيح أطمئن إليه فقد أثبتها بالأحرف اللاتينية دون محاولة رسمها بالأحرف العربية. هذا بالنسبة للأسماء العربية وأما الأسماء الأجنبية فقد عمدت إلى كتابة الاسم بالأحرف اللاتينية مرة واحدة على الأقل، حتى يتمكن القارىء من التعرف على الاسم بصورته الحقيقية، تجنباً للمحذور السابق. فكتابة الاسم الأجنبي بالأحرف العربية فقط، يحدث غالباً تغييراً في صورة الاسم يجعل السامع أو القارىء عاجزاً عن التعرف على الاسم الحقيقي. فاسم شخص مثل Wilhelm، الذي يُنطق بالألمانية (ڤِلْهِلْمْ)، يصبح لدى بعض الكتاب العرب غليوم. وفي مثل هذه الحالة فإن القارىء، مهما بلغت حدة ذكائه، لا يمكن أن يتوصل إلى معرفة الاسم بصورته الحقيقية.

(*) أشار نيبور إلى أن السكان انفسهم كانوا أحياناً ينطقون اسم منطقة أو مدينة بصور مختلفة. مما يدل على انه كان مدركاً إشكالية كتابة الأسماء. انظر: Neibuhr, C. BVA, S. XXII.

وملاحظة منهجية أخرى وهي أن نيبور - في بعض الحالات - لم يتقيد بمنهج واحد فعند تحديده مثلاً لمواقع القرى والمدن، يذكر مرة الإسم ويشير إلى أنها قرية أو مدينة. ومرة يغفل الإشارة، فلا يعرف القارىء إن كانت قرية أو مدينة. ومرة يذكر الاتجاه والمسافة التي تفصل القرية أو المدينة عن سواها. ومرة يذكر الاتجاه فقط. ومرة يقدر المسافة بالأميال ومرة بالساعات أو الأيام.. إلخ.

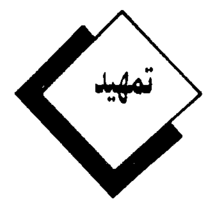
وما عدا هذه الهنات المنهجية البسيطة، فإن نيبور، على وجه الإجمال، قد سار في عمله الميداني وفق منهج يمكن التعرف عليه بوضوح؛ وسوف نتعرض له في سياق حديثنا عن نيبور وإنجازاته العلمية. كما أن ما وقفنا عليه من جوانب تتعلق بشخصية نيبور، ومن ملاحظات وانطباعات، سجلها في ثنايا كتاباته عن اليمن، إضافة إلى تقييمات العلماء والباحثين لإنجازه العلمي، تجعلنا نطمئن إلى صدقه وموضوعيته، في ما سجله من معلومات. ومع ذلك فإن اطمئناننا إلى صدقه وموضوعيته لا يعني أن نسلم بصحة هذه المعلومات دون نقاش. فمع أن صدق الكاتب وموضوعيته شرطان للوصول إلى المعلومات الصحيحة، إلا أنهما لا يعنيان بالضرورة صحة ما يورده هذا الكاتب من معلومات. فللحصول على معلومات صحيحة شروط أخرى، لا بد من توفرها، إضافة إلى صدق الكاتب وموضوعيته. فالكاتب الموضوعي الصادق يسجل بتجرد ما يعتقده صحيحاً. ولكن قد يتضح فيما بعد بطلان ما اعتقده صحيحاً. وهذا لا يجرح صدق الكاتب ولا يتعلق بموضوعيته ونزاهته. وإنما يتعلق بالظروف، التي أحاطت بوصول المعلومات إليه: مصدرها، طريقة وصولها إليه، بعدها أوقربها الزمني والمكاني عن موضوعها، أي عن الحدث الذي تتعلق به. إلى آخر ذلك من الشروط، التي يعرفها المؤرخون. لهذا ومع اطمئناننا إلى صدق نيبور وموضوعيته، يجب ونحن نقف على المادة التاريخية، التي تضمنتها كتاباته، أن نضع في اعتبارنا مصدر هذه المعلومات. فالمعلومات التي سجلها بناءً على ملاحظاته المباشرة، مثلاً، يمكن الوثوق بها

أكثر من المعلومات التي رويت له، والمعلومات، التي تتصل بأحداث قريبة العهد، ورويت له من قبل شهود عيان، هي أكثر وثوقاً من معلومات رويت له عن أحداث بعيدة الزمن، رواها له رواة لم يعيشوها. كما أن المعلومات ذات الصلة بمجال تخصصه، قد تكون أكثر صحة من المعلومات، التي تتصل بمجالات معرفية بعيدة عن تخصصه.

وكلمة أخيرة نود قولها في نهاية هذه المقدمة، وهي أن هذه المادة، التي جمعت من كتابات عالم رحالة، حاول أن يسجل بعينه الأجنبية الحساسة، وحسب ثقافته المتميزة وموضوعيته الواضحة كل ما صادفه من مظاهر الحياة اليمنية، لن تفيد أولئك الذين ينظرون إلى التاريخ على أنه تسجيل للأحداث السياسية فحسب، أما أولئك الذين ينظرون إلى التاريخ على أنه تسجيل لحركة المجتمع في فترة تاريخية معينة بكل ما يرافق هذه الحركة من مظاهر وتعبيرات سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية وروحية... إلخ، فإنهم لا شك سيجدون في محتوى هذا البحث مادة تاريخية مفيدة، تقربهم من صورة الحياة اليمنية في القرن الثامن عشر.

والله من وراء القصد.

الباب الأول



١. أوروبا

عبر ال
عميقة في ال
وكان الفكر أ
نفسها. ففي
يتمرد على ال
ملاحظة الطبي
للمعرفة[1]. و
الذي كانت أ
إلى جنب مع

وفي ع
الثاني (الفاتح
لهجرتهم تأثير
المؤرخين في

(١) العوا، التج

الفصل الأول(*)
خلفية تاريخية

١. أوروبا الحديثة:

عبر الفكر الأوروبي، في أواخر القرون الوسطى، عن بشائر تحولات عميقة في المجتمع الأوروبي، كانت لا تزال بداياتها تتفاعل وتتشكل ببطء. وكان الفكر أسرع في التعبير عن مغزى هذا التفاعل واتجاهاته من التحولات نفسها. ففي القرن الثالث عشر مثلاً كان روجر بيكون (١٢١٤ ـ ١٢٩٤) قد أخذ يتمرد على الطابع الديني، الذي طبع الفكر الأوروبي الوسيط، ويدعو إلى ملاحظة الطبيعة وإنكار القوى السحرية الغامضة، واعتماد التجربة كوسيلة للمعرفة[١]. وكان هذا التمرد يعبر عن تململ الجديد في قلب الإطار القديم، الذي كانت أبرز سماته، سيطرة الكنيسة على الحياة الوجدانية والعقلية، جنباً إلى جنب مع سيطرة الطبقة الإقطاعية على الحياة الإقتصادية والسياسية.

وفي عام ١٤٥٣ سقطت القسطنطينية في يد السلطان العثماني محمد الثاني (الفاتح)، وهاجر نتيجة لذلك عدد كبير من العلماء إلى إيطاليا. وكان لهجرتهم تأثير في الحياة الثقافية في إيطاليا، بلغ درجة لم يتردد عندها بعض المؤرخين في اعتبار سقوط القسطنطينية وهجرة العلماء منها بداية التاريخ

(١) العوا، التجربة الفلسفية، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢.

الحديث. وقد أدى تطور الحياة الثقافية في إيطاليا إلى دفع حركة التمرد على القديم خطوات إلى الأمام.

وفي هذا الوقت أي في حوالي منتصف القرن الخامس عشر ظهرت الطباعة في أوروبا. فقد استطاع الألماني يوهانس جوتنبيرج Johannes Gutenberg (١٣٩٨ - ١٤٦٨) أن يصنع أحرفاً معدنية وأن يطبع بها كتاباً لأول مرة عام ١٤٤٦[1]. وانتشرت المطابع بعد ذلك في أنحاء أوروبا، مسهمة في سرعة انتشار الأفكار الجديدة، التي عبرت بها حركة التمرد عن نفسها، سواءً على شكل تمرد ديني، مثله بصورة خاصة مارتن لوثر Martin Luther (١٤٨٣ - ١٥٤٦)، الذي دعا إلى الإنصراف عن سلطة البابا والرجوع إلى الوجدان الفردي في التدين، وإلى الإنصراف عن التقاليد الكاثوليكية والرجوع إلى الكتاب المقدس ذاته[2]. أو على شكل تمرد فكري، حيث أخذ المفكرون والأدباء والفنانون يرجعون إلى التراث الكلاسيكي (تراث اليونان والرومان) مشغوفين به، ساعين إلى تقليده، نافرين من الفكر الكنيسي، الذي سيطر على الحياة الثقافية في العصور الوسطى. وأخذ الموقف من الطبيعة يتغير، ونزع المفكرون إلى إعادة الاعتبار لها، فلم تعد في نظرهم مبدأ الشر، كما كانت في الفكر المسيحي، بل رجعت إلى مكانتها الأولى، التي احتلتها عند الإغريق، كتعبير عن الخير والجمال. وعكس هذا الموقف حباً للطبيعة وإقبالاً على الحياة[3].

وفي الوقت ذاته حدث تقدم كبير في مجال الكشف والعلوم. فمنذ العقد الأخير من القرن الخامس عشر نشطت حركة الكشوف الجغرافية، لتضع الإنسان الأوروبي أمام عوالم ومجتمعات وحضارات وأديان وتقاليد لا علم له بها، ولتغير

(١) فارو: الموسوعة، ص ٦٥٩ وكذا:
(٢) العوا، التجربة الفلسفية، ص ٢٧٧ . NUL. Bd. 2, S. 745 - 746
(٣) نفسه، ص ٢٧٧ وما بعدها - وكذا: ويدجيري، المذاهب، ص ١٨٠.

نظرته إلى العالم. كما أن الاكتشافات العلمية والنظريات الجديدة، كنظرية كوبرنيكوس Kopernikus (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣)، التي أكد فيها أن الأرض كروية وأنها ليست مركز العالم بل هي واحدة من الكواكب التي تدور حول الأرض، قد غيرت من نظرة الإنسان إلى العالم[1].

لقد عبرت حركة التمرد، بمظاهرها الدينية والفكرية والعلمية، عن عناصر جديدة في الحياة الأوروبية. فقد أخذ دور المدن يتعاظم وظهرت طبقة جديدة من سكانها امتهنت التجارة والصناعة والصيرفة، وأخذت تزاحم طبقة الإقطاعيين، المدعومة برجال الكنيسة وفكرهم. وكانت هذه الطبقة الجديدة تتطلع إلى توسيع نطاق نشاطها التجاري؛ ولم يكن إطار الحياة، الذي تحميه الكنيسة وتحرص طبقة الإقطاع على ثباته واستمراره، يتسع لطموحات الطبقة الجديدة. فنشأ صراع بين القديم، بأفكاره ومصالحه ومؤسساته، والجديد، بمصالحه وطموحاته، مدعوماً بالنهضة الفكرية وبتقدم العلم، اللذين جاءا ليعززا مواقع الطبقة الجديدة ويلبيا حاجاتها.

واستفادت البرجوازية من العلم وشجعته، وأخذت تطبق نظرياته واكتشافاته واختراعاته، في ميادين الصناعة والتجارة والتوسع[2]. كما أخذت تحارب الحواجز الجمركية بين المقاطعات، بالدعوة إلى التوحيد القومي. واستطاعت أن توسع أسواقها خارج نطاق بلدانها، مسببة بذلك سلسلة متصلة من الحروب داخل أوروبا وخارجها.

وبينما كانت الطبقة البرجوازية تنتزع، شيئاً فشيئاً، مواقع السيطرة والنفوذ، من أيدي الطبقة الإقطاعية، محدثة بذلك تحولات عميقة في المجتمع، كانت التحولات على المستوى الفكري تتبلور بصورة أسرع، وغدت

(١) NUL. Bd. 2. S. 1032

(٢) قارن: توشار، تاريخ الفكر، ص ٢٩٩، ٣٠٣.

تعرّض فكراً واضحاً، تعبر عن طموحات المجتمع الجديد، في كافة النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والقانونية والفكرية. وقد تبلورت الأفكار الجديدة في تيار حمل لواءه مفكرو الطبقة البرجوازية، اصطلح على تسميته بحركة التنوير[1].

وكانت التحولات تسير في بريطانيا بوتائر أسرع مما في غيرها من البلدان الأوروبية. فقد أخذ الإنتاج الصناعي فيها - في القرن الثامن عشر - يتجاوز حدود الحرف اليدوية والإنتاج الصناعي المنزلي، كما يتجاوز حدود المانيفكتورة (المعامل الصغيرة)، التي منحتها السياسة الاقتصادية المركنتيلية(*) دعمها وحمايتها. فقد أدت قدرة السوق المحلية على استيعاب المنتجات الصناعية(**)، واتساع السوق العالمية وطموح أصحاب الصناعات والتجار، أدت جميعها إلى التعجيل في ظهور المصانع الحديثة[2]. ومنذ اكتشاف البخار، في ستينات القرن الثامن عشر، بدأ الإنتاج الآلي في بريطانيا. وبذلك تعزز موقف الطبقة البرجوازية، الاقتصادي والسياسي، وأخذت طبقة الإقطاعيين تتراجع عن مواقعها وتتهاوى. وقد حدثت مثل هذه التحولات، التي شهدتها بريطانيا، في البلدان الأوروبية الأخرى، ولكن بوتائر مختلفة.

ويعتبر الإنتاج الآلي، الذي ترتب على اكتشاف البخار، والذي عرف بالثورة الصناعية، أهم حدث في تاريخ البشرية، بعد استقرار الإنسان وزراعة الأرض[3]. وقد أسهم إسهاماً حاسماً في اكتمال التحولات الاقتصادية

---

(١) EW. Bd. 2. S. 486.

(٢) EW. Bd. 2. S. 485.

(٣) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج ١، مج ٩، ص ٧٠ وما بعدها، وكذا EW. Bd.2. S. 485-486.

(*) تعتبر السياسة المركنتيلية من مبدأ أن ثروة البلد تقاس بمخزونها من الذهب والفضة وتتضمن تجميع الذهب والفضة من الخارج ونسبة الإنتاج القومي وحماية الصناعات الوطنية في وجه المزاحمة الخارجية. انظر: نوشار، تاريخ الفكر، ص ٢٥٠ - ٢٥١.

(**) تزايدت القدرة الشرائية في أوروبا نتيجة للحركة الاستعمارية وعمليات النهب المنظمة لثروات الشعوب المستعمرة (بفتح الميم).

والاجتماعية والسياسية، التي كانت عناصرها قد بدأت تتفاعل في أوروبا منذ قرون.

وسوف نسلط الضوء، في الفقرة التالية، تسليطاً سريعاً، على التحولات، التي شهدتها الدينمارك، وهي الموطن الذي انطلقت منه البعثة العلمية الدينماركية، وذلك منذ مطلع العصر الحديث وحتى زمن إرسال البعثة إلى اليمن.

٢ ـ الدينمارك:

تتمتع الدينمارك بموقع استراتيجي هام في منطقة بحر الشرق المعروف ببحر البلطيق، حيث تطل موانئها على بحري الشمال والبلطيق، وتتحكم في الممرات التي توصل بينهما. وقد حدد موقعها هذا مكانتها وعلاقاتها الدولية(١).

وقد نشأ صراع من أجل السيطرة على بحر البلطيق بين قوى عديدة، كالدينمارك والسويد وألمانيا وهولندا وبريطانيا وروسيا. إلخ.. وكان لهذا الصراع أثره الكبير في تحديد سياسات الدول الإسكندينافية في العصر الحديث. فابتداءً من عام ١٤٢٥ م فرضت الدينمارك ضريبة مرور على السفن المارة عبر مضايق بحر البلطيق. وقد شكلت تلك الضريبة مصدر دخل رئيسي للخزانة الدينماركية لوقت طويل. وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر استطاعت الدينمارك أن تصبح الدولة ذات النفوذ الأولى في منطقة بحر البلطيق(٢).

وشهد القرنان السابع عشر والثامن عشر انتقال المجتمع الدينماركي من النظام الإقطاعي إلى النظام الرأسمالي. فقد أدت سيطرة الدينمارك على حركة التجارة في منطقة بحر البلطيق إلى ازدهار الاقتصاد الدينماركي. وإلى

---

(١) للمزيد انظر: Weltgeschichte, Bd 5, S. 686 FF.

(٢) للمزيد انظر: يحيى، العلاقات ص٣٩٣ ـ ٣٩٤، ٣٩٧ ـ ٣٩٨.

جانب ذلك عاشت الدينمارك ازدهاراً ثقافياً لم تعرف من قبل مثيلاً له، سواء في مجال الفنون والآداب أو في مجال العلوم الطبيعية.

وقد أدى ارتفاع الأسعار، المعروف (بثورة الأسعار)[1]، أثناء المرحلة المركنتيلية، إضافة إلى البدايات الأولى للعلاقات الرأسمالية، أدى إلى حدوث تغيير في بنية الاقتصاد الدينماركي، وخاصة في قطاع الزراعة. حيث نما الاقتصاد الحيواني وزادت معدلات تصدير العجول زيادة كبيرة.

وفي عام ١٦١٦ م تم تأسيس (شركة الهند الشرقية الدينماركية)، التي استطاعت أن تبسط سلطانها عام ١٦٢٠ م على ترنكبار Trankbar في الساحل الجنوبي - الشرقي للهند، وعلى ترنكوملي Trinkomalee في سيلان. كما تم إنشاء (شركة الهند الغربية الدينماركية)، التي تمكنت عام ١٦٦١ م من بسط سلطانها على جزء من جزيرة يونجفرن Jungfern في منطقة الأرخبيل الأصغر، قرب أمريكا الوسطى[2].

ولكن مرحلة الازدهار هذه ما لبثت أن انتهت بدخول الدينمارك في حرب الثلاثين[*] عاماً ضد القيصر الألماني. وقد انتهت حرب الثلاثين عاماً في عام ١٦٤٨ م بصلح وستفاليا Westfalen، الذي كان من نتائجه سيادة السويد على بحر البلطيق، وضعف الدينمارك وتراجع دورها في شمال أوروبا[3]. ونظراً لسيطرة النبلاء الإقطاعيين على مقاليد الأمور في الدينمارك، وممارستهم الحكم فعلياً بواسطة البرلمان، وضعف الملوك، فقد واصلوا - أي النبلا - زج البلاد في حروب متلاحقة، ألحقت الدمار بها. وقد تمكنت السويد عبر ثلاثة حروب

---

(١)

(٢) قارن: يحيى، العلاقات، ص ٣٩٥. و KEW. Bd.1. S. 238

(٣) انظر صبحي، التاريخ الأوروبي، ص ١٨٢ ومابعدها. وكذا: البطريق، تاريخ أوروبا، ص ١٣٥ وما بعدها وكذا KEW. Bd.1. S. 238 - 239.

(*) نشبت حرب الثلاثين عاماً في عام ١٦١٨ وانتهت في عام ١٦٤٨. Weltgeschichte. Bd.5.S 690

(١٦٤٣ - ١٦٤٥، ١٦٥٧ - ١٦٥٨، ١٦٥٨ - ١٦٦٠) أن تزيد من ضعف الديمارك وتنتزع أجزاء من ممتلكاتها، ومنها بعض جزر بحر البلطيق.

وفي حوالي منتصف القرن السابع عشر قوي شأن الطبقة البرجوازية الدينماركية التي لم تكن الحروب قد أضعفتها كما أضعفت طبقة النبلاء الإقطاعيين. والتفت البرجوازية حول الملك فريدريك الثالث (١٦٠٩ - ١٦٧٠)، الذي عمل على تقليص دور النبلاء. وفي عام ١٦٦٥م تم وضع دستور جديد للدولة، ليصبح بموجبه نظام الحكم نظاماً ملكياً وراثياً مطلقاً. وقد حرم النبلاء من ممارسة أي نفوذ على الحكومة. وتم توحيد إدارات الدولة، وتعززت مكانة الموظفين الرسميين. وأنشىء جيش محترف. كما جرت أول محاولة لإنشاء نظام تعليمي في البلاد.

وقد استطاعت الدينمارك أن تستعيد أجزاء من أراضيها التي خسرتها في حروبها ضد السويد من قبل، ومنها شليسفيج وهولشتين Schleswig - Holstein(*) وذلك عام ١٧٢٠م، بعد أن خاضت حروباً ضد السويد بالتحالف مع روسيا.

وقد استمر نمو الاقتصاد الرأسمالي، رغم الصعوبات التي نجمت عن السياسة المركنتيلية. كما أن التناقضات أخذت تحتد، نتيجة للنمو السريع للقوى المنتجة في قطاع الزراعة، مع تمسك ملاك الأرض الإقطاعيون، في تعاملهم مع الفلاحين، بنمط العلاقات الإقطاعية، ومنها أعمال السخرة، التي ظلت تفرض على الفلاحين. وابتداءً من ظهور فكرة الاستبداد المستنير(**)، وخاصة خلال عهد الوزير بيرنشتورف Bernstorf(***)، الذي امتد من عام ١٧٥٠

(*) تقع في شمال ألمانيا وتتبع الآن ألمانيا الاتحادية.

(**) سادت فكرة الاستبداد المستنير النصف الثاني من القرن الثامن عشر وتتلخص في أن كل شيء للشعب ولا شيء بواسطة الشعب. ومن الملوك المستنيرين في ذلك العصر فريدريك الثاني ملك بروسيا وكاترين الثانية ملكة روسيا، وجوزف الثاني ملك النمسا. [illegible] تاريخ الفكر، ص ٣٠١، ٣٢٩.

(***) بيرنشتورف هو الوزير الذي أشرف على إعداد وتحويل سلطة الحكومة الدينماركية.

بلو عام ١٧٧٠، وعهود الوزراء الذين أعقبوه، أدخل العديد من الإصلاحات، ذات الطابع البرجوازي. كتحرير الفلاحين والانتقال إلى الاقتصاد الفردي ليحل محل القرية التي كانت تمثل، وحدة اقتصادية، وتقليص امتيازات النبلاء ومنع تجارة العبيد في المستعمرات... إلخ[١].

٢. الاهتمام الأوروبي باليمن في العصر الحديث:

لم يكن اتصال أوروبا بالمنطقة العربية في العصر الحديث حدثاً جديداً. فقد اهتمت الحضارتان الأوروبيتان القديمتان، اليونانية والرومانية، بهذه المنطقة، واتخذ اهتمامهما طابعاً ثقافياً آناً، استهدف الاستفادة مما أبدعته الحضارات التي نشأت فيها، وطابعاً توسعياً، آناً آخر، استهدف الإمساك بطرق التجارة الشرقية، واستنزاف خيرات هذه المنطقة. وفي العصور الوسطى نشأت عدة نقاط اتصال بين أوروبا والعالم العربي - الإسلامي، تمثلت بالأندلس وجنوب إيطاليا وبيزنطة، عبرت من خلالها علوم العرب وإسهاماتهم الحضارية إلى أوروبا، التي كانت تعيش نهباً لغزوات القبائل الهمجية، منذ سقوط روما وانحسار الحضارة الرومانية من أوروبا وانطواء بقاياها في بيزنطة. وقد أسهم هذا الإتصال، الذي تم بين الحضارة العربية - الإسلامية وبين أوروبا، في نشوء الحضارة الأوروبية الحديثة[٢].

وفي العصر الحديث - أي منذ نهاية القرن الخامس عشر - حدثت تغيرات جذرية في الحياة الأوروبية، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، أدت إلى تعاظم الدور الأوروبي في العالم بأسره، ومنه المنطقة العربية، التي أصبحت واحداً من أهم مسارح التنافس الدولي في العالم. ودخلت البلاد العربية في

---

(١) للمزيد انظر: KEW. Bd. 1. S 238 - 239.

(٢) حول تأثير الحضارة العربية - الإسلامية في الحضارة الأوروبية الحديثة انظر: سزكين، محاضرات، ص ١١٥ وما بعدها، وكذا الباهي، تمهيد، ص ١١٩ وما بعدها.

علاقات غير متكافئة، طرفاها: بلاد متخلفة بعد تحضر، تمتلك موقعاً تتقاطع عنده قارات العالم القديم، مشكلاً بذلك عقدة اتصال عالمية هامة، كما تمتلك ثروات طبيعية هائلة، وبلاد أحدث تتحضر بعد تخلف، وتمتلك من أسباب القوة والتنظيم والعلم والمطامع، ما لم يسبق له مثيل في التاريخ.

ورغم اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، في نهاية القرن الخامس عشر، وما نتج عن ذلك من تحول طريق التجارة الشرقية التاريخي عن البلاد العربية، واتصال أوروبا مباشرة بالهند وجنوب شرق آسيا، وضعف أهمية البحر العربية والبحر المتوسط وانتقال ثقل الحركة التجارية إلى بحر الشمال والبحر البلطيقي، رغم ذلك كله ظلت البلاد العربية مسرحاً للتنافس الدولي، بسبب موقعها الإستراتيجي. وكانت حملة نابليون بونابرت على مصر، عام ١٧٩٨ م، معلماً بارزاً في تاريخ العلاقات العربية - الأوروبية.

وقد شمل الاهتمام الأوروبي بالبلاد العربية اليمن كذلك، بل لقد احتلت اليمن مكاناً متميزاً في إطار الاهتمام الأوروبي، بسبب موقعها الجغرافي المتميز في مدخل البحر الأحمر وعلى المحيط الهندي.

وعادة ما يبدأ الحديث عن علاقة الأوروبيين باليمن في العصر الحديث بالنشاط البرتغالي، الذي شهدته الشواطىء العربية منذ مطلع القرن السادس عشر[1]. وكانت أبرز مظاهر ذلك النشاط احتلال جزيرة كمران ومهاجمة عدن عام ١٥١٣ م[2]. وقد لحق بالنشاط البرتغالي نشاط دول أوروبية استعمارية أخرى أهمها بريطانيا وهولندا وفرنسا[3]، فقد استطاعت بريطانيا أن تفرض وجودها في منطقة غرب المحيط الهندي على حساب الوجود البرتغالي، وسعت

---

(١) انظر: ماكرو، اليمن والغرب، ص ١٩ وما بعدها.

(٢) للمزيد انظر: لقمان، تاريخ الجزر، ص ٩. سالم، الفتح العثماني، ص ٧٢ وما بعدها. [illegible] بريطانيا، ص ٢٢.

(٣) انظر: ماكرو، المصدر نفسه ص ٢٥ وما بعدها، ٦٩، ٣٠ وما بعدها، ٣٦ وما بعدها، ٧٦.

إلى تأمين طرق المواصلات البحرية والتصدي لأي وجود أوروبي آخر يشكل تهديداً لمصالحها[١].

وابتداءً من عام ١٦١٢ م تمكن الأوروبيون، ومنهم البريطانيون، من المتاجرة مع الموانئ اليمنية. وفي عام ١٦١٨ م سمحت تركيا بإقامة وكالة إنجليزية في المخا، ولم تحاول بريطانيا احتلال مناطق يمنية حتى عام ١٨٣٩ م، عندما احتلت عدن، باستثناء احتلالها المؤقت لجزيرة بريم عام ١٧٩٩ م[٢].

وأما الهولنديون فقد نشطوا تجارياً في الشواطئ اليمنية منذ عام ١٦١٤م، حيث أقاموا وكالة لهم في ميناء الشحر، ثم استطاعوا فيها بعد أن يوسعوا علاقاتهم التجارية وأن ينشئوا لهم وكالة تجارية في ميناء المخا[٣].

وفي أوائل القرن الثامن عشر قدم الفرنسيون إلى موانئ اليمن، وتمكنوا من عقد اتفاقية تجارية مع الإمام المهدي(*)، صاحب المواهب، أعطي لهم بموجبها الحق في ممارسة التجارة في ميناء المخا، وإقامة وكالة لهم فيه[٣].

وقد مارس كل من الإنجليز والهولنديين والفرنسيين نشاطهم التجاري باسم شركات أطلق على كل منها (شركة الهند الشرقية) مع إضافة اسم البلد.

ويذكر فاروق أباظة أن الوكالات التجارية الهولندية والفرنسية قد غادرت

---

(١) مطهر، عدن، ص ٦٦

(٢) Schmidt, Das Sudwestliche Arabien, S. 58

(٣) ماكرو، اليمن والغرب، ص ٣٢، براور، اليمن، ص ٢٢ وما بعدها.

(٤) ماكرو، اليمن والغرب، ص ٣٩ ـ ٤٠.

(*) الإمام المهدي محمد بن أحمد بن الحسن المعروف بصاحب المواهب ولد عام ١٠٤٧ هـ/١٦٣٧ م، وتوفي عام ١١٣٠ هـ/١٧١٨ م، تولى الإمامة في الفترة من ١٠٩٧ هـ/١٦٨٦ م وحتى ١١٢٩ هـ/١٧١٧ م، حيث اضطر إلى التنازل عنها. قارن: الزركلي، الأعلام، مج ٦، ص ١٢ ـ والحداد، تاريخ اليمن، ص ٣٣٠ ـ ٣٣٣. والشماحي، اليمن، ص ١٤٦

اليمن عام ١٧٦٢[١]، أي في العام نفسه الذي وصلت فيه البعثة الدنيماركية إلى اليمن، وانفرد البريطانيون بتجارة التصدير فيها. ولكن رغم إغلاق الوكالات التجارية الهولندية والفرنسية فقد ظل الفرنسيون ـ كما ذكر (نيبور) ـ يحتفظون بمباني وكالاتهم ويدفعون إيجاراتها بانتظام، رغم أن سفنهم قد انقطعت عن المجيء إلى المخا[٢]. كما أشار ماكرو إلى أن الهولنديين أيضاً قد احتفظوا بمبنى وكالتهم التجارية في المخا طوال القرن الثامن عشر، رغم إغلاق الوكالة[٣].

وإلى جانب الدول الأوروبية الثلاث، المذكورة، دخلت إيطاليا وأمريكا أيضاً ميدان المنافسة في منطقة البحر الأحمر، وإن كان ذلك لم يتم إلا ابتداءً من القرن التاسع عشر[٤].

وإلى جانب تنافس هذه الدول في منطقة البحر الأحمر بشكل عام وعلى السواحل اليمنية بشكل خاص، كان هناك نشاط تجاري بسيط، لدول أوروبية أخرى، كالنمسا، التي مارست نشاطاً تجارياً مع المخا، في الفترة من ١٧١٩ م وحتى ١٧٢٧ م. كما قامت الدينمارك بنشاط تجاري متقطع مع المخا في القرن السابع عشر، والسويد في القرن الثامن عشر[٥].

ضمن هذا الإطار التاريخي، المتميز بالصراع والتنافس، بين الدول الأوروبية، داخل أوروبا وخارجها، والمتميز في الوقت نفسه بالتحولات العميقة، التي مست كافة جوانب الحياة الأوروبية، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وفي غمرة النشاط العلمي، الذي كانت تمارسه

---

(١) أباظة، عدن، ص ٧٢.

(٢) Niebuhr, C., RB. Bd.I, S. 444. U.BVA, S. 222

(٣) ماكرو، اليمن والغرب، ص ٣٥.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ص ٦٠ وما بعدها، ١٣٠ وما بعدها.

(٥) انظر: المصدر نفسه، ص ٤٢.

المؤسسات العلمية، وكان يمارسه العلماء المتخصصون ويشجعه الحكام، الذين حاولوا من خلال ذلك أن يضفوا على أنفسهم صفة رعاية العلم والعلماء. ضمن هذا الإطار، قدمت البعثة العلمية الدنماركية في نهاية عام ١٧٦٣ م إلى العربية السعيدة.

وكانت اليمن، عند قدوم البعثة إليها، تتمتع باستقلالها السياسي، منذ خروج الأتراك منها عام ١٦٣٥ م. وكان يحكمها حكام عديدون، كان أقواهم وأوسعهم رقعة هو الإمام المهدي عباس(*) بن الإمام المنصور. وقد كانت لليمن في تلك الفترة التاريخية علاقات تجارية بالعالم الخارجي، عبر نوافذها البحرية، وخاصة عبر مينائها الشهير المخا، الذي ارتبط باسمه اسم البن اليمني، فغدا اسم مكا رمزاً لأجود أصناف البن في العالم.

(*) الإمام المهدي عباس، ابن الإمام المنصور حسين، ولد عام ١١٣١ هـ/١٧١٩ م، وتوفي عام ١١٨٩ هـ/١٧٧٥ م، بويع بالإمامة بعد وفاة أبيه عام ١١٦١ هـ/١٧٤٨ م، واستمر في الحكم حتى وفاته. انظر: العمري، مئة عام، ص ١١، ١٩ وما بعدها.

الفصل الثاني

البعثة الدينماركية إلى اليمن وكارستن نيبور

١ـ البعثة الدينماركية:

أـ فكرة البعثة:

ولدت فكرة إرسال بعثة إلى (العربية السعيدة) على يد البروفسور يوهان ميشائيلس (Johann Michaelis)، أستاذ اللاهوت في جامعة جوتنجن (Göttingen) الألمانية، الذي كان مهتماً بدراسة التوراة، وتفسير نصوصها. فقد خرج البروفسور ميشائيلس عن النظرة الدينية التقليدية إلى التوراة، تلك النظرة التي تعتبر التوراة كتاباً كل كلمة فيه، إنما هي صادرة عن الله، ولا يجوز أن تكون موضع دراسة أو تساؤل، وأراد أن يتعامل معها، أي مع التوراة، كنصوص، يمكن أن تكون موضوعاً للدراسة التاريخية واللغوية

وبينما هو بصدد دراسة التوراة، رسخت في ذهنه فكرة، مؤداها، أن القيام برحلة إلى (العربية السعيدة)، يمكن أن يساعد في الإجابة على أسئلة كثيرة، تطرح نفسها على الباحث، حتى وهو يعالج النصوص، معالجة لغوية بحتة. فهناك نباتات وحيوانات، ورد ذكرها في التوراة، ويمكن لبعثة علمية إلى اليمن أن تقوم بدراستها، كما يمكن مثلاً القيام بدراسة جغرافية، وخاصة لموضوعات تتعلق بالتوراة، مثل حركة المد والجزر في البحر الأحمر، التي كان لها أهمية

كبيرة، بالنسبة لهروب بني إسرائيل من مصر[1].

وقد رأى ميشائيلس، أن دراسة (العربية السعيدة) هي أكثر أهمية بالنسبة لتفسير التوراة، حتى من دراسة فلسطين نفسها، وذلك لأنه من النادر وجود شعب في العالم، حافظ على أشكال الحياة وأساليب المعيشة وأنماط التفكير القديمة، كشعب (العربية السعيدة). لذا فإن الحياة في (العربية السعيدة)، هي أقرب إلى الحياة التي عرفها الإسرائيليون، من الحياة الحالية في فلسطين نفسها، إذ إن فلسطين قد خضعت عبر القرون لمؤثرات أجنبية كثيرة[2].

ومن جامعة جوتنجن (Göttingen)، انتقلت الفكرة إلى حكومة الدينمارك، عبر رسالة وجهها البروفسور ميشائيلس إلى بيرنشتورف (Bernstorf)، وزير خارجية الدينمارك، والمسؤول عن إدارة شؤون إمارة شليسفيج وهولشتاين (Schleswig und Holstein) الألمانية[3]، عرض له فيها أهمية القيام بمثل هذه الرحلة، حيث ـ كما ذكر ـ «إننا لا نعرف عن العربية السعيدة إلا النذر اليسير، وإن مثل هذه الرحلة، إذا قام بها رجل مطلع ومعد في مجال الجغرافيا وعلوم الطبيعة وعلم اللغة والتوراة، سوف تحقق الكثير»[4].

وتساءل ميشائيلس في رسالته عن إمكانية تبني ملك الدينمارك لهذه الفكرة، على أن لا توكل مهمة القيام بالرحلة إلى أحد المبشرين أو رجال الدين[5].

هكذا بدأت الفكرة بسيطة ومحدودة، إلا أنها تبلورت واتسعت بعد ذلك،

---

(١) Hansen, Reise, S. 12 - 13.
وانظر أيضاً: الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر الخروج ص ١١٠ ـ ١١٢. وكذا القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ٥٠، سورة الأعراف الآية ١٣٨، سورة يونس، الآية ٩٠، سورة طه، الآية ٧٧، سورة الشعراء، الآية ٦٣ ـ ٦٦.

(٢) Hansen, Reise, S. 13.

(٣) Lohmeier, Niebuhr, S. 10.

(٤) Lohmeier, Niebuhr, S. 55.

(٥) Lohmeier, Niebuhr, S. 55.

على يد بيرنشتورف[1]، لتأخذ شكلها النهائي، بالصورة التي نعرفها عنها اليوم.

ب. أهداف البعثة:

مثلما بدأت فكرة البعثة بسيطة ومحدودة ثم اتسعت، كذلك بدأت أهدافها العلمية منحصرة في جلب المعلومات اللغوية والطبيعية والجغرافية والاجتماعية، التي من شأنها أن تساعد على تفسير وفهم نصوص التوراة[2]، ثم اتسعت وتعددت وأصبحت ذات طابع شمولي، تجاوز حدود التوراة، لتخدم علوماً أخرى، ولترتبط باهتمامات علماء في مختلف الجامعات الأوروبية أخذوا يتابعون إعداد البعثة باهتمام، وكل منهم ينتظر أن تخدم نتائجها مجال تخصصه، وخاصة أن البعثة في شكلها الأخير قد ضمت في عضويتها متخصصين في اللغات والجغرافيا والفلك والرياضيات والطبيعة. وإذا حاولنا هنا أن نحدد أهدافها بصورتها النهائية، استناداً إلى المصادر الأصلية، وإلى بعض المصادر الثانوية، فإنه يمكننا أن نتبين أهدافاً متعددة، لبت مختلف الاهتمامات:

فبالنسبة لملك الدينمارك فريدرش أو فريدرك الخامس (Friederich V) وحكومته، أوجزت التعليمات الملكية، الموجهة إلى البعثة(*)، والصادرة بتاريخ ١٥ ديسمبر عام ١٧٦٠ م، في المادة الأولى، هدف الرحلة بصورة إجمالية، على النحو التالي: «وعلى أعضاء الرحلة المذكورين أعلاه أن يتوجهوا معاً إلى العربية السعيدة وأن يضعوا جميعاً نصب أعينهم دائماً الهدف النهائي للرحلة المحدد من قبل جلالتنا، وهو القيام بأكبر قدر ممكن من الاكتشافات العلمية في هذا البلد»[3].

---

(١) Lohmeier, Niebuhr, S. 55.

(٢) Lohmeier, Niebuhr, S. 10, 55.

(٣) Lohmeier, Niebuhr, S. 60.

(*) التعليمات الملكية الموجهة إلى البعثة هي أشبه ما تكون بنظام داخلي مكون من ٤٣ مادة، ينظم عمل البعثة ويحدد أدوار ومهام أعضائها... إلخ. وقد نشرها ميشائيلس في كتابه Fragen وأعاد نشرها Lohmeier في كتابه Niebuhr.

ويمكننا بعد من خلال الدعاية الواسعة، التي رافقت تجهيز الرحلة، أن نلمس أهدافاً أخرى غير علمية، ترتبط برغبة الملك في أن يضفي على نفسه صفة المشجع للعلم ورعاية العلماء، وهي صفة حرص كثير من الحكام أن يضفوها، وأن تصبح مدعاة لفخرهم، ودليلاً على تميزهم عن معاصريهم من الملوك والحكام(*). وتعبر إحدى الصحف الدنيماركية، الصادرة في كوبنهاجن، بتاريخ ١٢ يناير عام ١٧٦١م (Kiobenhavnske Danske Postidende, 12.1.1761)، عن هذا الهدف الخفي، بعبارات واضحة الدلالة:

«إن كل جلالته ـ رغم همومه السياسية الكبيرة في هذه الظروف الصعبة ـ يطمح، طموحاً لا يعرف الكلل، إلى التوسع في التعليم، ورعاية العلم، والارتفاع بمكانة شعبه، من خلال عمل مفيد وعظيم، فقد قام جلالته، قبل بضعة أيام، بإرسال مجموعة من العلماء إلى القسطنطينية، على ظهر الباخرة جرين لاند (Gronland) المتجهة إلى البحر المتوسط، حيث ستتجه هذه المجموعة من هناك إلى العربية السعيدة، عبر مصر...»(١).

ويمكن إلى جانب ذلك، أن نفترض وجود دوافع أخرى، سياسية واقتصادية، ترتبط بما نعرفه من طموحات الدول الأوروبية، إلى توسيع علاقاتها ومناطق نفوذها السياسي والاقتصادي، وهي طموحات ذات صلة مباشرة أحياناً، وغير مباشرة أحياناً أخرى، ببعض الكشوف العلمية والجغرافية، التي تحققت على أيدي الأوروبيين خارج القارة الأوروبية منذ مطلع العصر الحديث(٢).

أما بالنسبة للعلماء، وأساتذة الجامعات، فقد تركزت أهداف البعثة في

---

(١) Hansen, Reise, S. 10

(٢) Wetter, Georgraphie, S. 50

(*) [illegible] على سبيل المثال، [illegible] الثاني، المعروف بفريدريك الكبير، الذي حرص على [illegible] بالفلسفة والعلم والفن، من مختلف أرجاء أوروبا، إلى [illegible] من المفكرين الأوروبيين، فغدا في نظر [illegible] وكان ذلك مصدراً لاعتزازه، ودليلاً على تفوقه. وقد كان فولتير

جمع أكبر قدر من المعلومات، التي يتوقع كل منهم أن تخدم مجال تخصصه، وأبحاثه العلمية، فالبروفسور ميشائيلس، على سبيل المثال، وهو الأب الروحي لفكرة البعثة، كان هدفه أن يستفيد من نتائج الرحلة في دراسته التي كان يقوم بها للتوراة، وأن تجيب المعلومات، التي ستحصل عليها البعثة، على الكثير من التساؤلات التي تحتاج إلى إجابات. بل وأن تعزز نتائج الرحلة نظرته المتحررة إلى التوراة، باعتبارها نصوصاً يمكن دراستها لغوياً وتاريخياً، من خلال دراسات تاريخية ولغوية وجغرافية للبيئة التي وجدت التوراة فيها. ولأن هذه البيئة متعددة الجوانب، فإن دراستها دراسة شاملة تمثل أفضل السبل للوصول إلى معلومات تفيد في تفسير وفهم التوراة. لذا تضمنت الأسئلة التي صاغها والتي استوحاها من اهتماماته أولاً ومن اهتمامات العلماء المتصلين به ثانياً تغطية شاملة لمظاهر الحياة، من نبات وحيوان وأرض ومناخ وبشر... إلخ. ولعل هذه الأسئلة التي تضمنتها قائمة مكونة من مئة سؤال[1]، تعبر عن الأهداف العلمية للرحلة أوضح تعبير.

وإلى جانب هذه الأهداف الشمولية، التي عبرت عنها أسئلة ميشائيلس التفصيلية الدقيقة(*)، كانت هناك بعض الأهداف، أو لنقل بعض الاهتمامات الجزئية المحددة، لهذا العالم أو ذاك، مثل البروفسور ليني (Linné)، أستاذ فورسكال (Forskal)، الذي عبر عن هذا الاهتمام في طلبه إلى تلميذه، وهو يودعه، أن يبعث إليه بغصن من شجرة البلسم، التي تحدثت عنها التوراة، لعله

(١) انظر: Michaelis, Fragen, S. 1 FF

(*) نشرت تلك الأسئلة فيما بعد في كتاب مكون من حوالي ٤٠٠ صفحة. وقد كانت الأسئلة طويلة ومفصلة، حرصاً من السائل على الحصول على أجوبة تفصيلية. فأسئلة، مثلاً، عن طبيعة الجراد وأنواعها وعن الأمراض التي تصيب النبات وعن سيل العرم... إلخ، استغرق كل منها ما يزيد على عشر صفحات. وأما السؤال المئة، وهو السؤال الأخير فقد استغرق خمسين صفحة. وهو سؤال عن أنواع مختلفة من الطيور، كالنسر والعقاب والبازي والنورس والحباري والقطا والشرقراق. إلخ.
انظر مثلاً: Michaelis, Fragen, S. 79 FF., 209 FF., 269 FF.

يستطيع أن يشاهدها ويدرسها ويحدد إلى أي فصيلة من فصائل النبات تنتمي، قبل أن يدركه الموت[(١)].

جـ. تكوين البعثة:

تكونت البعثة من خمسة أعضاء من العلماء الشباب، اثنان منهم من الدينمارك، واثنان من ألمانيا، وواحد من السويد، تتراوح أعمارهم بين الثامنة والعشرين، والرابعة والثلاثين[(٢)]، وينتمون إلى تخصصات علمية مختلفة: فالبروفسور فريدرش كرستيان فون هافن (Friedrich Christian Von Haven)، الدينماركي الجنسية، متخصص في علوم اللغة. والبروفسور بيتر فورسكال (Peter Forskal)، السويدي الجنسية، متخصص في علوم الطبيعة والنبات. والمهندس كارستن نيبور (Carsten Niebuhr)، الألماني الجنسية، متخصص في الرياضيات والفلك والجغرافيا. والدكتور كرستيان كارل كرامر (Christian Carl Cramer)، الدينماركي الجنسية، متخصص في الطب، والطبيعة أيضاً. وجيورج قلهلم باورنفايند، (Georg Wilhelm Baurenfeind) الألماني الجنسية، متخصص في الرسم[(٣)]. وقد خضعت البعثة لإعداد علمي خاص، امتد عدة سنوات، كان الهدف منه استكمال جوانب النقص في تخصصات أعضائها. فنيبور مثلاً كان تخصصه الأصلي مسح الأراضي، ولذا فقد كان عليه أن يتعمق في دراسة الرياضيات والفلك والجغرافيا، حتى يصبح مؤهلاً للقيام بالمهمة الموكلة إليه. وإلى جانب هؤلاء الخمسة أُلحق بالبعثة خادم سويدي، هو برجّرين (Berggren).

وقد حددت التوجيهات الملكية المهام العلمية لأعضاء البعثة بدقة. أما المهام الإدارية، فقد كان من المفترض أن يتولى البروفسور الدينماركي فون

---

(١) Lohmeier, Niebuhr, S. 30, u. Hansen, Reise, S. 261.

(٢) Hansen, Reise, S. 9 - 10.

(٣) Lohmeier, Niebuhr, S. 59 - 60. U. Hansen, Reise, S. 11.

هافن رئاسة البعثة، إلا أن سلوكه خلال سنوات الإعداد قد أثار قلقاً لدى كل من البروفسور ميشائيلس والوزير بير نشتورف، وخشيا أن تؤدي طبيعته الميالة إلى الإهمال والتسويف واختلاق الأعذار إلى فشل البعثة. وخوفاً من أن يؤدي تعيين شخص آخر لرئاسة البعثة إلى خلق جو من التوتر والمشاحنات، حيث كان فون هافن قد هيأ نفسه لرئاستها. فقد أُلغيت فكرة تعيين رئيس للبعثة واكتفي بتعيين نيبور أميناً لماليتها. وأكدت المادة السادسة من التوجيهات الملكية أن أعضاء البعثة متساوون، ولا يملك أحد منهم سلطة على الآخرين، وأن قراراتهم المتعلقة بإدارة عمل البعثة، يجب أن تتخذ من خلال مناقشة جماعية، وبأغلبية الأصوات[1].

د. خط الرحلة:

كان من المفترض أن تتجه البعثة إلى اليمن، عن طريق الخط البحري الدائر حول إفريقيا، إلى مستعمرة ترنكبار (Trankebar) في الهند، ومنها إلى اليمن[2]. وكان هذا هو الخط الذي اقترحه البروفسور ميشائيلس في رسالته إلى الوزير بيرنشتورف، عندما طرح عليه فكرة البعثة، بشكلها الأولي البسيط، إلا أنه قد صرف النظر عن هذا الخط، أثناء فترة إعداد البعثة، باقتراح من الوزير بيرنشتورف نفسه، كما روى ذلك البروفسور ميشائيلس، وحدد خطاً جديداً، أكثر كلفة، ولكنه بحسب رأي بيرنشتورف وميشائيلس، أكثر فائدة علمية[3]، وقد تضمنت التعليمات الملكية (المادة ٣) تحديد واضحاً لخط الرحلة الجديد، حيث تبدأ الرحلة من كوبنهاجن، عبر البحر إلى القسطنطينية، فالإسكندرية، ثم براً إلى القاهرة، ومنها إلى جبل سيناء، ثم من

(١) Lohmeier, Niebuhr, S. 58

(٢) Lohmeier, Niebuhr, S. 61 - 63

(٣) Lohmeier, Niebuhr, S. 58

السويس عبر البحر الأحمر إلى اليمن، لتبقى في اليمن سنتين إلى ثلاث سنوات[1].

وحتى لا يبقى مجال للإلتباس، وخاصة أن البعثة قد أجرت أبحاثها في مصر وعلى امتداد خط الرحلة إلى اليمن، ثم واصل نيبور أبحاثه في طريق عودته إلى أوروبا عبر الهند وعمان وإيران والعراق وسورية وقبرص وفلسطين ولبنان وتركيا. إلخ. ، لا بد أن نؤكد هنا، أن محور الرحلة قد تركز حول إجراء أبحاث في (العربية السعيدة)، فقد كانت منذ بدء الرحلة، وحتى انتهائها. هدف الرحلة، والمجال الرئيسي لأبحاثها.

انطلقت البعثة في رحلتها من كوبنهاجن في ٤ يناير ١٧٦١ م. ووصلت القسطنطينية في ٣٠ يوليه من العام نفسه، بعد أن توقفت في عدة موانىء أوروبية. وفي ١١ أغسطس غادرت البعثة القسطنطينية إلى الاسكندرية، لتصلها في ٢٦ من الشهر نفسه. ومن الإسكندرية إلى القاهرة، حيث وصلتها في ١٠ نوفمبر. وبعد أن مكثت في مصر حوالي عام، غادرت القاهرة في ٢٨ أغسطس ١٧٦٢ م باتجاه السويس، لتصلها في ٣١ أغسطس. ومن السويس قام بعض أعضائها فون هافن ونيبور برحلة إلى جبل سيناء. وفي ١٠ أكتوبر غادرت البعثة مدينة السويس بحراً باتجاه اليمن، ووصلت ميناء جدة في ٢٩ أكتوبر. وغادرته في ١٩ ديسمبر، ووصلت ميناء اللحية في ٢٩ ديسمبر. ومن ميناء اللحية بدأت البعثة أبحاثها في اليمن.

أما خط الرحلة، الذي سلكته داخل اليمن، فقد كان على النحو التالي:

غادرت البعثة اللحية في ٢٢ فبراير ١٧٦٣ م ووصلت بيت الفقيه في ٢٥ فبراير. ومن بيت الفقيه، قامت برحلات فرعية متفرقة، أهمها رحلات نيبور إلى غليفقة، والحديدة، وزبيد، ورحلته الجبلية المشتركة مع فورسكال، باتجاه

---

(1) Lohmeier, Niebuhr, S. 61.

العدين وحبلة وتعز ثم العودة إلى بيت الفقيه عن طريق (بلاد ابن ععلان) وحيس. وفي ٢٠ إبريل غادرت البعثة بيت الفقيه إلى المخا حيث وصلتها في ٢٣ إبريل. وفي ٩ يونيه غادرت المخا إلى تعز، بعد أن دفنت في المخا أول فقيد من أعضائها، وهو البروفسور فون هافن، الذي وافته المنية في ٢٥ مايو ١٧٦٣ م، متأثراً بالملاريا. وفي ١٣ يونيه وصلت البعثة إلى مدينة تعز، وغادرتها في ٢٨ يونيه باتجاه صنعاء، عبر مدينة إب وجبل سمارة، إلى يريم، التي وصلتها في ٥ يوليو، ودفنت فيها الفقيد الثاني من أعضائها، وهو البروفسور بيتر فورسكال، الذي توفي في ١١ يوليو ١٧٦٣ م، متأثراً بمرض الملاريا أيضاً. وفي ١٣ يوليو غادرت البعثة مدينة يريم، عن طريق ذمار، لتصل إلى صنعاء في ١٦ يوليو ١٧٦٣ م. وبعد إقامة قصيرة في صنعاء، قابلت البعثة فيها الإمام المهدي عباس، غادرتها في ٢٦ يوليو، باتجاه المخا، عن طريق مفحق وبيت الفقيه. وفي ٥ أغسطس وصلت المخا، لتغادرها باتجاه الهند في ٢٣ أغسطس من العام نفسه. وفي طريق العودة قضت الملاريا على أعضاء البعثة الآخرين، ما عدا نيبور فمات الرسام جيورج فلهلم وباور نفايند في ٢٩ أغسطس ١٧٦٣ م، قرب جزيرة سقطرة، ومات خادم البعثة برجّرين في ٣٠ أغسطس، أي في اليوم التالي لوفاة باور نفايند[1]، وقذف بجسديهما إلى البحر. أما الطبيب كرستيان كارل كرامر فقد توفي يوم ١٠ فبراير ١٧٦٤ م في مدينة بومبي بالهند[2]. وظل نيبور يواصل مهمة الرحلة منفرداً، ليتولى وحده في النهاية الإجابة على الأسئلة العلمية، التي كان على البعثة أن تجيب عليها مجتمعة، كل في مجال تخصصه، حيث عاد إلى الدينمارك في شهر نوفمبر عام ١٧٦٧ م.

هـ- المصاعب التي واجهتها البعثة في اليمن:

لا بد أن نقرر بداية أن المصاعب التي واجهتها البعثة في اليمن لم تترك

(١) Hasen, Reise, S. 336.

(٢) Baumhauer, Arabien, S. 72 f.; Hansen, Reise, S. 345.

لدى نيبور انطباعاً سلبياً عن اليمن، ولم تعكس نفسها على أحكامه، التي ضمنها كتابيه، وصف بلاد العرب (Beschreibung Von Arabien) ووصف رحلة إلى بلاد العرب والبلدان المجاورة (Reisebeschreibung nach Arabien und den Umliegenden Landern). فلقد كانت الجوانب الإيجابية، التي لمسها وعاشها خلال رحلته وتجواله في بلاد (العربية السعيدة)، أظهر من الجوانب السلبية، حتى بلغ تأثيرها في نفسه درجة، أخذ عندها يتلمس المبررات والأعذار الكفيلة بجعل تلك السلبيات مجرد ظواهر عرضية، لا تؤثر في الحكم العام على اليمن وأهله. وأخذ يعقد المقارنات، كلما وجد فرصة في سياق كتابه، بين أهل اليمن وعاداتهم وأخلاقهم ومعاملتهم للأجانب، وبين أهل مصر والأتراك، وهما البلدان اللذان كان قد مكث فيهما بعض الوقت، أثناء رحلته، قبل وصوله إلى اليمن. بل وفي مرار كثيرة، أخذ يقارن بين كرم وسماحة وترحاب أهل اليمن، وبين الأوروبيين في بلادهم. وتنتهي هذه المقارنات، عادة، لصالح سكان اليمن.

ولعل أبرز الصعوبات قد تولدت عن كون أعضاء البعثة قد وجدوا أنفسهم في بيئة مختلفة تماماً عن بيئتهم، ثقافياً واجتماعياً وجغرافياً ودينياً.. إلخ.. وكان مرض الملاريا هو أصعب الصعوبات، التي صادفت البعثة، وأجبرتها على تغيير خططها بصورة جذرية. فقد أصيب جميع أفراد البعثة، دون استثناء، بالملاريا في تهامة، وقضوا نحبهم الواحد تلو الآخر، بسبب هذا المرض. ولم تترك يد الموت سوى نيبور. ومع أن هذا المصير العجيب كان كفيلاً بأن يجعل نيبور يغير من نظرته إلى اليمن، وهو أمر متوقع ومفهوم، فبسببها فقد جميع رفاق الرحلة، وعلى رأسهم أهم أعضاء البعثة، صديقه فورسكال، إلا أن نظرة نيبور في الواقع لم تتأثر بهذا الأمر، على خلاف ما ذهب إليه بعض من كتبوا عن الرحلة، وحاولوا أن ينطقوا النصوص - نصوص كتابي نيبور - بما ليس فيها، فيزعمون، كما هو الحال بالنسبة لتوركلد هانزن Thorkild Hansen، أن نيبور، بسبب ما واجهه في اليمن، لم يعد يستخدم في كتاباته

اسم (العربية السعيدة)، واكتفى باسم (اليمن)، إذ إن هذه البلاد لا يمكن بالنسبة له أن تبقى موطن السعادة على الأرض[١]. أما نيبور نفسه فقد كان له رأي آخر. ولنقرأ معاً ما كتبه في مقدمة كتابه (وصف بلاد العرب) حول هذا الأمر:

«يخطىء المرء، إذا ظن أن رفاق رحلتي - نظراً لوفاتهم الواحد تلو الآخر - قد قضوا نحبهم بسبب وباء أصيبوا به. إني أعتقد، بالأحرى، أننا نحن أنفسنا كنا السبب فيما حصل، وأنه يمكن لغيرنا أن لا يقعوا فيما وقعنا فيه. لقد كانت مجموعتنا كبيرة، الأمر الذي لم يمكننا من التكيف سريعاً مع طبيعة الحياة في هذه البلاد. وفي أشهر كثيرة لم نكن نتمكن من الحصول على مشروبات كحولية قوية، كما نحن متعودون. وفي الوقت نفسه كنا باستمرار نتناول طعاماً المكون بصورة رئيسية من اللحم، وهو طعام يعتبر في البلدان الحارة غير صحي. وكنا نجد البرودة في الليل بعد نهار حار، ممتعة، بحيث كنا نعرض أنفسنا لها بارتياح. كما أننا لم نعط اعتباراً لاختلاف الحرارة بين الجبال والسهول، وهو أمر كان يجب أن نراعيه. لقد سلكنا طرقاً وعرة. وكانت رحلاتنا على تلك الطرق تتم بشكل سريع، ودون توقع كاف للراحة، وذلك من أجل أن نتمكن من التعرف على داخل البلاد. وكنا أحياناً نواجه مضايقات من الأهالي. ولكن لعل ذلك يرجع إلى أننا لم نكن قد عرفنا أهالي هذا البلد بما فيه الكفاية، الأمر الذي كان يجعلنا غالباً نعتقد، وبدون وجه حق، أن شكوانا لها ما يبررها، دون أن نضع في اعتبارنا، أنه حتى في أوروبا نفسها، لا يستطيع المرء دائماً أن يسافر دون مضايقات»[٢].

وإلى جانب مرض الملاريا كأبرز الصعوبات التي واجهت البعثة وأثرت في عملها وفي نتائج رحلتها، واجهت البعثة صعوبات أخرى أقل حدة، فبعد

---

(١) Hansen, Reise S. 341

(٢) Niebuhr, C. BVA. S. IX - X

إقامة مريحة في اللحية، كان أعضاء البعثة فيها موضع حفاوة وتكريم من قبل عامل اللحية وتجارها ومواطنيها غادرت إلى بيت الفقيه، لتتمتع هناك بإقامة مريحة أيضاً وتنجز أهم الأعمال العلمية عبر رحلات قصيرة في مناطق تهامة، وفي مناطق الجبال القريبة. ومن بيت الفقيه غادرت إلى المخا. وفي المخا بدأت الصعوبات تتوالى، فعامل المخا يختلف عن مثيليه في كل من اللحية وبيت الفقيه. وموظفو الجمارك أقل لطفاً من موظفي جمركي اللحية وبيت الفقيه. ولذا فقد تم تفتيش أمتعة البعثة، التي كانت قد أرسلتها بحراً من اللحية، تفتيشاً دقيقاً، وفتحت الزجاجات التي وضع فيها فورسكال مجموعاته البحرية، فصدرت عنها روائح مزعجة، استاء منها كل من تجمع في مبنى الجمرك، من المواطنين والموظفين، وكان بين الحيوانات المحفوظة بعض الحيات. فانطلقت الإشاعة سريعاً، بأن هؤلاء الأوروبيين يضمرون نوايا سيئة تجاه اليمنيين، وأنهم ينوون تسميمهم، بما سيستخلصونه من سم الحيَّات. ونظراً لهذا الوضع، توقف الموظفون عن فحص الأمتعة، وامتنعوا عن تسليمها إلى أصحابها. وعاد أفراد البعثة، ليجدوا أن صاحب البيت، الذي كان قد قبل تأجيرهم إياه، قد أخرج أدواتهم منه، ورفض السماح لهم بالمبيت فيه، بتحريض من صديقهم صالح. وامتنع سكان مدينة المخا عن إيوائهم، حتى تدخل قاضي المدينة لدى أحد السكان. وبعد ذلك عانت البعثة من عامل المخا، الذي لم يلطف من معاملته إلا بعد أن تسلم هدية من البعثة مقدارها خمسين دوكاتو. وقد تطوع صديق البعثة واسمه صالح، وهو شاب كان قد رافق البعثة في رحلتها البحرية من ميناء جدة، وواصل الرحلة مع السفينة إلى المخا وتحملت البعثة عنه أجرة السفينة، لأنها وجدته شخصاً لطيفاً(*)، تطوع لمضايقة

(*) كانت البعثة قد وثقت بذلك الشاب إلى درجة أنها بعثت معه معظم أمتعتها إلى ميناء المخا بما فيها مجموعات فورسكال وذلك عندما قررت أن تنزل في ميناء اللحية وتواصل السفر براً إلى المخا.

البعثة متخلياً عن لطفه، بعد أن يئس هو ووالده من ابتزازها، وكان والد صالح هذا واحداً من تجار المخا.

وبعد ان دفنت البعثة أول فقيد من أعضائها، وهو فون هافن، ارادت ان تغادر المخا، باتجاه صنعاء، إلا أن عامل المخا رفض أن يسمح لها بذلك، إلا بعد وصول إذن من الإمام. وبعد جهد، ولاعتبارات صحية، سمح لها أن تغادر إلى تعز، لعل أفرادها، وخاصة نيبور وفورسكال اللذان كان المرض قد أدركهما، يجدون في مناخ تعز اللطيف، فرصة للاستشفاء؛ على أن تنتظر هناك حتى يصل إذن من الإمام بالتوجه إلى صنعاء.

ورافق البعثة، في رحلتها من المخا إلى تعز، خادم من خدم عامل المخا، ليكون عيناً للعامل عليها. وقد سبب ذلك الخادم للبعثة الكثير من المضايقات. وفي تعز بدا عاملها غير مكترث بوجود أعضاء البعثة، إلا أنه قد حظر عليهم الصعود إلى جبل صبر، بسبب المشاكل التي كانت ناشبة بينه وبين بعض قبائل الجبل. وفجأة طلب العامل منهم الرجوع إلى المخا، حيث وصلته رسالة من عامل المخا، يطلب فيها عودتهم. وبينما هم يحاولون إقناع عامل تعز بالبقاء لديه، حتى تصل أوامر الإمام، إذا برسالة تأتي من عامل المخا، تشعرهم أن الإمام قد سمح لهم بالسفر إلى صنعاء. ويتضح أمر الرسالة السابقة، فإذا هي رسالة مزورة، كان وراءها خادم عامل المخا.

وبدأ عامل تعز يناور ويمارس ضغوطه عليهم، بغية إبتزازهم، فمرة يسمح لهم بالسفر، ومرة يمنعهم. ولم يكف عن ذلك إلا بعد أن تدخل قاضي تعز وكتب له: «لا تكن طماعاً مع هؤلاء، فهم أناس أغراب»[1].

ومع بدء الرحلة إلى صنعاء وقع فورسكال مرة أخرى فريسة لمرض الملاريا، بعد أن كان قد تماثل للشفاء. فأصبحت الرحلة، بسبب مرضه، أكثر

(١) Niebuhr, C. RB, Bd.1. S. 391.

صعوبة. فقد بلغت حالته من السوء حداً كان لا بد عنده من حمله على نقالة، أو ربطه فوق أحد الجمال. ووقع نيبور بدوره فريسة للمرض أيضاً، إلا أنه استمر، رغم ذلك، متحاملاً على نفسه، يستفسر دون انقطاع، عن أسماء القرى ويقيس الارتفاعات، ويحدد الاتجاهات، ويحسب المسافات، ليحملها جميعاً في نهاية النهار على خريطته التي كان يعمل على وضعها لليمن.

ووصلت البعثة إلى يريم، بعد عناء شديد. وفي يريم صادفت أصعب المواقف. حيث عوملت من قبل الأهالي معاملة قاسية، فرجمت نوافذ الدار التي استأجرتها بالحجارة، وتوفي فورسكال، أكبر علماء البعثة، متأثراً بمرضه، ودفن جثمانه في ظروف قاسية، أثناء الليل، وعلى عجل، خوفاً من الأهالي، في قطعة أرض اشترتها البعثة لدفنه. وبعد دفنه أخرجت جثته من قبل اللصوص، ونزع الكفن عنها، ثم تركت خارج القبر، فأمر العامل أحد اليهود بإعادتها إلى القبر، وسمح له أن يأخذ الصندوق، الذي كانت قد وضعت فيه كأجر له على قيامه بدفنها.

واعتبر عامل يريم نفسه وريثاً شرعياً لفورسكال، وأصر على أخذ جزء من أثوابه ومخلفاته. ولما لم تجد البعثة بداً من الإذعان لطلبه وافقت أن تسلمه ما يريد شريطة أن يحرر لها استلاماً مكتوباً بذلك. فإذا به يصرف النظر عن حقه الشرعي. وقد عبر نيبور عن اعتقاده أن العامل قد صرف نظره عن الإرث، لأنه كان يعرف أن البعثة ستواصل سفرها إلى صنعاء وخشي أن تطلع وزير الإمام على تصرفه[1].

هذه هي الصعوبات التي تستحق الذكر هنا. وإلى جانبها كان هناك الكثير من التسهيلات وحسن الاستقبال والمعاملة الطيبة، التي لقيتها البعثة، وتحدث عنها نيبور بإعجاب وارتياح. وسنأتي على ذكر بعضها في سياق حديثنا عن انطباعات نيبور عن اليمن.

---

(1) Niebuhr, RB, Bd.1, S. 404 - 405.

و. الأهمية العلمية للرحلة وأهم إنجازاتها:

تعتبر رحلة البعثة الملكية الدينماركية ـ أو رحلة نيبور كما عرفت فيما بعد ـ أول رحلة أوروبية إلى اليمن، خطط لها تخطيطاً علمياً منهجياً[1]، من ناحية، وأول رحلة ذات نتائج علمية حقيقية، من ناحية أخرى. فقد شملت حصيلتها مجالات عديدة، كالطبوغرافيا ورسم الخرائط والاثنولوجيا والطبيعة... إلخ[2] ورغم أن بعض نتائجها قد صححت أكثر من مرة، على امتداد ما يزيد على مئتي عام، إلا أنها ما زالت تتمتع بمكانة مرموقة في نظر المهتمين بالدراسات اليمنية، ولا زالت تعتبر دليلاً ومرشداً، لا غنى عنه للرحالة، من العلماء والدارسين، ومصدراً استمدوا منه معلوماتهم الأولية، التي انطلقوا منها إلى مزيد من الاكتشافات العلمية[3]. ويذهب فون ڤيسمن Von Wissman، وهو واحد من العلماء الذين زاروا اليمن في الثلاثينات من هذا القرن (القرن العشرين) ونشروا دراسات وأبحاث عنها، يذهب إلى القول، أنه لا مثيل لهذه الرحلة، لا فيما سبقها من الرحلات ولا فيما تلاها. وأن هناك مناطق في اليمن، لم يتعرض للحديث عنها أحد من الرحالة بعد نيبور، وحتى الثلاثينات من هذا القرن[4].

لقد تكفلت جملة من الظروف والأسباب في جعل هذه الرحلة من أبرز الظواهر العلمية في عصرها، وإحلالها مكانة، لا زالت تتمتع بها حتى اليوم. فمن حيث الإعداد، لم تحظ رحلة علمية أخرى بما حظيت به هذه الرحلة، من إعداد علمي طويل، امتد أكثر من خمسة أعوام. ولم تشد رحلة أخرى أنظار العلماء الأوروبيين، وتثر اهتمامهم، كما فعلت هذه الرحلة. فقد تابعوا أخبارها

---

(١) Schlobies, Die Wissensch. S. 239.

(٢) انظر: Weber, Forschungsreisen, S. 4 - 5.

(٣) قارن: Baumbauer, Arabien. S. 73.

(٤) Baumbauer, Arabien S. 20

وبعثوا إليها من مختلف جامعاتهم بالاستفسارات العلمية، التي تمنوا أن تتمكن من الإجابة عليها[١].

ومن حيث النتائج، مثلت فتحاً علمياً كبيراً، إذ عرّفت العلماء الاوروبيين بالعربية السعيدة، التي لم يكونوا يعرفون عنها إلا القليل. وظلت حصيلتها، كما تقدم زاداً لا غنى عنه للمهتمين باليمن، من الرحالة والباحثين.

يضاف إلى ما تقدم المصير المأساوي لأعضاء البعثة، الذي لا شك أنه قد ولد تعاطفاً إنسانياً تجاههم، وجعل ما انجزوه، ودفعوا حياتهم من أجله، موضع تقدير وإكبار. ويمكن لنا هنا أن نسوق مجرد مثل سريع لهذا الإكبار من مقالة تحدث فيها شفاين فورث Schwein Furth عن رحلته إلى اليمن عام ١٨٨٧ م:

وكان قد انقضى ١٢٨ عاماً على رحلة نيبور، التي كانت رحلة العصر، عندما وصلت في ٤ يناير من هذا العام إلى جبل برع، منطقة البن في اليمن، وبكل ما لدي من حب استطلاع، مفعم بالغرور، تمنيت أن يُنظر إلى رحلتي على أنها عمل لا بأس به، مقارنة بما أنجزه عالم النبات السويدي، الذي غدر به الساح، فسقط هناك في اليمن،ولم يكد يبلغ السابعة والعشرين من عمره، بعد أن استطاع خلال رحلته، التي لم تتجاوز نصف عام واحد، أن يجمع كنزاً من المعلومات العلمية، التي نشرها نيبور بمساعدة العالم سويجا Soega ، في مجلد لا غنى عنه حتى اليوم، في التعرف على نباتات ذلك البلد، وسيبقى هذا المجلد، في جميع الأزمان، مثالاً يعبر عن الاجتهاد العجيب، وعن موهبة الملاحظة التي لا تضاهى لدى فورسكال الرائع»[٢].

وعلى الرغم من هذه المكانة، التي احتلتها رحلة البعثة الملكية الدنماركية إلى اليمن، في نظر العلماء والباحثين والرحالة، المهتمين باليمن،

---

(١) Hansen. Reise, S. 11

(٢) Schweinfurth. Brifl Mitteilungen, S. 299 - 300.

إلا أننا نعتقد استناداً إلى ما بأيدينا من مخلفاتها، أن وفاة أعضاء البعثة جميعهم، باستثناء نيبور، قد أثر تأثيراً حاسماً في نتائجها، وجعل إنجازاتها العلمية ـ على ضخامتها ـ أقل بكثير مما كان يمكن أن تنجزه، لو بقي أعضاؤها أحياء، يواصلون أبحاثهم على امتداد الرحلة، ويشتغلون بدراسة ما جمعوه من مواد ومعلومات بعد انتهاء الرحلة. وتأكيداً لما ذهبنا إليه يكفي أن نلقي نظرة سريعة على مصير المجموعات النباتية والحيوانية التي جمعها فورسكال:

أرسل فورسكال من القسطنطينية أول مجموعة من النباتات والحيوانات البحرية، التي كان قد جمعها أثناء رحلته البحرية من كوبنهاجن إلى القسطنطينية، ولكنها لم تصل إلى كوبنهاجن إلا بعد عامين، وكان الكحول الذي حفظت فيه قد تبخر وفسد الجزء الأعظم منها. ومن القاهرة أرسل ثلاثة طرود ومجموعة صناديق، مملوءة بالنباتات والحيوانات والطيور المحفوظة. ولكنها لم تصل إلا وقد عبثت بها الأيدي، ولحقت بها الأضرار. ومن مدينة السويس بعث بصندوق ضاع في الطريق. وفي ميناء المخا تم تحطيم جزء من الصناديق وفسدت محتويات الجزء الآخر منها، بسبب الحر الشديد، وطول الاحتجاز في الجمرك، وانتهى الأمر إلى رميها في البحر(*). ورغم ذلك فقد تمكن فورسكال أن يجمع، في اليمن قبل موته، ويحفظ من النباتات والحيوانات والبذور، قدر اثني عشر صندوقاً، حملها نيبور معه إلى الهند، ومن هناك أرسلها بحراً إلى كوبنهاجن، فتحطم بعضها في الطريق، ووصل بعضها الآخر بعد ثلاثة أعوام من وفاة فورسكال أي عام ١٧٦٦ م. لقد جمع فورسكال آلاف الأصناف من النباتات والحيوانات والطيور البرية والبحرية، وبلغ ما جمعه من البذور فقط، ما يزيد عن ألفي صنف، كما يستدل من القوائم التي أثبتت فيها أسماء تلك الأصناف، وقد بعث بجزء من البذور إلى بعض الجامعات

(*) كان فورسكال قد جمع محتويات تلك الصناديق قبل وصوله اليمن وأرسلها بحراً إلى المخا. انظر هامش ص ٤٢ من هذا البحث.

الأوروبية. في كوبنهاجن ولندن وباريس ولايدن وغيرها، ووصل معظمها سليماً.

وقد خلف فورسكال، إضافة إلى ما تقدم، وإضافة إلى يومياته العديد من الملاحظات المكتوبة، وتصنيفات المواد التي جمعها، وموضوعات حول العادات والتقاليد واللغة والتاريخ والدين والتربية والبضائع والأسعار والعملات والأوزان... إلخ. وقد آلت جميعها إلى الإهمال، ولم يستطع ميشائيلس ولا أستاذ فورسكال - ليني - أن ينقذاها من قبضة الروتين والإهمال والصراعات والمنافسات. ولم ير النور منها إلا ما ضمنه نيبور في كتابيه، أو ما تم استنباته من بذور في الجامعات التي أرسلت إليها، أو ما تمكن نيبور من نشره باسم صديقه فورسكال، وكان هذا لا يمثل شيئاً، قياساً بما كان قد تم جمعه. وقد فقدت حتى يوميات فورسكال، ولم يتم العثور عليها إلا في عشرينات هذا القرن (أي القرن العشرين)، وتم طبعها في عام ١٩٥٠، أي بعد حوالي مئة وتسعين عاماً من موت فورسكال[١] وكأنما قد تنبأ فورسكال بالمصير الذي ستنتهي إليه جهوده، ففي رسالة كتبها إلى أستاذه ليني، وهو في بيت الفقيه، في ١٨ أبريل ١٧٦٣م، أي قبل وفاته بأقل من ثلاثة أشهر، ليزف إليه بشرى اكتشافه شجرة البلسم، التي يسميها اليمنيون (أبو شم)[٢]، وردت العبارات التالية «... حقيقة إن هذا بلد يستحق أن تأتي إليه بعثة علمية متخصصة في علم النبات... ولكن إذا لم يقدر لي أن أعيش إلى ذلك اليوم الذي أتمكن فيه من أن أناقش ما جمعته مع السيد ارشياتر Archiater ، فإن خسارتي، وخسارة العلم ستكون أكبر مما يستطيع الإنسان وصفها»[٣].

ولم تقتصر خسارة العلم على عدم تمكن فورسكال من مناقشة ما جمعه

---

(١) Hansen, Reise, S. 306 Ff.

(٢) Niebuhr, C., RB. Bd. 1. S. 352.

(٣) HAnsen, Reise, S. 261 - 262, 305.

بل إن مونه قد حرم العلم من تسجيل أي ملاحظات جديدة حول النباتات والحيوانات وغيرها مما يدخل ضمن تخصص علماء الطبيعة[1].

ورغم الخسارة الفادحة، فإن ما بذله نيبور من جهد غير عادي بهدف تحقيق نوع من التعويض، قد أبقى هذه الرحلة معلماً هاماً في سياق الرحلات العلمية الاستكشافية، التي قدمت من أوروبا إلى المنطقة العربية، وجعلها تحتل مكانتها المتميزة كما تقدم.

ولعل أهم الإنجازات التي بين أيدينا، إضافة إلى ما تبقى من مجموعات فورسكال ويومياته، وإلى ما خلفه رسام البعثة بورنفايند من رسوم، سجل فيها معالم البيئة اليمنية، الاجتماعية والطبيعية، هي ما أنجزه نيبور، وتتمثل بالخارطة التي وضعها لليمن، وتعتبر أول خارطة لليمن تتصف بقدر كبير من الدقة والتفصيل، وبكتابيه الهامين: (وصف رحلة إلى بلاد العرب والبلاد المجاورة الأخرى)، في ثلاثة مجلدات. و (وصف بلاد العرب) في مجلد واحد. وسوف نتحدث عنهما فيما بعد.

ز. لماذا أسرعت البعثة في مغادرة اليمن:

قبل أن نختتم الحديث عن البعثة بإجمالها، نود هنا أن نسرد الأسباب التي جعلتها تسرع في مغادرة اليمن. فقد كان من المقرر، وفقاً للتوجيهات الملكية، أن تمكث البعثة عامين إلى ثلاثة أعوام[2]. لكنها لم تبق سوى سبعة أشهر. وقد حرص نيبور على إيضاح هذه الأسباب في كتابه (وصف رحلة إلى بلاد العرب والبلدان المجاورة الأخرى) فقال:

«لقد عوملنا في صنعاء بلطف وترحاب، أكثر مما كنا نتوقع، حتى أن العديد من الأعيان، قد بذلوا جهدهم لإقناعنا، بأن نترك السفينة الإنجليزية[*]

---

(1) Niebuhr, C. RB, Bd. 2, Vorwort.

(2) Lohmeier, Niebuhr, S. 61.

(*) كانت البعثة قد عقدت العزم، وهي في المخا أن ترحل مع سفينة إنجليزية، كانت راسية هناك، وتحدد رحيلها في أول سبتمبر ١٧٦٣ م.

ترحل، وأن نبقى عاماً آخر في اليمن. وعلى الأرجح فإنه كان يمكن أن نبقى عاماً آخر دون أن نصادف أية متاعب من قبل الأهالي. ولكن لأن البروفسورين(**) قد ماتا ولا يستطيع أحدنا أن يسجل أية ملاحظات جديدة حول اللغة والطبيعة. ولأنني كنت قد شاهدت معظم المدن الغربية، في هذه المملكة الصغيرة، ووضعت المخطط الأساسي لخارطة اليمن. ولأننا كنا قد سمعنا الكثير عن طبائع الإمام الحاكم الجشعة. ولأننا كنا قد دخلنا في شجار شديد مع كل من حاكم المخا وحاكم تعز، ولا زلنا نخشى أن نقع في إشكالات جديدة معهما. ولأن المتاعب المستمرة الناتجة عن اختلاف الطقس والمياه، بين السهل والجبل، جعلتنا غير قادرين على التكيف. لهذا كله قررنا أن نرحل إلى المخا، ومنها إلى الهند، حفاظاً على سلامتنا وسلامة أوراقنا»[1].

وهكذا وجدت البعثة أن بقاءها عاماً كاملاً في اليمن، بعد أن قضت حوالي سبعة أشهر، لن يحقق فوائد علمية، تقاس بالمتاعب الصحية والإدارية المحتملة. لهذا قررت الرحيل، قبل انقضاء المدة الزمنية، التي كان مقرراً أن تمكثها في اليمن، بعد أن عاشت أشهراً مليئة بالعمل والبحث والمشاق والمرض والموت في آن واحد.

٢ ـ كارستن نيبور Carsten Niebuhr :

أ ـ شخصية نيبور:

كما يصنع المحققون، عندما يريدون أن يتحققوا من صحة الرواية التاريخية، فيخضعونها لعملية نقد ظاهري وباطني، تبدأ بدراسة شخصية الراوي، لما لشخصيته من تأثير على مصداقية الرواية نفسها، نجدنا مسوقون هنا إلى التعرف على شخصية نيبور لنتلمس من خلال ذلك، مدى دقته

---

(1) Niebuhr, C. RB. Bd.1. S. 425.

(**) يقصد بالبروفسورين البروفسور فون هافن والبروفسور فورسكال، وكانا الوحيدين اللذين يحملان هذا اللقب العلمي من بين أعضاء البعثة.

وصدقه، في تسجيل ملاحظاته ومعلوماته.

ومن حسن الحظ أن المادة التي بين أيدينا تقدم لنا صورة واضحة عن نيبور ليس فقط من خلال معلومات عن طفولته ونشأته وتعليمه، وإنما أيضاً من خلال مواقف تدل على أخلاقه، ترتبط ارتباطاً مباشراً بالرحلة نفسها.

ولد نيبور في ١٧ مارس ١٧٣٣م في منطقة ريفية، قرب مدينة هامبورج، في شمال ألمانيا، من أسرة فلاحية، لا علاقة لها بالعلم. ولم تكن القراءة والكتابة أمراً هاماً بالنسبة لها. وتوفيت والدته وهو في الشهر السادس من العمر، وتولت مسؤولية تربيته زوجة أبيه، وبدأ يعمل في الحقل في سن مبكرة. ولم يسمح له والده بالالتحاق بالمدرسة، إلا بعد محاولات إقناع متكررة وجهد كبير. ولكنه ما إن بدأ يتعلم القراءة والكتابة، حتى مات والده، وتوقف عن الذهاب إلى المدرسة، بناءً على أوامر الوصي، الذي رأى في المدرسة ترفاً لا معنى له.

كانت الأرض التي خلفها له والده لا تكفي لأن يعيش منها مستقبلاً، لهذا فكر بنوع من التعليم يستطيع أن يعتمد عليه في حياته. على أن لا يشترط هذا النوع من التعليم دراسة مسبقة. وهكذا اتجه إلى دراسة الموسيقى، وبالذات إلى تعلم العزف على آلتي الكمان والناي . ولكنه اضطر بعد فترة وجيزة إلى التوقف عن دراسة الموسيقى، نزولاً عند رغبة الوصي، وأخذ يعمل كفلاح أجير، لدى الوصي نفسه، حتى بلغ سن الرشد، وانتهت فترة الوصاية، عندها عاوده التفكير في تعلم مهنة يعيش منها. وقد هداه تفكيره، وهو يلاحظ أنه كلما نشب خلاف حول حدود الأراضي الزراعية يضطر المزارعون إلى استقدام مساح للأراضي من مدينة هامبورج، أن يتعلم مهنة مسح الأراضي. ولكن تعلم هذه المهنة يتطلب بعض المعارف السابقة، لذا اتجه نيبور إلى مدينة هامبورج

---

(١) للمزيد حول حياة (نيبور) انظر: Niebuhr, B G., Carsten Niebuhrs Leben, S. 2 FF.
وكذا: Hansen, Reise, S. 33 ff

والتحق، وهو في الثانية والعشرين من عمره، في إحدى المدارس، ليتلقى في وقت قصير التعليم الابتدائي، الذي كان يفترض أن يتلقاه في طفولته. وقد استطاع بإصراره وحده أن يلتحق سريعاً بالثانوية العامة. وفي عام ١٧٥٧م استطاع، وهو في الرابعة والعشرين من عمره، أن يسجل في جامعة جوتنجن لدراسة الرياضيات. وسرعان ما لفت انتباه أستاذ الرياضيات، البروفسور كيستنر Kästner ، الذي أخذ يوليه عنايته، وبذل جهداً لتأمين منحة دراسية له.

انكب نيبور على الدراسة بكل طموحه وبكل رغبته في التعلم، بعد حرمان طويل، وتركزت دراسته في البدء في الرياضيات وعلم الفلك. وفي يوم من أيام صيف ١٧٥٨م فاجأه أستاذه بسؤاله عما إذا كان يرغب في السفر إلى البلاد العربية. وكان رده بالإيجاب، فليس لديه ما يربطه بأحد في قريته، ولديه رغبة جامحة للتعرف على العالم الواسع. ولما أخبره أستاذه عن البعثة المزمع إرسالها، من قبل ملك الدينمارك أبدى تردده، إذ إن المشاركة في مثل هذه البعثة يتطلب درجة عالية من المعرفة. لكن أستاذه طمأنه وأكد له أن هناك سنوات إعداد علمي متخصص ستسبق إرسال البعثة.

وهكذا كان. أُعد نيبور علمياً، على أيدي أساتذة متخصصين، من أجل هدف محدد، وهو المشاركة في الرحلة إلى العربية السعيدة، في وقت كان فيه رفاق الرحلة على وشك إنهاء دراساتهم الأكاديمية المنتظمة.

بعد هذه اللمحة السريعة عن حياة نيبور، منذ طفولته، وحتى التحاقه كعضو في البعثة الملكية الدينماركية ـ وهي لمحة نستشف منها بعض خصائص نيبور الدالة على شخصيته الجادة، وعزيمته القوية، وقدرته على تحديد أهدافه. والسعي دون كلل لتحقيقها، وعلى قوته الداخلية، وقدرته على التكيف ـ سوف نستعرض بإيجاز، بعض المواقف، ذات العلاقة بالرحلة. وهي مواقف من شأنها أن تجعلنا نقترب أكثر من شخصية نيبور وأخلاقه.

كان فورسكال قد حصل على الدكتوراه، كما منح فون هافن فرصة

للحصول على الدكتوراه بشكل سريع في الفترة التي سبقت بدء الرحلة، كما كفل لهما مرتب تقاعدي في المستقبل ومنحا بناء على طلبهما لقب بروفسور كمقابل للاشتراك في الرحلة. وعندما سأل بيرنشتورف نيبور فيما إذا كان يرغب هو أيضاً في أن يمنح هذا اللقب كزميليه رد بالرفض، لأنه لم يحصل بعد على درجة الماجستير، فعرض عليه أن يمنح لقب (كابتن) لكنه رفض أيضاً لأن مثل هذا اللقب لا يتناسب مع سنه. وقد برر رفضه قائلاً: «إنني كبروفسور أو كابتن لا بد أن أشعر بالخجل إذا تبين يوماً من الأيام إنني لم أتعمق بما فيه الكفاية في أبحاثي الرياضية»[1]. وبعد لحظة صمت، كان فيها بيرنشتورف ينظر إلى نيبور متفحصاً متعجباً، قرر أن يطلق عليه لقب انجنير لويتنانت (*)، وهو لقب ـ كما يذكر هانزن ـ يعني باللغة الألمانية لاند فرميسر Landvermesser أي مساح أراضي[2].

وقد اتفق كل من بيرنشتورف والبروفسور ميشائيلس، على اختيار نيبور، ليكون مسؤولاً عن مالية البعثة، لما لاحظاه عليه من صدق وتواضع، وهما فضيلتان كفيلتان بجعل المرء يعرف حدوده ويلتزم بها.

وفي ميناء اللحية استقبلت البعثة استقبالاً كريماً، أثر في نفس نيبور تأثيراً عميقاً، ترك بصماته في صفحات كثيرة من كتابيه. فقد أعطيت للبعثة كل التسهيلات، وطلب عامل اللحية منها أن تنزل في ضيافته، وأكد لها أنها تستطيع

---

(١) Hansen, Reise, S. 39.

(٢) Hansen, Reise, S. 39.

(*) ولُد لقب انجنير لويتنانت Ingenieur-Lieutenant، الذي منح لنيبور التباساً فظن البعض أن لويتنانت هنا تعني لقباً عسكرياً ملازم فغدا نيبور لديهم ضبط البعثة في حين أن اللقب يعني تقريباً مهندس مساح أراضي باللغة الألمانية، كما أشار هانزن. وتعني Lieu بالإنجليزية مكان أو بدل أو محل. كما أن من معاني Lieutenant بالإنجليزية موظف يحل محل أو مكان رئيسه عند غيابه. وهذه المعاني تشير بشكل أو بآخر إلى المكان أو قياس المكان. لذا فإن تفسير هانزن لهذا اللقب هو أقرب إلى الصحة.

قارن: Hansen, Reise, S. 39

وكذا: الرعدي، من كوبنهاجن، ص ٢٣، ٥٠.

أن تتحرك بكل حرية وأمان. وبعث إليها برأس من الغنم، احتفاءً بوصولها، وقدم لها أحد تجار الهند تحية من الطعام، لوجبة العشاء. وعرض كل من العامل والتاجر أن يدفع أجرة السفينة التي أقلتها من ميناء جدة. وهنا يرفض نيبور هذا العرض، ويقوم بدفع أجرة السفينة، باعتباره المسؤول عن مالية البعثة. وقد عبر عن إحساسه تجاه هذه المعاملة الكريمة، بقوله: «إنه من غير المحتمل أن تلقى بعثة عربية في أوروبا، من قبل الأوروبيين مثل هذه المعاملة الكريمة»[1]. وعندما تجهزت البعثة لمغادرة اللحية، أراد عامل اللحية أن يدفع أجرة الجمال والحمير التي استؤجرت لنقل البعثة إلى بيت الفقيه، ولكن نيبور رفض ذلك بإصرار، قائلاً: «إننا لا نستطيع أن نقبل ذلك، فلم نأت إلى بلاد العرب لنعيش على حساب أهلها»[2]. ويكرر نيبور مضمون هذا القول، وهو يتحدث عن إقامة البعثة في صنعاء، وما لاقته من حفاوة وتكريم، فيقول: «إننا لا نريد أن نعيش على حساب اليمنيين»[3].

وأثناء عودة البعثة من صنعاء، متجهة إلى المخا، كان الإمام قد زودها بأوامر إلى العمال، على امتداد الطريق، بأن يتولوا استضافتها، استضافة كاملة، أثناء مرورها في مناطقهم. إلا أن نيبور ـ مخالفاً بذلك رغبة مرافقي البعثة من اليمنيين الذين كانوا يرغبون في أن يتمتعوا بكرم الضيافة، ويضفوا على أنفسهم نوعاً من الأهمية والمهابة، وهم يحلون ضيوفاً على العمال ـ كان يصر على أخذ ما هو ضروري لمتابعة الرحلة فقط، وفي الحدود الدنيا[4]. وفي هذا الصدد يذكر هانزن أن البعثة، عندما رحلت من اللحية إلى بيت الفقيه، حمل موظفوها اليمنيون أوامر من عامل اللحية، إلى المواطنين في القرى والمراكز التابعة إدارياً للحية، والواقعة على خط الرحلة باستضافة البعثة. وقد نفذ

(1) Niebuhr, C., RB. Bd. 1, S. 297

(2) Niebuhr, C., RB. Bd. 1, 310.

(3) Niebuhr, C., RB. Bd. 1, 416.

(4) Niebuhr, C., RB. Bd. 1, 436.

المواطنون تلك الأوامر، فكانوا يذبحون شاة كل مساء، لاستضافة البعثة. إلا أن نيبور كان يتسلل بهدوء في كل مرة، ويدفع ثمن الشاة لأصحابها. ويعلق هانزن على تصرف نيبور هذا بقوله: «لقد رحل نيبور بعيداً في هذا العالم. ولكن ليس بعيداً إلى الحد الذي ينسى عنده ما تعنيه شاة، بالنسبة لأسرة فلاحية في ريف شمال ألمانيا»[1]. ولم أجد في كتابات نيبور ما يؤكد رواية هانزن هذه. ولعل هانزن قد انساق إليها تحت تأثير أسلوبه الأدبي القائم على تزيين العبارات وتوظيف الخيال، وقد قاده توظيف الخيال مراراً كثيرة إلى تجاوز رواية نيبور نفسه. أما رواية نيبور في هذا الصدد فتتلخص بالآتي:

اقتضت أوامر عامل اللحية أن يقدم المواطنون شاة، لاستضافة البعثة، على امتداد الطريق، من اللحية إلى بيت الفقيه. وفي اليوم الأول وصلوا إلى إحدى المدن(*)، في وقت متأخر من الليل، ولذا لم يطلبوا من المواطنين تقديم شاة لهم. ولكنهم في اليوم التالي عرفوا أن أحد مرافقيهم، من خدم عامل اللحية، قد استغل الموقف، واستخلص من المواطنين ثمن الشاة، وتقاسمه مع حامية المدينة. لذا كما يقول نيبور: «لما رأينا أن الفلاحين لا بد أن يدفعوا في جميع الأحوال فقد قبلنا بعد ذلك في مدينة الضحي، كل ما كان على الفلاحين أن يقدموه لنا، بموجب أوامر عاملهم في اللحية»[2].

وتكتمل الصورة لدينا عن شخصية نيبور إذا وضعنا في اعتبارنا طريقة حياته أثناء الرحلة، وتفانيه في عمله، وحرصه على إنجاز مهمته، حتى وهو يصارع المرض. ولا يوازي هذا الحرص، إلا توخيه الدقة، عند تسجيل ملاحظاته، وعدم أخذ المعلومات، من الأفراد، وتدوينها، إلا بعد أن يبذل جهداً، في التأكد من صحتها، وذلك بعرضها على أكثر من فرد. وعندما كان

---

(١) قارن: Niebuhr, C., RB, Bd. I, S. 315 وكذا Hansen, Reise, S. 250

(٢) Niebuhr C., RB, Bd. I, S. 315

(*) أورد نيبور اسم المدينة هكذا: Dsjâlia

لا يستطيع أن يصل في تثبته، من صحة معلومة ما، إلى درجة الاطمئنان، ويجد مع ذلك ضرورة وفائدة في تسجيلها، فإنه كان يقوم بتسجيلها مع إشارات واضحة، إلى أنه لم يتمكن من التأكد من صحتها، وأنه لا يطمئن إليها كثيراً. وسنرى في الفقرة التالية طريقة عمله، ومدى الجهد الذي بذله، في توخي الدقة.

ب ـ حياة نيبور اليومية وطريقة عمله:

لكي نتعرف على جزء من حياة نيبور اليومية في اليمن، ليس أفضل من أن ننقل إلى العربية، فقرات من مذكراته اليومية، التي حرص على تسجيلها، يوماً يوماً، خلال رحلته. وهو هنا يتحدث عن استعداداته للسفر في رحلة قصيرة، من بيت الفقيه، إلى غليفقة والحديدة: «لم أقم بتحضيرات كبيرة لهذه الرحلة. استأجرت حماراً يحملني ويحمل معي كيساً، فيه بعض الملابس والكتب، وكانت ملابس الرحلة تتكون من عمامة ومعطف دون أكمام وقميص عربي فضفاض ومقطب عريض وزوج من النعال. ورغم أنه لا يخشى في تهامة من اللصوص، إلا أن المرء يسافر عادة مسلحاً. كنت أحمل سيفاً وأضع مسدساً في حزامي. وكان صاحب الحمار، الذي عمل خادماً ودليلاً لي في هذه الرحلة، يسير خلفي، مسلحاً بسيف ودرع، إضافة إلى الجنبية. ويتسلح الآخرون من الفقراء العرب برمح وفأس، بدلاً عن السيف. وقد اصطحبت معي مفرشة رديئة، تخدم عدة أغراض: كغطاء للسرج عند الركوب وكمقعد وطاولة عند الجلوس، وكفراش عند النوم. واصطحبت معي مخدة، أضعها في النهار على السرج، وفي الليل تحت رأسي. وأما قطعة القماش الكبيرة، التي يضعها اليمنيون خلال النهار على أكتافهم، ويستخدمونها لحمايتهم من الشمس والأمطار. فقد كانت غطائي في الليل. وكان وعاء الماء أمراً لازماً. وقد ربطته وتركته معلقاً إلى السرج. ويصطحب المسافر اليمني معه عادة غليوناً، وسط كيس من المجلد. ولم أكن محتاجاً إلى هذا العبء الإضافي، لأن عادة التدخين لم تكن مسيطرة علي إلى درجة عدم القدرة على الاستغناء عن الغليون

أثناء الرحلة. لقد وطنت نفسي منذ بعض الوقت على أن أعيش الحياة اليمنية بصورة مرضية. ولذا لم أعد بحاجة إلى الملعقة والشوكة والسكين. إن من يجد نفسه قادراً على السفر بهذه الصورة، وهو مرتاح، ولا يفارقه الإحساس بالرضى، حينما لا يجد في أحد النُزل شيئاً غير خبز رديء، سوف يشعر بمتعة السفر في اليمن كما شعرت بها تماماً. إن وجهاء اليمنيين يسافرون على نحو مختلف يتسم بالفخفخة، إلا أن مثل هذه الطريقة، لا تتطلب فقط إنفاقاً كبيراً، ولكن أيضاً يكون السفر بها غير مريح، عندما يصطحب المسافر معه عدداً كبيراً من الخدم، وأكثر من ذلك لا يستطيع الإنسان الثري أن يسافر في جميع الأوقات، على هذا النحو، وهو متمتع بالدرجة الكبيرة من الأمان نفسها التي يتمتع بها شخص يسافر دون أن يوحي مظهره بأن لديه الكثير»[١].

وإذا كان نيبور قد وطن نفسه على أن يعيش، ويلبس ويأكل وينام، ويتنقل، كاليمنيين العاديين، لاعتقاده أن هذه هي الطريقة المثلى للسفر دون مضايقات، من ناحية، وللتعرف على الحياة بشكلها البسيط والحقيقي، وهذه هي مهمته، من ناحية أخرى، فما هي الطريقة التي عمل بها؟

كان على نيبور أولاً أن يحسب سرعة الحمار. إذ أن الحمار في اليمن ـ كما يقول ـ سيكون هو وسيلة التنقل «ليس لأن الركوب على الخيل بالنسبة للمسيحيين ممنوع، كما هو الحال في القاهرة، بل لأن المرء في هذه البلاد لا يستطيع أن يجد بسهولة خيولاً للاستئجار»[٢]. وقد اكتشف نيبور ميزات في الحمار، تناسب طريقته في العمل تماماً. فهو مريح في سيره، ومنتظم في خطواته؛ إذ يخطو ١٧٥٠ خطوة مزدوجة في كل نصف ساعة. وقام أيضاً بحساب سرعة الجمل ـ رغم أن استخدامه للجمل كان نادراً ـ فوجد أن هناك نوعان من الجمال: صغير وكبير، فأما الصغير، فإنه يخطو ١٠٥٠ خطوة مزدوجة

---

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 222.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 311.

في كل نصف ساعة، وأما الكبير فيحضو في الزمن نفسه ٩٧٥ خطوة مزدوجة. أما الإنسان، فيحضو ١٥٠٠ حطوة مزدوجة، في الزمن نفسه. فإذا أصبحت السرعة معروفة، سهل بعد ذلك حساب المسافات، إذ يكفي، كما يقول نيبور: «أن الاحظ فقط الزمن، الذي قطعنا فيه المسافة، من منطقة إلى منطقة أخرى، ثم اقوم بتحويل الزمن إلى خطوات مزدوجة، وهذه إلى أميال»[1]. وكان الحساب يتم وفقاً للسرعة القصوى، فإذا سار حمار وبجانبه إنسان، تحسب سرعة الحمار، لأن الإنسان، في هذه الحالة، سيضطر لكي يواصل السير مع الحمار، أن يزيد من عدد خطواته. وقد استخدم نيبور بوصلة جيب صغيرة، وبعض الأدوات الفلكية، لتحديد الاتجاهات، ولحساب ارتفاع الشمس والنجوم، حتى يستطيع أن يحدد موقع كل منطقة، أومدينة أو قرية، بدقة، قبل تحميلها على الخارطة. وعادة ما كان يجري حساباته، وتحميلاته، في مساء كل يوم. وكان يدخل التصحيحات على ضوء المعطيات الجديدة، عند الإنتهاء من كل رحلة[2]. وحرص نيبور أن يحمل على خارطته أسماء القرى والمدن، التي مر بها، كما حرص أن يحمل أيضاً قرى ومدن لم يرها بل استقى معلوماته عنها من الأهالي العارفين. وقد حمل على خارطته حتى ما نسميها بالمقاهي (نُزل المسافرين) المفردة المتناثرة على امتداد الطرق الرئيسية، ورأى ذلك ضرورياً، ليستطيع الإنسان وهو يطالع الخارطة، أن يأخذ فكرة على درجة من الصحة، عن التوزع السكاني في اليمن. وهو أمر لم يهتم به «الرحالة الآخرون الذين يكتفون بملاحظة المناطق التي يمرون بها فقط»[3].

وفي سياق عرض نيبور لطريقة عمله، وبتواضع العالم، وبإحساسه بالقصور البشري، يعتذر عما يمكن أن يوجد في خارطته من نقص، بالعبارات التالية: «لا يستطيع المرء أن يتوقع أن تكون خارطتي، التي وضعتها لليمن،

---

(١) Niebuhr, C., RB. Bd. 1. S. 311-312.
(٢) Niebuhr, C., RB. Bd. 1. S.312. U.BVA, S. XXIII-XXIV.
(٣) Niebuhr, C., RB. Bd. 1. S.313.

على الدرجة نفسها من الدقة، التي يستطيع إحرازها أولئك، الذين يقومون بين الحين والآخر، بوضع خرائط لمناطق أوروبية، مستخدمين في قياساتهم أدق الأجهزة»[1]. ويضيف في مكان آخر «إن أولئك الذين يدركون كم هو صعب وخطر، بالنسبة لرجل غريب، أن يقوم بأعمال مسح، ويجمع معلومات جغرافية، في بلد غريب سيكونون ـ كما أعتقد ـ راضين بما عملته»[2] وقد حرص نيبور على وصف المدن التي مر بها، وصفاً دقيقاً. ولذا تجول فيها، وطاف حول أسوارها، وقاس مساحاتها، وسجل أبرز معالمها، ووضع تقديرات، لعدد سكانها استناداً إلى عدد منازلها.

وتحدث عن طريقته في وصف الأرض، وتحديد الأسماء، فأشار إلى أنه لم يكن قد أطلع على مراجع عربية تعينه على تحديد أسماء المواقع المختلفة، لأن لغته العربية لم تكن بالمستوى الذي يمكنه من أن يقرأ كتباً عربية(*)، ولذا لم يصطحب معه في رحلته سوى الكتاب الجغرافي، المعروف في أوروبا منذ وقت طويل، لأبي الفداء(**). وأما الكتب الجغرافية اليونانية، فإن الأسماء فيها غير سليمة، إلى درجة أنه يصعب التعرف عليها. لهذا فقد اعتمد على مشاهداته الشخصية، وعلى ما سمعه من الأهالي. ومن الطبيعي أن ما توصل إليه لا يمثل معلومات جغرافية كاملة، فهناك أسماء قرى ومدن أوردها أبو الفداء والشريف الإدريسي(***) لم يعثر عليها، مع أنه لم يشك في وجودها. وقد تمكن من

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 312.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, BVA, S. XXIV-XXV.

(*) بدأ نيبور دراسة اللغة العربية في جامعة جوتنجن لكنه انصرف عنها لصعوبتها وعكف على مواد تخصصه ثم عاود دراستها أثناء إقامته بالقاهرة.

(**) الكتاب المشار إليه هنا هو تقويم البلدان الذي ترجم إلى الفرنسية على يد المستشرق رينو. انظر: الأعلام ١/٣١٩.

(***) استشهد نيبور مراراً بالإدريسي وهذا قد يبدو متعارضاً مع قوله إنه لم يكن قد اطلع عند زيارته لليمن إلا على كتاب أبي الفداء إلا أن أبا الفداء نفسه قد أورد استشهادات ومقارنات استند فيها إلى كتاب الإدريسي كما يمكن أن يكون نيبور قد اطلع على كتاب الإدريسي بعد رجوعه إلى أوروبا وقبل نشر كتابه.

تحصل على معلومات عن مدن قديمة، وإمارات صغيرة في اليمن، لم تكن معروفة للأوروبيين حتى عصره(١). ولم يستحسن ـ كما أشار ـ الرجوع إلى الكتب الجغرافية المعروفة، لاستكمال المعلومات عن المناطق التي لم يرها لأنه لم يتمكن من جمع معلومات عنها بنفسه(٢).

وقد بذل نيبور جهده للتحقق من المعلومات الجغرافية المتعلقة بالمناطق التي لم يشاهدها. لذلك يستفسر عنها ويعيد الاستفسار لدى أكثر من شخص. ولم يكن الأمر سهلاً فالأهالي ليسوا على درجة واحدة من المعرفة ببلادهم. وقد لا تتوفر لديهم الرغبة، في أن يقدموا معلومات عن بلادهم للأجانب(٣). أما كتابة أسماء المدن والقرى والجبال والوديان... إلخ. فقد واجه صعوبة فيها، بسبب اختلاف نطق الأهالي لها، وهذا أمر طبيعي ـ كما يقول ـ حتى في البلدان الأوروبية. وقد كتبها بحسب السمع. وحاول قدر الإمكان أن يستكتبها من قبل أحد الأهالي، باللغة العربية(٤).

وقد حاول نيبور أن يجيب على الأسئلة التي كان يفترض أن يجيب عليها زميلاه المتوفيان، فون هافن وفورسكال. ولأن هذه الأسئلة بعيدة عن مجال تخصصه، فقد حاول جهده أن يجيب عليها، مستخدماً ما توفر له من معلومات، استمدها من الأهالي، أو اقتبسها من ملاحظات وإجابات متناثرة، في يوميات وأوراق فورسكال(٥). وقد اعتذر عن التقصير بقوله: «لا يستطيع المرء

---

(١)

(٢) Niebuhr, C. RB. Bd. I. S. XX

(٣) Niebuhr, C., RB. Bd. I. S. XXI

(٤) Niebuhr, C., RB. Bd. I. S. XXI

(٥) Niebuhr, C., BVA. S. XXI-XXII
في حالة الاقتباس من فورسكال، وإيراد ما كتبه حرفياً على أحد الأسئلة كان نيبور يضع في الهامش اسم فورسكال على خلاف ما يصنعه اليوم بعض الباحثين، الذين يتجاهلون قواعد الاقتباس.

أن يطلب مني إجابات كاملة على هذه الأسئلة بالصورة التي كان يمكن أن يجيب بها رفيقا رحلتي»[١].

ولجأ في تفسير بعض الكلمات العبرية إلى بعض اليهود، ولأنه لم يكن يعرف التخاطب بالعبرية فقد كان يشير بإبهامه إلى الكلمات. ولما كان اليهود لا يعرفون لغة أوروبية، بل يحاولون شرح المعنى باللغة العربية، فإن نيبور لم يستطع في بعض الأحيان أن يفهم شرحهم. ويفسر عدم فهمه بأنه، وإن كان يستطيع أن يتفاهم باللغة العربية في حياته اليومية، فإنه لا يستطيع بالدرجة نفسها أن يستخدمها في حوار علمي[٢].

ولقراءة الخط الكوفي، الذي تمكن من نقله في بعض المساجد والقبور، استعان بالمستشرق الدكتور رايسكه Reiske ، من مدينة لايبزج الألمانية، باعتباره كما يقول «يعرف قراءة الخط العربي القديم أفضل مما يعرفه العلماء العرب المعاصرين»[٣]. وقد وافاه الدكتور رايسكه بتفسير لبعض الخطوط، واعتذر عن عدم تمكنه من قراءة البعض الآخر.

وللحصول على إجابات معينة، كان عليه أن يتوجه بالسؤال إلى بعض الأهالي، وقد تطلب منه ذلك جهداً كبيراً ـ كما يقول ـ وذلك لأنه يصعب على الرحالة، الذي يمكث فترة قصيرة في منطقة ما، أن يقيم علاقات بالعلماء المحليين، وإذا استطاع، فإنه غالباً لا يتمكن من الحصول على إجابات واضحة، فهناك عادة تحفظ واضح تجاه أسئلة الأجانب. ولذا يجد المرء نفسه مضطراً إلى أن يسأل بصورة غير مباشرة، وأن يطرح أسئلته في سياق الحديث وبشكل غير محسوس. وهذا يتطلب صبراً كبيراً ووقتاً طويلاً. وبعد ذلك كله، لا يستطيع الإنسان أن يثق، كل الثقة، بصحة الإجابات التي حصل عليها «لأن

---

(١) Niebuhr, C., BVA, S. XVII-XVIII.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. XVIII.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. XXV.

المرء يصادف في بلاد الشرق أناساً لا يقولون الحقيقة، إما قصداً حتى لا يطلعوا الغرب، على كل ما يريدون معرفته، أو أنهم جاهلون، ورغم ذلك يعطون إجابات ليظهروا بمظهر من يعرف كل شيء»[1]. ولم يتوقف نيبور عن استفساراته، بعد مغادرته اليمن، بل استمر يحاول استيفاء الإجابات، على الأسئلة التي بين يديه، أثناء تجواله في البلاد العربية، وهو في طريق عودته إلى أوروبا. ورغم أنه كان يفحص كل إجابة يحصل عليها، بالاستفسار لدى أناس آخرين، مراراً عديدة، إلا أنه مع ذلك ظل يعبر عن شكه في أن يكون قد تلقى إجابات صحيحة[2].

أما بالنسبة لجمع المعلومات المتعلقة بتاريخ اليمن، فقد اعتمد نيبور على ما رواه له رجل هولندي، أحب فتاة في مدينة المخا، وأراد أن يتزوجها، إلا أن مسيحيته حالت دون ذلك. فأسلم وأشهر إسلامه، وكان والد الفتاة ينتظر منه أكثر من مجرد إشهار إسلامه. ولما كانت حالة الهولندي المادية لا تسمح بإرضاء والد الفتاة. فقد امتنع الوالد عن تزويجها به، فغادر المخا. وعاش ـ كما يقول نيبور ـ في منطقة حاشد وبكيل(*)، واختلط بالعلماء، وتفقه، ودرس التاريخ. وقد نقل نيبور ما سمعه منه، بعد أن سعى إلى التأكد من صحته، عن طريق طرح أسئلة تاريخية محددة، على علماء يمنيين، صادفهم أثناء رحلته[3]. ولم يتوقف عن طرح الأسئلة التاريخية، حتى بعد مغادرته اليمن، ففي الهند استطاع أن يحصل على معلومات عن القضاء في اليمن، من عالم هندي، كان قد قضى سنوات في أكاديمية زبيد(**) [4]، كما استطاع في مسقط أن

---

(1) Niebuhr, C., BVA, S. XVIII.

(2) Niebuhr, C., BVA, S. XVIII.

(3) Niebuhr, C., BVA, S. 191 FF.

(4) Niebuhr, C., BVA, S. 205.

(*) قرن نيبور اسم حاشد ببكيل في جميع كتاباته وأطلق عليهما تسمية اتحاد حاشد وبكيل وقد قام هذا الاتحاد على نوع من التحالف العسكري الذي كان هدفه الوقوف في وجه الإمام وصد أي عمليات عسكرية قد يوجهها ضد القبيلتين. انظر: Niebuhr, C., BVA, S. 258 FF.

(**) هكذا يسميها نيبور في كتاباته.

يحصل على تفسير لمعنى أهل الكسا، من عالم هندي، قضى كذلك سنوات في زبيد[1]. وقد دون روايات عن أحداث تاريخية معاصرة، حصل عليها من شهود عيان، بعد أن تأكد من صحتها بطريقته الانفة الذكر.

وإلى جانب ذلك كله أخذ نيبور برصد عادات وتقاليد وملابس ومعاملات وطبائع السكان، ويدون يومياً وصفه لها، وملاحظاته عنها.

جـ. إنجازات نيبور وقيمتها العلمية:

سجل نيبور نتائج رحلته في عملين كبيرين:

أولهما:

كتاب بعنوان (Beschreibung von Arabien) وترجمته الحرفية (وصف العربية) وقد فضلنا أن نسميه (وصف بلاد العرب) والمقصود بالعربية أو بلاد العرب الجزيرة العربية.

صدر هذا الكتاب في مدينة كوبنهاجن عام ١٧٧٢ م، أي بعد عودة نيبور من رحلته بحوالي خمس سنوات، ويتكون من ٤٩٠ صفحة. ويتضمن إضافة إلى المقدمات والرسوم والخرائط والجداول، موضوعات محددة، كتبها نيبور بصورة منهجية مرتبة، في محاولة منه للإجابة على الأسئلة، التي وجهها ميشائيلس والعلماء الآخرون إلى البعثة، ومنها أسئلة كثيرة، لا تدخل الإجابة عليها ضمن تخصصه، كما سبقت الإشارة. وقد قسم نيبور كتابه هذا إلى الأقسام الرئيسية التالية:

١ - قسم عام: أورد فيه معلومات عامة عن العرب، تناولت جوانب كثيرة من حياتهم، كالدين، بمذاهبه المختلفة، والعادات الاجتماعية والنظافة والطبائع الخلقية والطعام والشراب والمساكن والملابس واللغة وتعدد الزوجات والعلم والزراعة والحيوانات.. إلخ.

---

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 10 - 11

٢ ـ قسم خاص باليمن: تحدث فيه عن جوانب من تاريخ اليمن وجغرافيته وحياته السياسية والاجتماعية... إلخ.

٣ ـ أقسام أخرى: خصص كل قسم منها لبلد من البلدان المحيطة باليمن: الحجاز والإحساء ونجد وعمان والإمارات المستقلة في الخليج وسيناء والإمارات اليمنية المستقلة وبعض القبائل البدوية المستقلة. وقد أفرد قسماً خاصاً بحضرموت. ولكنه أثناء حديثه عنها لم يميز بينها وبين مناطق اليمن الأخرى، فجاء حديثه، عن مملكة الإمام والإمارات اليمنية المستقلة وحضرموت، متداخلاً، كما لو أنه لم يفصلها تحت ثلاثة عناوين مختلفة. ولقد كان في حديثه المتداخل غير مختار فقد فرضت وحدة اليمن التاريخية والجغرافية عليه أن يتناولها ككيان تاريخي وجغرافي وبشري واحد، رغم وجود أكثر من كيان سياسي[1].

وقد اختتم نيبور كتابه بالحديث عن حركة المد والجزر في السواحل العربية على البحر الأحمر وبملاحظات عن انحراف الإبرة المغناطيسية. كما ضمن كتابه هذا رسوماً لعملات وأدوات ونقوش... إلخ(*).

وثانيهما:

كتاب بعنوان (وصف رحلة إلى بلاد العرب والبلدان المجاورة Reisebeschreibung nach Arabien und den umliegenden Landern) وهو عبارة عن يومياته التي سجلها خلال رحلته، منذ إقلاعه من ميناء كوبنهاجن وحتى عودته. ويقع في ثلاثة مجلدات:

المجلد الأول: صدر في كوبنهاجن عام ١٧٧٤ م، ويتكون من ٥٤٤ صفحة. ويتضمن، إضافة إلى المقدمات، وصفاً للرحلة من كوبنهاجن إلى

---

(١) انظر Niebuhr, C., BVA, S. 181 FF. S. 283 FF.

(*) انظر الملحق.

القسطنطينية، إلى الإسكندرية والقاهرة ودمياط ورشيد، فالقاهرة مرة أخرى والسويس وسيناء، ثم إلى جدة ومنها إلى اللحية. وبوصول نيبور ورفاقه إلى اللحية يبدأ الجزء الخاص باليمن فيصف فيه إقامته وتجواله في اللحية، ثم رحلته إلى بيت الفقيه، وقيامه من بيت الفقيه برحلات فرعية إلى غليفقة والحديدة وزبيد ومناطق الجبال (العدين وجبلة وتعز والعودة عن طريق حيس إلى بيت الفقيه). ثم رحلته من بيت الفقيه إلى المخا، ومنها إلى تعز وإب ويريم وذمار وصنعاء، ثم عودته من صنعاء إلى المخا، عن طريق مفحق وبيت الفقيه. وقد تناول بالوصف كل ما صادفه في طريقه، فقدم وصفاً للمدن والقرى والعادات والتقاليد والملابس والحقول والأسواق والسفر والبشر والطعام والشراب. إلخ . . . وأورد نيبور في نهاية هذا المجلد وصفاً للطرق التي تربط المناطق المختلفة في اليمن، نقلاً عن أحد الرحالة الهولنديين، ثم ملاحظات وجداول عن الطقس، في كل من القسطنطينية والقاهرة واليمن وبومبي في الهند.

وقد ضمن مجلده هذا مجموعة من الرسوم التوضيحية لمدن وموانىء ومزارع وأدوات وكتابات عربية قديمة، بعضها رسمها بيده وبعضها رسمها رفيق رحلته الرسام بورنفايند ، وكلها تغطي رحلته من كوبنهاجن وحتى مغادرته اليمن(*). كما ضم نيبور إلى هذا المجلد الخارطة التي وضعها لليمن، والتي كانت تمثل مهمته الأولى في هذه الرحلة.

المجلد الثاني: صدر في كوبنهاجن عام ١٧٧٨ م، ويتكون من ٤٩٥ صفحة. وقد تضمن وصفاً للرحلة في الهند وعمان وإيران والعراق وبلاد الشام. ولا يختلف في طريقته وترتيبه عن المجلد الأول، فقد احتوى على وصف للأرض والناس، وضمت إليه خرائط ورسوم، لآثار ومعالم تاريخية ونقوش . . . إلخ.

(*) انظر الملحق.

المجلد الثالث: أصدره في كوبنهاجن عام ١٨٣٧ كل من جلوير Gloyer و أولدس هاوزن Oldeshausen ، ويتكون من ٤٣٠ صفحة، ولا يختلف في ترتيبه عن المجلدين الأول والثاني، إذ يواصل فيه نيبور وصف رحلته، من سورية إلى قبرص، ومنها إلى فلسطين وتركيا وبلغاريا وبولونيا والمانيا، حتى وصوله الدينمارك. وشأنه شأن المجلدين السابقين إذ يتضمن خرائط جزئيه، ورسوماً للمدن، ولبعض المعالم التاريخية. ورغم أن نيبور كان قد جهز هذا المجلد للنشر، إلا أن صعوبات قد اعترضت طباعته، ولم يتم طبعه إلا بعد وفاته[1]. وقد أضيفت إلى هذا المجلد بعض الملاحظات التي وضعها (أولدس هاوزن)، كما أضيفت إليه ستة ملاحق، وهي عبارة عن موضوعات متفرقة، كان قد كتبها نيبور، ورأى الناشر فائدة في إضافتها كملاحق لهذا المجلد. ومنها موضوع عن الحبشة يتضمن معلومات جمعها نيبور أثناء رحلته، وخاصة أثناء وجوده في اليمن. وقد تأكدت صحة معظمها «وكانت ملاحظاته وأحكامه حول ذلك البلد صحيحة بصورة ملفتة للنظر»[2].

وإضافة إلى كتابيه الكبيرين، وضع نيبور خارطة لليمن، اعتبرت في حينها، أول خارطة لليمن، يتوفر فيها قدر كبير من الدقة. وقد أرفق بكتابه (وصف رحلة إلى بلاد العرب)، المجلد الأول، خارطة جزئية لليمن تمثل المنطقة التي كان يحكمها الإمام المهدي عباس، وتمتد من المخا والحجرية جنوباً، إلى شمال اللحية وعفار وبيت أدهم شمالاً، ومن البحر الأحمر غرباً، إلى شرق ذيبان وذمار ويريم وإب شرقاً، وهي المنطقة التي أطلق عليها في كتاباته اسم مملكة الإمام. وهناك مناطق ضمتها هذه الخارطة، مثل كوكبان، لم تكن تحت سيطرة الإمام. وهناك خارطة أخرى، أكبر مساحة وأقل تفصيلاً، أرفقها بكتابه (وصف بلاد العرب) بين فيها امتداد اليمن على النحو التالي: في

(1) Niebuhr, C., RB. BD. 3. S. XI.

(2) Niebuhr, C., RB, Bd. 3. S. XVIII.

الجنوب تمتد إلى بريم وعدن والسواحل المطلة على المحيط الهندي، وفي الشمال تمتد إلى شمال أبو عريش(*)، في خط أفقي إلى الربع الخالي، وفي الغرب إلى البحر الأحمر، وفي الشرق إلى نهاية بلاد الجوف وحضرموت. وعدا عن ذلك وضع نيبور خارطة للبحر الأحمر كان لها دور كبير في تنشيط الملاحة، فيه كما سنرى.

فإذا كانت إنجازات نيبور قد تمثلت بما تضمنته كتاباته الآنفة الذكر وخارطته، فما هي القيمة العلمية لهذه الإنجازات؟

إنه ليصعب الفصل بين الإنجازات العلمية للبعثة الملكية الدينماركية بإجمالها، وبين الإنجازات العلمية لنيبور نفسه. إذ أن الفضل يرجع إلى نيبور في معظم ما عرف من إنجازات البعثة، إلى درجة أنه قد غلب اسم نيبور على اسم البعثة الملكية الدينماركية وأصبحت تسمى بعثة نيبور. لذا فإن حديثنا عن القيمة العلمية لإنجازات نيبور قد تحمل نوعاً من التكرار لما سبق من حديث عن القيمة العلمية لإنجازات البعثة بكاملها. وحتى نتجنب التكرار، قدر إمكاننا، سنقتصر هنا على إيراد بعض آراء العلماء، من المهتمين بالدراسات اليمنية، التي تناولت الأعمال العلمية لنيبور بالتحديد.

كان نيبور ـ كما مر معنا ـ وهو يتحدث عن خارطته، قد أعطى تقييماً متواضعاً لعمله، وأشار إلى أن أحداً لا يجب أن ينتظر منه وضع خارطة تتصف بالدرجة نفسها من الدقة، التي يستطيع بها واضعو الخرائط في أوروبا وضع خرائطهم، مستخدمين في قياساتهم أدق الأجهزة[1]. فإذا كنا سنأخذ من رأيه الأولي هذا مؤشراً لتقييمه العام لعمله، وخاصة أن مثل هذا الرأي الدال على التواضع والحصافة في آن معاً، قد تكرر في كتاباته في أكثر من موضع: وهو

(1) انظر ص ٥٧ ـ ٦٠ من هذا البحث.

(*) فضلنا تثبيت أسماء الأماكن على صورتها المتداولة بين الناس، دون مراعاة لما تقتضيه قواعد اللغة من تغيير.

يتحدث مثلاً عن محاولاته شرح بعض الكلمات العبرية، أو وهو يتطرق إلى الحديث عن تاريخ اليمن والمذاهب الإسلامية، أو وهو يعرض طريقته في جمع المعلومات من الأهالي عن موضوعات لم يشاهدها، فما هو رأي العلماء الذين درسوا أعماله فيما بعد، وعلى امتداد القرنين الماضيين وحتى اليوم.

يرى بعض الباحثين أن الإعداد الطويل للبعثة الملكية الدينماركية، والإنفاق السخي عليها، كان شرطاً أساسياً لنجاحها، إلا أن ما تحقق من إنجاز علمي للبعثة، ما كان يمكن أن يتحقق، بعد أن مات أعضاؤها جميعاً، ما عدا نيبور، لولا جهد نيبور وتفانيه ودقته في عمله[1]. ومع أن نتائج رحلة نيبور قد صححت مراراً، وزادت معارف الأوروبيين عن البلاد العربية، خلال القرنين الماضيين، إلا أن أعمال نيبور «لا زالت حتى اليوم، تمثل أكبر وأهم الأعمال التي أجريت لوصف البلاد العربية. وإلى جانب ذلك فإن نيبور يعتبر رائداً لسلسلة من الرحالة الذين قدموا إلى البلاد العربية والشرق، ومنهم (سيتزن Seetzen) على سبيل المثال. وهكذا فإن قصة الرحلات الاستكشافية في البلاد العربية مرتبطة ارتباطاً قوياً باسم نيبور، أعظم الرحالة إلى البلاد العربية في العصر الحديث»[2].

ويرى البعض أن المعرفة العلمية في أوروبا، بالبلاد العربية، قد بدأت مع نيبور[3]. فقد شملت أعماله حقولاً معرفية شتى، كالآثار والتاريخ والجغرافيا والاجتماع... إلخ مما جعل نيبور «يحتل مكانة بارزة في إطار الدراسات العربية الحديثة»[4].

ويعتبر الكثيرون أن أهم إنجازات نيبور هي خارطته، التي وضعها

---

(١) Weiter, Geographie, S. 46..

(٢) Baumhauer, Arabien, S. 73. وقارن أيضاً: Weber, Forschungsreisen, S. 4 - 5.

(٣) Henze, in BVA, S. III.

(٤) Schlobies, Die Wissensch., S. 240.

لليمن والبحر الأحمر. فقد كانت القياسات، التي أخذها للسواحل الغربية للجزيرة العربية، الأولى من نوعها في الدقة. ولذا فقد فتحت خارطته البحر الأحمر أمام الملاحة الأوروبية، واستطاع الإنجليز، بالاعتماد عليها، أن يبحروا عام ١٧٧٢ م من جدة إلى السويس(٥). وقد استفادت القوى الاستعمارية المتنافسة من خارطة نيبور وهي تسعى إلى السيطرة على منطقة المحيط الهندي والسواحل العربية(٦). وظلت هذه الخارطة ولأكثر من مئة عام بعد وضعها الأساس لكل الأبحاث الجغرافية التي تمت عن اليمن(٧).

إن العمل العلمي لنيبور يتسم «بالموقف النقدي الحصيف تجاه المعلومات التي أعطيت له، كما يتسم بالدقة والعناية بالتفاصيل، تجاه الموضوعات التي شاهدها مباشرة»(٤).

هكذا يقيم العلماء والباحثون أعمال نيبور، ويضعونها في المكان الريادي الذي تستحقه، وهو مكان لعل نيبور ـ بتواضعه ـ لم يكن يطمح إليه.

د. بعض انطباعات نيبور عن اليمن:

تقدم لنا انطباعات نيبور عن اليمن مادة تاريخية ذات وجهين:

فهي من ناحية، تبرز التباين بين أوروبا واليمن، في أساليب الحياة، وفي العلاقات الاجتماعية، وفي أنظمة القيم، وفي المستوى الحضاري، بشكل عام، وهو تباين، لا يمكن أن يفهم إلا من خلال التسليم بوجود إطارين ثقافيين متباينين، ومستويين حضاريين مختلفين، ولكن هذا التباين أو الاختلاف ليس قضية مطلقة، بل ظاهرة تاريخية، مرتبطة بالتطور التاريخي المتباين، لمجتمعين

---

(١) Henze, in BVA, S. VI.

(٢) Wetter, Geographie, S. 56.

(٣) Lohmeier, Niebuhr, S. 29

(٤) Lohmeier, Niebuhr, S. 50

بشريين مختلفين. ويجب أن تفهم هذه الظاهرة ضمن إطارها التاريخي، وضمن حدود العصر الذي سجلت فيه.

وأما من الناحية الأخرى، فإن انطباعات نيبور هذه تعكس تأثير الإطار الثقافي والمستوى الحضاري، الذي ينتمي إليه نيبور، في ملاحظاته وتقييماته وفي نظرته إلى الناس والأشياء، بل إنها تعكس حتى نوعية الاختيار، أي اختيار نيبور لموضوعاته.

وكلا الوجهين يقدمان في النهاية، نظرة باحث أوروبي، ينتمي إلى ألمانيا في القرن الثامن عشر، إلى اليمن في الفترة الزمنية نفسها.

وبما أننا سنطرق بالتفصيل، في الفصول التالية، إلى الموضوعات التي تمثل بالنسبة لنا مادة تاريخية، والتي تناولها نيبور في كتاباته، فإننا سنكتفي هنا بالحديث عن بعض الانطباعات العامة لنيبور عن اليمن:

ـ الكرم:

كانت وجهة الرحلة ميناء المخا، إذ أن اللحية والحديدة كمينائين آخرين في منطقة الإمام، لم تكونا ـ كما يذكر نيبور ـ اسمين معروفين للبعثة. وقد كانت البعثة على علم بأن الإنجليز يأتون إلى المخا من شرق الهند، وكانت تأمل أن تجد لديهم المساعدة من أجل أن تتمكن من التوغل داخل اليمن. ولكن البعثة نصحت، وهي في جدة، أن تنزل في اللحية، أو في الحديدة، وتتابع السفر براً إلى المخا. وذلك لأن السفر في البحر يكون بطيئاً في ذلك الوقت من السنة، بسبب الرياح المعاكسة[1].

ورغم أن البعض قد أكد لها، أنها تستطيع أن تسافر براً، بكل اطمئنان في مملكة الإمام، إلا أنه كان يساور أعضاءها الخوف؛ فالفكرة التي كانت لديهم

(1) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 286.

عن اليمن، لم تكن تختلف عن فكرتهم عن «العرب المتنقلين في مصر والحجاز»(١)(*).

ولكن هذه الفكرة ما لبثت أن تغيرت، بمجرد وصول البعثة إلى اللحية. وبدأت تتكون لدى نيبور جملة من الانطباعات، التي وردت في كتاباته بصورة متناثرة، متضمنة الكثير من المقارنات، بين سلوك اليمنيين من ناحية، وبين سلوك الأتراك والمصريين والأوروبيين من ناحية أخرى.

وأول ما لفت انتباه نيبور، عند نزول البعثة إلى البر اليمني، هو ظاهرة الكرم. فقد استقبلت البعثة بحفاوة بالغة، لم تكن تتوقعها(٢). وعرض كل من عامل اللحية وأحد التجار أن يدفع أجرة السفينة التي أقلتها من جدة. وتم تحضير عشاء فاخر لها، وقدم لها العامل بعض الهدايا. وعند مغادرة البعثة اللحية متوجهة إلى بيت الفقيه، حاول العامل أن يدفع أجرة الحمير والجمال التي أقلتها، وكلف بعض خدمه بمرافقتها، وحملهم رسائل إلى المسؤولين على امتداد طريق السفر، يطلب منهم استضافتها مجاناً(٣).

وتحدث نيبور بارتياح، عن الاستقبال الذي حظيت به البعثة في صنعاء، وكيف استضيفت، وأطعمت، وقدمت لها الهدايا من قبل الإمام، مع مبلغ من المال (٢٠٠ ريال) ووجهت الأوامر لاستضافتها طوال طريق عودتها إلى المخا، وكيف حاول أعيان صنعاء إقناع البعثة أن تقيم عندهم مدة عام، إلى أن تعود السفن، التي كانت لا تزال راسية في المخا، مرة أخرى في العام التالي(٤).

---

(١) Niebuhr. C. RB. Bd. 1. S. 286.

(٢) Niebuhr. C. RB. Bd. 1. S. 298 FF.

(٣) Niebuhr. C. RB. Bd. 1. S. 315.

(٤) Niebuhr. C. RB. BD. 1. S. 411 FF.

(*) كان العرب الرحل في نظر أعضاء البعثة أناس يعيشون على قطع الطرق ونهب المسافرين. وقد تأكدت هذه الفكرة لديهم من خلال تجربتهم. فقد هوجم بعض أعضاء البعثة في سيناء وسلبت بعض أمتعتهم.

وأكثر ما لفت نظر نيبور هو تلك المضافات المنتشرة على طول الطريق في تهامة، حيث كان المسافرون ينزلون فيها عدة أيام، يأكلون ويشربون وينامون مجاناً، وقد نزل نيبور نفسه في تلك المضافات أثناء تنقله في تهامة[1]، ولقي فيها من كرم الضيافة، ما جعله يؤكد وأن المرء يستطيع، من خلال الطريقة التي استقبلت بها في تلك المضافات، أن يجزم أن العرب لا يزالون كرماء، وأن كرمهم تجاه المسيحيين، لا يقل عن كرمهم تجاه أبناء دينهم»[2].

ويلاحظ في كتابات نيبور أنه كثيراً ما استخدم اسم العرب كمرادف لاسم اليمنيين، وهذا أمر مفهوم، إذا وضعنا في اعتبارنا، أن اسم اليمن مرادف لاسم (العربية السعيدة). ولذا فإننا عند الاقتباس النصي سنبقي اسم العرب، ويجب أن يفهم من ذلك أن المقصود وفقاً للسياق هم اليمنيون. فعند حديثه العام عن الكرم عند العرب ساق كل أمثلته من اليمن.

لقد أُخذ نيبور بما شاهده في اليمن من ممارسات يومية لفضيلة الكرم، والتي لا تقتصر ممارستها على الأفراد الميسورين، بل هي فضيلة عامة، يتمسك بها السكان جميعاً. وكان قد تعرف قبل وصوله إلى اليمن على كل من تركيا ومصر، ثم مر بتركيا مرة أخرى، في طريق عودته إلى أوروبا، لذا وجد فرصاً كثيرة، لمقارنة سلوك اليمنيين وعاداتهم بسلوك الأتراك والمصريين. وتقدم لنا الفقرة التالية وصفاً حياً للكرم اليمني ينتهي بمقارنة طريفة: «يصر العرب على كل من يأتي إليهم أثناء الطعام أن يشاركهم طعامهم، وسيان أكان مسيحياً أو مسلماً، فقيراً أو غنياً. وقد أكلت معهم شخصياً وبكل ارتياح أثناء سفري. وحتى مرافقي الذي كان يعتني بالحمار كان عليه أن يأكل معهم. ورغم أن الكثيرين يعتذرون بلطف عن تناول الطعام، إلا أنهم في النهاية يستجيبون، ويشاركون، حتى ولو في قليل من الخبز والتمر. ولذلك فقد كان موضع

---

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 315.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 47.

استغرابي ما شاهدته بعد ذلك في تركيا، فقد وجدت العديد من الأغنياء الأتراك عندما يتناولون طعامهم يتوارون في إحدى الزوايا، حتى لا يأتي إليهم أحد فيضطرون إلى تقديم شيء من طعامهم إليه»[١].

ـ التسامح الديني:

لاحظ نيبور أن الشعب اليمني شعب متدين، وأن اليمنيين يمارسون تدينهم بتلقائية، ودون تزمت أو تصنع، وقد أشار باستغراب إلى أن صاحبة نزل (مقهاية) طلبت من أعضاء البعثة، وهي تودعهم ـ وكانت تظنهم مسلمين ـ، أن يدعو الله من أجلها[٢]. وأورد مقارنة بين تدين أهل مصر، وتدين أهل اليمن، من خلال صيام شهر رمضان فقال: «ولأن رمضان سيبدأ في ١٦ مارس[*]، فقد خشيت أن يكون المسلمون في تهامة متزمتين كالمصريين. فالمصريون الذين سافر معهم فورسكال في شهر رمضان[**]، من القاهرة إلى الإسكندرية، كانوا متشددين، يصومون طوال النهار، ويبدون انزعاجهم عندما يلاحظون أن فورسكال يتناول طعاماً أو شراباً، كما يبدون ضيقهم وتبرمهم، إذا طالت الرحلة اليومية. مثل هؤلاء الناس لا يمكن أن أرتاح للسفر معهم. أما اليمنيون فليسوا متزمتين، فهم يصومون أياماً أخرى مقابل الأيام التي أفطروا فيها أثناء سفرهم»[٣].

وسجل نيبور انطباعاً رائعاً عن تسامح اليمنيين. فقد عكس عدم تزمتهم نفسه على سلوكهم وقناعاتهم تجاه الفرق الدينية الإسلامية المختلفة وتجاه الأديان الأخرى. وقد سجل انطباعه هذا عبر العديد من المقارنات. فالشيعة والسنة، في كل من إيران وتركيا، لا يطيق بعضهم بعضاً، ولا يصلي أتباع

(١) Naebuhr, C., BVA, S. 47-48.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 345-345.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 332.

(*) عام ١٧٦٣م.

(**) ١٧٦٢م.

مذهب في مساجد المذهب الآخر. أما اليمنيون فلم يؤثر اختلاف المذاهب في علاقتهم، وليس هذا وحسب، بل إن اليمنيين لا يكرهون أتباع الأديان الأخرى[1].

وقد لاحظ نيبور أن اليمنيين يتقيدون بالقرآن، تقيداً كبيراً، فيوفرون الحماية لمن يلتحق بالإسلام. ففي المخا كان العامل يجري لمن أسلم من بحارة السفن، وقرر البقاء في المدينة، مبلغاً شهرياً من المال، يعينه على الحياة. ولم يكن اليمنيون يظهرون تشدداً مع من أسلم، فلم يمنعوا من أسلم من المسيحيين مثلاً وأن يتصل بالمسيحيين او أن يغادر البلاد إذا أراد[2].

- التعامل مع الأجانب:

خطّأ (نيبور) الصورة التي يصوّر بها العرب عادة، بقوله: «لا يجب أن يدع أحد الصورة التي تعطى عادة عن العرب، على أنهم غير مهذبين ولصوص وطماعون، تمنعه من السفر إلى البلاد العربية، فقد وجدت بنفسي أن هؤلاء القوم ليسوا سيئين كما يصورون. إننا نحن الأوروبيين نستعجل في إطلاق الأحكام على الأمم الأخرى قبل أن نتعرف عليها بشكل صحيح»[3]. ويستطرد في عرض انطباعاته وقناعاته، بالنسبة لتعامل الناس في البلاد العربية مع الأجانب، مبرزاً الأسباب التي يعتقد أنها تكمن وراء ما يعتبره بعض الرحالة تعاملاً سيئاً، ويرجع هذه الأسباب إلى سلوك الرحالة أنفسهم، الذين لا يستطيعون أن يتكيفوا مع حياة الناس، ويتعاملوا معها ببساطة[4]. وينتهي إلى أن الرحالة الأوروبي الذي يرغب بالسفر في البلاد العربية، ويوطن نفسه على الحياة، بحسب عادات وتقاليد العرب «يمكنه أن يتجول في كل البلاد العربية

---

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 23.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 24.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. X.

(٤) Niebuhr, C., BVA, S. IX FF.

ـ باستثناء الحجاز ـ بارتياح. ولكن ليس هناك منطقة يمكن أن يشعر فيها بالأمن والاطمئنان، مثلما يشعر وهو في اليمن. إن سكان هذا البلد يتصفون بالتلطف تجاه الأجانب، ويستطيع المرء ـ على الأقل في منطقة الإمام(*) ـ أن يتنقل بحرية وامان تماماً كما يتنقل في أوروبا»[1]. إن أحداً لا يعترض الرحالة ولا يمنعه من التجول حيث شاء، وخاصة إذا استطاع الرحالة أن يكسب ود السكان، عن طريق إيصال علمه ومعرفته إليهم «فهؤلاء العرب لا يخجلون ـ كما يخجل الأتراك ـ من أن يتعلموا شيئاً من الأوروبيين»[2]، ولكن على الرحالة أن لا يبدي تأففه واستهجانه تجاه الأشياء التي لا تعجبه، وهذا لا يعني أن يحاول كسب ود السكان عن طريق تملقهم والتزلف إليهم وإظهار ارتياحه لأشياء لا تعجبه، فهؤلاء «يحبون الصدق ويعرفون أن لديهم أخطاء ونواقص كثيرة، ولكنهم كغيرهم من الأمم، لا يحبون أن يلفت أحد نظرهم إلى أخطائهم بنوع من السخرية»[3].

لقد أخذ نيبور ببساطة الناس وتلقائيتهم، وشعر بالارتياح للتعامل معهم، منذ وطئت قدمه اللحية، حيث يقول: «لقد سعدنا بأن نجد عادات المسلمين أفضل كلما ابتعدنا عن مصر، خاصة وأن سكان اليمن، وهو البلد الذي تمثل الرحلة فيه أساس مهمتنا، قد استقبلونا منذ اللحظة الأولى استقبالاً لطيفاً للغاية»[4]. وقد عبر عن هذا الارتياح في أكثر من مناسبة وفي أكثر من موضع في يومياته. فحول المشاعر المتبادلة مع المواطنين اليمنيين في اللحية مثلاً يقول: «لقد كان السكان يشعرون بالسعادة لوجودنا في مدينتهم، وكنا نشعر

(١) Niebuhr, C., BVA, S. XII.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. XII.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. XII.

(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 297

(*) لم يزر نيبور غير المنطقة التي كان يحكمها الإمام، ولذا حرص هنا على أن يستدرك ويقصر انطباعه على هذه المنطقة التي زارها.

أيضاً بالسعادة لوجودنا مع سكان هذا البلد طيبي القلوب»[1].

ولم يكن نيبور وحده من شعر بالارتياح تجاه معاملة اليمنيين ولطفهم، بل لقد كان هذا هو شعور أعضاء البعثة جميعاً، وسادت بينهم، نتيجة لذلك، روح جديدة وانسجام، لم يعرفوه منذ غادروا كوبنهاجن، فأخذوا يتسامرون، ويعزفون بآلاتهم الموسيقية كل مساء. وقضوا أسعد وأمتع أيامهم بين سكان مدينة اللحية البسطاء. وحتى أكثر أعضاء البعثة تشاؤماً ونفوراً من الآخرين، وهو فون هافن، عبر عن ارتياحه في رسالة بعث بها إلى بيرنشتورف: «... لقد عرفنا الآن مدى اللطف والود والتهذيب الذي يستقبل به الأوروبيون في العربية السعيدة، وكذا كيف يخلق هذا الشعب البسيط حوله إحساساً بالسكينة والرضى، والبعد عن كل أنواع الهمجية»[2].

وخلال تنقل نيبور لفتت انتباهه خاصية، يتصف بها اليمنيون، وهي حب التعرف على الغريب وبلده ووجهته إلخ.. فسجل في يومياته: «إن العرب في اليمن، وخاصة في مناطق الجبال، يستوقفون المسافرين في قارعة الطريق، ويسألونهم عن اسم بلدهم، ومن أي قرية بدؤوا رحلتهم هذا اليوم، وأين ينوون أن يبيتوا ليلتهم. إلخ. ولا تكمن وراء هذه الأسئلة أية نوايا سيئة. إنه فقط نوع من حب الاستطلاع، ومن غير اللائق أن لا يجيب المرء على أسئلتهم»[3].

ويهتم اليمنيون بالغريب ـ كما لاحظ نيبور ـ اهتماماً عفوياً، خال من التكلف والمصلحة. وتعبر أسئلتهم واستفساراتهم ونصائحهم وإبداء الرغبة في تقديم المساعدة، عن هذا الاهتمام. فعندما يمارس نيبور أو فورسكال، أو غيرهما من أعضاء البعثة، عمله، تنهال الأسئلة عليه، عن كيفية العمل والغرض منه وتبدر بعض المقترحات العفوية، التي ليس لها غرض سوى راحة

---

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 300.
(2) Hansen, Reise, S. 247.
(3) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 345.

الغريب. ومثال على ذلك اهتمام الأهالي في بيت الفقيه بأعضاء البعثة وأسئلتهم حول عمل فورسكال وماذا يريد من جمع النباتات. ونصحهم أعضاء البعثة بعدم تعريض أنفسهم للشمس طوال النهار، وأن يحافظوا على صحتهم، خاصة وأن أمامهم رحلة طويلة، سوف يرهقون فيها، قبل أن يعودوا إلى بلادهم[1].

ورغم أن الرحلة لم تسر بالسهولة نفسها واليسر، كما سارت في تهامة، فقد واجهتها صعوبات، وعوملت البعثة من قبل موظفي جمارك المخا، ومن قبل عمال المخا وتعز ويريم، معاملة مختلفة عن تلك التي عوملت بها في اللحية وبيت الفقيه ثم في صنعاء، وقذفت نوافذ الدار، التي استأجرتها في يريم، بالحجارة، إلا أن الانطباع العام لنيبور ظل انطباعاً طيباً، مقارنة بانطباعه عن تعامل السكان في كل من تركيا ومصر. بل لقد حاول ـ كما مر معنا ـ أن يبرر ما واجهته البعثة من صعوبات، بإرجاع سبب ذلك إلى أعضاء البعثة أنفسهم، وإلى كونهم لم يكونوا قد عرفوا أهل اليمن معرفة كافية، مما جعلهم يعتقدون «وبدون وجه حق»[2]، أن شكواهم لها ما يبررها. ومعنى هذا أن هناك تصرفات من قبل الأهالي، كان يفهمها أعضاء البعثة على غير حقيقتها، وينزعجون منها، بناءً على فهم غير صحيح لها، مع أنهم ـ بحسب رأي نيبور ـ لو كانوا قد عرفوا أهل اليمن معرفة كافية، لما وجدوا في تلك التصرفات، ما يدعو إلى الشكوى والانزعاج. ومع ذلك ورغم تبرير نيبور فإن قذف نوافذ منزل البعثة في يريم بالحجارة، من قبل بعض الأهالي، لا يحتمل إلا فهماً واحداً. ولا يمكن أن يكون نيبور قد فهمه فهماً آخر. كما أنه لا يمكن أن يكون قد فهم محاولة ابتزاز البعثة من قبل عامل المخا وعامل تعز ثم عامل يريم، الذي اعتبر نفسه وريثاً شرعياً لفورسكال، فهماً خاطئاً، إلا أن نيبور، كما هو واضح، قد وجد أن سلوك اليمنيين عموماً، وتعاملهم الطيب مع الأجانب، يغلب على السلوك السيء،

(1) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 332.

(2) Niebuhr, C., BVA, S. IX-X.

الذي قد يصدر عن بعضهم، والذي يمكن اعتباره مجرد حالات استثنائية، يصادفها الإنسان في جميع بلاد العالم، بما فيها أوروبا[1].

ـ الأمن:

استطاع نيبور أن يتجول، وأعضاء البعثة، بحرية واطمئنان في كل المناطق التي مر بها، حتى في بريم نفسها، رغم مظاهر الاستقبال غير الودية، التي قوبلت بها البعثة في يومها الأول. وتحوي كتاباته إشارات، تصور لنا، ليس فقط انطباعاته عن حالة الأمن في اليمن، بل أيضاً إحساسه بالأمن، وتمتعه به. وقد أشرنا سابقاً إلى رأي نيبور في أن المرء في البلاد العربية ـ باستثناء الحجاز ـ يستطيع أن ينتقل بحرية وأمن، وتأكيده أن اليمن من هذه الناحية تفوق كافة البلاد العربية[2]. وقد تكرر تعبير نيبور عن هذا الانطباع في كتاباته بصور شتى، وبمناسبات مختلفة. ففي حديثه عن الثأر ـ مثلاً ـ يؤكد أن هذه الظاهرة ليست منتشرة بصورة كبيرة في تهامة، وإلا لكانت قد أثرت في الوضع الأمني، ولما استطاع أعضاء البعثة أن يتجولوا متمتعين بمثل ذلك الأمن، الذي تمتعوا به فعلاً[3]. وعند حديثه عن الحروب الداخلية أشار إلى أن الحروب إذا نشبت لا تدوم طويلاً، إذ سرعان ما يعود الأمن إلى حالته الأولى من جديد، وإلا لما استطاعت البعثة أن تتنقل في مناطق اليمن خلال فترة قصيرة[4].

لقد تبددت كل مخاوف البعثة، التي كانت تساورها قبل وصولها إلى اللحية، بمجرد وصولها، حيث أكد لها، أنها تستطيع أن تتجول في اليمن بكل أمان[5]. وسمعت مثل هذا التأكيد في المناطق الأخرى، وثبت لها بالفعل أنها

---

(١) م.ن.

(٢) انظر ص ٧٤ من هذا البحث.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. IX-X, 28-29.

(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 34-35.

(٥) Niebuhr, C., BVA, S. 204.

Niebuhr, C., BVA, S. 297.

تستطيع أن تتجول تحت إحساس كامل بالأمان، وأن السكان اليمنيين على درجة من التهذيب، بحيث أن البعثة قد شعرت «أنه لا ضرورة لوجود حرس مرافق»[١]. لقد بلغ الإحساس بالأمن لدى نيبور حداً جعله يكرر التعبير عنه كلما سمح له السياق بذلك. فقد تأكد من استتباب الأمن، وشعر به، من خلال تجربته المباشرة «لقد أدركت الآن أكثر من ذي قبل، ومن خلال التجربة، أن المرء في اليمن يستطيع أن يتنقل بحرية، وبقدر كبير من الأمان، كما في أوروبا»[٢].

ويسجل نيبور بنوع من الاستغراب أن الرحالة يستطيع أن يتجول في أنحاء اليمن دون أن يعترضه أحد، وأن المسافر الأجنبي لا يُسأل عن جواز سفره، سواء في ميناء الوصول، أو في داخل البلاد[٣].

ـ خصائص أخرى للإنسان اليمني:

إضافة إلى ما ورد آنفاً، عن حب الاستطلاع لدى الإنسان اليمني، واهتمامه بالغريب وكرمه.. الخ، تضمنت إشارات نيبور المتفرقة، انطباعات عن بعض الخصائص الأخرى للإنسان اليمني، ومنها:

ميل الإنسان اليمني إلى الحياة الاجتماعية:

لاحظ نيبور أن العرب يميلون إلى الحياة الاجتماعية ميلاً شديداً، وخاصة سكان اليمن، الذين تشكل الأسواق، بالنسبة لهم، فرصاً للتجمع. فقلما توجد قرية كبيرة في اليمن، إلا ويعقد فيها سوق أسبوعي، يلتقي الناس فيه، يبيعون ويشترون، ويتحادثون. كما يلتقون في المقاهي باستمرار، وفي المناسبات، كالأعياد وزيارات الأولياء. ويستمتعون بلقاءاتهم هذه كل الاستمتاع[٤].

---

(١) Niebuhr, C., RB, BD 1, S 321.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd 1, S 332, U vrgl.S. 313, 322, 326, 352.

(٣) Niebuhr, C., RB Bd. 1, S. 359-360, 346.

(٤) Niebuhr, C., RB, Bd 1, S. 27-28.

حب الموسيقى

وجد نيبور أن اليمنيين لا ينظرون إلى الموسيقيين والمغنين نظرة احترام، ومع ذلك فهم يستمتعون كثيراً بالموسيقى والغناء. فعندما كان نيبور ورسام البعثة بورنفايند يروحان عن نفسيهما في المساء - في مدينة اللحية - بالعزف على آلات سبعة، كان الأهالي يتجمعون، ويستمعون ويطربون للعزف، رغم أن الأنغام الأوروبية كانت غريبة على أسماعهم. ويبلغ حب الموسيقى بأحد التجار اليمنيين حداً لا يستطيع عنده الاصطبار فيطلب من خدمه أن يركبوه على حماره وأن يتوجهوا به إلى مقر البعثة، حيث ظل فوق حماره، ينصت شغفاً، حتى انتهى العزف. ثم حاول أن ينفح كلاً من نيبور وبورنفايند بعض النقود، لكنهما اعتذرا عن قبولها[1].

الحيوية والمرح

لاحظ نيبور أن اليمنيين أكثر حيوية وحركة ومرحاً في لقاءاتهم ومنتدياتهم، من الحجازيين «وأكثر بكثير من الأتراك»[2]. وقد وصف تجمعاً حول قبر أحد الأولياء في تهامة، حيث أخذ بعض المحتشدين يرقص ملوحاً بحربته، وآخرون بسيوفهم، وآخرون يتبارون بقذف عصي الجريد. إلخ.. وتعبر وجوههم جميعاً عن أمارات الانبساط والمرح والاستمتاع، وهذا المشهد يختلف - كما أشار - عما شهده في مصر. فالمصريون يتجمعون أيضاً حول أضرحة الأولياء، ولكن دون أن يرقصوا ويمرحوا كاليمنيين[3].

قلة استخدام عبارات التفخيم والتبجيل:

لاحظ نيبور أن اليمنيين - والعرب عموماً - لا تنتشر بينهم أسماء وعبارات التفخيم والتبجيل، بل إن اللغة العربية نفسها فقيرة من هذه الأسماء

---

(1) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 302-303.

(2) Niebuhr, C., BVA, S. 27.

(3) Niebuhr, BVA, S. 27-28.

والعبارات، مقارنة بغيرها من اللغات، إلى حد أن اسماً واحداً يمكن أن يطلق على أشخاص مختلفين، ووظائف متباينة. فالشيخ مثلاً لقب يطلق على شيخ القبيلة، وعلى عاقل القرية، وعلى رجل العلم، وعلى الرجل المسن، وعلى إمام المسجد، وعلى الولي «وحتى على رئيس اليهود في مدينة صنعاء»[1].

هـ . عودة نيبور إلى أوروبا:

يستحق نيبور منا، في نهاية هذا الفصل، أن نكرس بضع فقرات، لعرض رحلة عودته إلى الدينمارك، والمناخ السياسي والعلمي الذي وجده هناك، ثم حياته حتى مماته.

غادر نيبور المخا، مع من بقي حياً من أعضاء البعثة، في ٢٣ أغسطس ١٧٦٣م، كما أسلفنا، ووصل بومبي في الهند في ١١ سبتمبر ١٧٦٣م[2] وبعد أن قضى في الهند خمسة عشر شهراً تقريباً، غادر بومبي عائداً إلى كوبنهاجن[*]، عن طريق مسقط وإيران والعراق وسورية والإسكندرية وقبرص وفلسطين ولبنان، ثم سورية مرة أخرى، وتركيا وبلغاريا ورومانيا وبولندا وألمانيا، ليصل إلى كوبنهاجن في ٢٠ نوفمبر ١٧٦٧م[3]، بعد أن قام بدراسات وجمع الكثير من المعلومات عن البلدان التي مر بها وخاصة إيران والعراق وسورية وفلسطين.

ولم تكن كوبنهاجن عند عودته هي المدينة نفسها التي تركها منذ حوالي سبع سنوات، قد تغيرت كثيراً: كان الملك فريدرك الخامس قد توفي[**]،

---

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 14.

(٢) Hansen, Reise, S. 344.

(٣) حول رحلة العودة وحياة نيبور حتى مماته انظر: Niebuhr, B.G., Niebuhrs Leben, S. 28 FF. وكذا: Hansen, Reise, S. 350 FF. وترجمته العربية: الرعدي، من كوبنهاجن، ص ٣٣١ وما بعدها.

(*) كان نيبور عند عودته من بومبي قد فقد كل رفاق رحلته. انظر ص ٣٧ ـ ٤٠ من هذا البحث.

(**) توفي الملك فريدريك الخامس في يناير ١٧٦٦ م.

واعتلى العرش ابنه كرستيان Kristian وهو في السابعة عشر من العمر. فانغمس في اللهو والمجون. ولحدت مكانة الوزير بيرنشتورف تضعف، حتى انتهى به الأمر إلى أن يعزل من منصبه ويبعد من الدينمارك. ولم يكترث أحد لعودة نيبور، ولم يهتم أحد بنتائج الرحلة، وإن كان قد حصل على دعم رسمي لنشر أول أعماله، وهو كتاب (وصف بلاد العرب)، الذي نشره عام ١٧٧٢م. ولما لم يحظ ذلك الكتاب بالاهتمام الذي يستحقه، عزم نيبور على ترجمته إلى اللغة العربية، إلا أن ترجمته كانت رديئة، مما حدا بنيبور إلى التخلص من نسخه إثر طبعها.

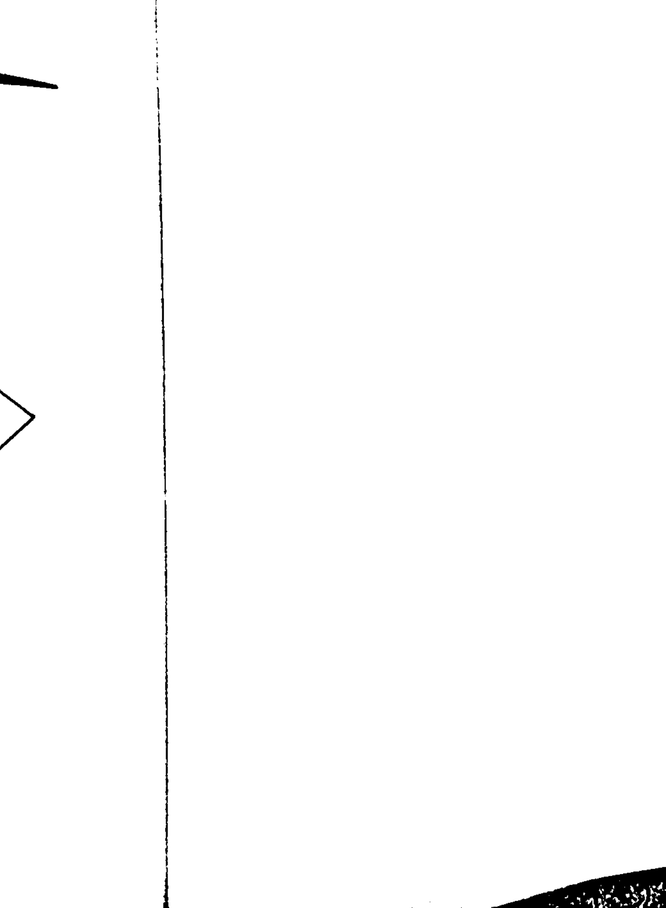
وفي عام ١٧٧٤م نشر المجلد الأول من يومياته، بعنوان (وصف رحلة إلى بلاد العرب والبلدان المجاورة) ثم ألحقه بكتاب، ضم أعمال صديقه، رفيق الرحلة بعنوان (نبات مصر والجزيرة العربية)، ثم أصدر كتاباً ضم فيه رسوم رفيق الرحلة الرسام بورنفيند. وفي عام ١٧٧٨م نشر المجلد الثاني من يومياته.

ومنذ نشره كتابه الأول (وصف بلاد العرب) فإن نيبور قد أنفق على نشر أعماله وأعمال رفيقه المتوفيين من ماله الخاص، حتى نفذ ما بيده. وقد غادر نيبور مدينة كوبنهاجن عام ١٧٧٠م إلى ألمانيا وتزوج عام ١٧٧٣م وبحث لنفسه عن وظيفة متواضعة، فحصل على وظيفة كاتب في مجلس إحدى المدن الثانوية، في منطقة معزولة، شمال ألمانيا، قضى فيها بقية عمره.

ومع أن الأنظار بدأت تلتفت إليه، وبدأت كثير من الدوائر العلمية، وخاصة في فرنسا، تقدر إنجازاته، وتبدي اهتماماً بنتائج الرحلة، وتدعوه وتكرمه، وتعرض عليه العمل لديها، إلا أنه ظل يرفض ترك وظيفته، وتغيير نمط حياته. وبينما كانت الدوائر العلمية تناقش أعماله، وكبار الجغرافيين يعترفون بدقة خرائطه وقياساته الجغرافية، كان نيبور ينصرف إلى حياته اليومية البسيطة، ويروي لزوجته وأطفاله ذكرياته في بلاد الشرق. وقد شدته أشواق وهو في السادسة والستين من العمر إلى حياته الريفية الأولى، فاشترى قطعة

ارض، اخذ يفلحها، وشعر بسعادة عظيمة وهو يعمل عليها، كما كان حاله في مطلع شبابه. وفي عام ١٨٠٧م فقد زوجته، وكان بصره قد اخذ يضعف، مما اجبره على الاستعانة بمساعد متخصص بالجغرافيا، يعينه على قراءة الخرائط، ويساعده في الكتابة وتدوين مذكراته. وكان حظ هذا المساعد ان يتولى نشر المجلد الثالث من يوميات نيبور وذلك عام ١٨٣٧م.

وقد اعتمى نيبور وضعف جسده، وسقط ذات يوم فانكسر عظم فخذه، ليقضي ما تبقى من عمره على كرسي متنقل. وفي ٢٦ إبريل عام ١٨١٥م توفي وهو في الثانية والثمانين من العمر، ذلك الرجل الذي لولاه لما امكننا أن نعرف عن البعثة وإنجازاتها العلمية ما نعرفه اليوم.



الباب الثاني



عندما يتح
استخدمهما معاً،
الإمام ، والمفهو
قرب رأس حلي ،
فكل ما هو جنو
الفداء»[1]. وتض
الواسعة، الواقعة
والجوف. وجنوبا
يتحدث نيبور ع
تضم، إضافة إل

وسوف نتنا
الواسع، أي بمفه

---

(١)
(٢) قارن:
(*) انظر هامش ص

الفصل الأول
الحياة السياسية

عندما يتحدث نيبور عن اليمن، فإنه يتحدث عنها بمفهومين، استخدمهما معاً، جنباً إلى جنب: المفهوم الضيق، وهو مرادف لمفهوم مملكة الإمام، والمفهوم الواسع، الذي قصد به اليمن من مدينة حلي Hāli، الواقعة قرب رأس حلي، إلى عدن. إذ تمثل حلي ـ كما ذكر نيبور ـ حدود الحجاز، فكل ما هو جنوبها فهو منطقة يمنية «كما كان الحال عليه في زمن أبي الفداء»[1]. وتضم اليمن بمفهومها الأخير هذا «أبو عريش»(*)، والمنطقة الواسعة، الواقعة بين أبو عريش والحجاز، ومنطقة نجران ومنطقة قحطان والجوف. وجنوباً إلى عدن والشحر، التي كانت تتبع منطقة يافع، وعندما يتحدث نيبور عن اليمن السعيد، أو العربية السعيدة، فإن اليمن عند ذلك تضم، إضافة إلى ما تقدم، حضرموت إلى ظفار[2].

وسوف نتناول في هذا الفصل الحياة السياسية في اليمن بمفهومها الواسع، أي بمفهومها الذي يتجاوز الحدود الضيقة لمملكة الإمام، ليمتد إلى

---

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 291

(٢) قارن: Niebuhr, C. BVA, S. 181 - 182.

(*) انظر هامش ص ٦٧ من هذا البحث.

سائر المناطق اليمنية الأخرى، متدرجين من مملكة الإمام، إلى المناطق اليمنية، التي كانت تحكم من قبل سلاطينها وأمرائها ومشايخها، حكماً مستقلاً عن سلطة الإمام.

١. نظام الحكم والهيكل الإداري لدولة الإمام:

عندما يتحدث نيبور عن مسائل ذات خلفية تاريخية ودينية، فإن حظه من التوفيق يكون قليلاً، كما سنرى في أكثر من موضع. ولنيبور عذره في ذلك، فمثل هذه المسائل كانت بعيدة عن مجال تخصصه، كما أن الفترة التي قضاها في اليمن لم تكن كافية لدراسة التاريخ اليمني. وللتعمق في فهم الأسس النظرية التي تقوم عليها الحياة السياسية والدينية. لهذا لم يكن بمقدوره، مثلاً، أن يقدم لقرائه فكرة واضحة عن نظام الحكم في مملكة الإمام. ولعله قد أدرك عدم قدرته، ولذلك اكتفى عند حديثه عن نظام الحكم بالعبارات القليلة التالية: وعرش اليمن وراثي، وعندما يكون جميع الأمراء متساوين في صفاتهم فإن الرعية يفضلون عادة الأمير الأكبر سناً، والذي أمه زوجة شرعية للإمام ليكون حاكماً عليهم»[1]. هنا يعبر نيبور عن الواقع العملي، فقد عملت الإمامة في اليمن على جعل نظام الحكم وراثياً، رغم أن هذا يخالف النظرية السياسية الزيدية، التي كان نظام الحكم يستند إليها. ولكي لا يبدو نظام الحكم مخالفاً لقواعد النظرية السياسية المرتكز عليها، فقد حرص الأئمة على تأكيد انسجامهم ظاهرياً مع النظرية السياسية الزيدية، وذلك بتوريث السلطة استناداً، لا إلى حق وراثي، بل إلى ادعاء توفر صفات الإمام في أبنائهم. وقد أشار نيبور إشارة سريعة إلى هذه الصفات، دون أن يتوقف عندها لتوضيحها. وأما الرعية فلم يكن لهم دور في هذا الأمر، إلا إذا اعتبرنا شيوخ القبائل، ورجال الأسر الحاكمة، وبعض العلماء، ذوي النفوذ والتأثير، هم الرعية المقصودون بعبارات نيبور.

---

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 205.

وكان الإمام - كما ذكر نيبور - حاكماً مستقلاً، لا يتلقى أوامر من أي قوة خارجية، سواء في المسائل الدينية، أو الدنيوية، وكان يسمي نفسه (خليفة) أو (إماماً). ولم يكن الحكم الاستبدادي يدوم طويلاً في اليمن «فعندما أصبح الإمام الحالي(*) مكروهاً، بسبب جشعه ووحشيته، وضعت خطة لإبعاده عن العرش، ورغم أن تلك الخطة قد أخفقت إلا أن هناك أمثلة أخرى، لتمردات ضد الأئمة، انتهت بعزلهم»[1]. وقد لاحظ نيبور أن اليمنيين لا يعرفون الألقاب الكبيرة (فوزير الدولة، واسمه أحمد النهمي، من منطقة نهم، لا يحمل أكثر من لقب فقيه، وهو لقب ليس له أهمية، حتى أن موظفي سكرتارية الوزير يحملونه، بل إن أي شخص عادي في اليمن، يظن أنه يمتلك شيئاً من العلم، يمكن أن يسمى فقيها»[2]. ويسمي اليمنيون حاكم المنطقة الإدارية (دولة) أو (أمير)[3]. كما يمكن أن يسمى أيضاً والي ، «ولكن يبدو أن لقب والي لا يطلق إلا على من ينحدرون من أسر كبيرة، مثل ابن الإمام، الذي يحكم صنعاء. وشيخ العدين، الذي ينتمي إلى أسرة حاكمة كبيرة. ويمكن أن يلاحظ المرء من خلال طريقة اليمنيين في التخاطب أن لقب والي ليس لقباً شائعاً»[4].

وإذا أردنا أن نستخلص من كتابات نيبور صورة للهيكل الإداري للدولة فإنه يمكن تصوره على النحو التالي[5]:

- الإمام هو رأس الدولة، ويتمتع بسلطات دينية ودنيوية.
- وللإمام وزير هو الفقيه أحمد النهمي.

---

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 205.

(2) Niebuhr, C., BVA, S. 206.

(3) Niebuhr, C., BVA, S. 206, G RB, Bd. 1, S. 295.

(4) Niebuhr, C., BVA, S. 206 - 207.

(5) انظر: Niebuhr, C., BVA, S. 206 - 208.

(*) يقصد الإمام المهدي عباس

- ويعمل في صنعاء عدد من كبار موظفي الدولة، كل واحد منهم مسؤول عن مجال إداري محدد. وقد ذكر نيبور بعض هذه المجالات وأغفل ذكر البعض الآخر. وهؤلاء الموظفون هم:

- القاضي حسين الأنسي Hossein el Anesi. لم يذكر نيبور وظيفته.
- الفقيه عبد الله بن محي الدين العراسي Abdulla ibn Mehey eddine el Arasie، والي الوقف.
- السيد أحمد الحفاشي Ahmed el Hofaschi. لم يذكر وظيفته.
- الفقيه علي بن حسن الأكوع Ali ibn Hassan el Lokwa، السكرتير «السري» للإمام. ولعل نيبور يقصد السكرتير الشخصي للإمام.
- الفقيه علي العمري Ali el Amri، المشرف على الجمارك ومباني ومزارع الإمام.
- الفقيه أحمد الأكوع Ahmed el Akwa، المسؤول الأول عن مكتب شؤون الحرب.
- الفقيه أحمد حنش Ahmed Hanasch، مدير العملة.

وتنقسم مملكة الإمام إلى مناطق إدارية، على رأس كل واحدة منها (دولة) أو (أمير). والدولة في منطقته أشبه ما يكون ـ كما أشار نيبور ـ بالباشا في تركيا. إذ يتولى قيادة جنود الإمام في منطقته، وتحصيل الضرائب، والإشراف المباشر على الجمارك(*) وعليه أن يقدم حساباً سنوياً دقيقاً إلى الإمام. ولا يبقى

(*) هذه الوظائف كان يقوم بها عادة العمال ولكن نيبور لم يستخدم اسم (عامل) إلا نادراً وبدلاً عن ذلك استخدم اسم (دولة)، كما استخدم مرات قليلة اسم (أمير) خاصة عند حديثه عن عامل اللحية، الأمير فرحان ولعل استخدام نيبور اسم الدولة بصورة متكررة يدل على شيوعه في اليمن في ذلك الحين، ويمكن أن نستدل على شيوعه أيضاً من الأغاني الشعبية القديمة التي اقترن فيها اسم الدولة بالعسكر. فالدولة يقصد به العامل ولا يقصد به الدولة بمعنى مجموع السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية. ولتجنب الالتباس سوف نستخدم اسم عامل بدلاً عن اسم دولة في جميع فصول هذا البحث، باستثناء في هذه الفقرة الخاصة بنظام الحكم والهيكل الإداري.

الدولة في وظيفته عادة أكثر من عامين إلى ثلاثة أعوام، وذلك خشية أن يجمع ثروة، وتساوره نفسه في الاستقلال عن مملكة الإمام. ولا يقتصر شغل هذه الوظيفة على اليمنيين، بل يمكن أن يشغلها عبيد سابقون، يتمتعون بقدرات وكفاءات، تؤهلهم لذلك. وإذا لم يستطع الدولة أن يدير منطقته، بالشكل الذي يرضى عنه الإمام، فإنه يصبح عرضة للسجن والمصادرة والعزل «ولكن هذا نادراً ما يحدث، إذ غالباً ما يعين الدولة المغضوب عليه في منطقة أخرى، بعد أن يكون قد قضى بعض الوقت دون عمل»[1].

وإذا ما ضمت المنطقة الإدارية مناطق هامة، فإن الدولة يعين فيها نواباً له، يسمى الواحد منهم (نائب دولة)، ويرافقه عدد من الجنود، قد لا يزيد أحياناً عن خمسة إلى ستة أفراد. وإذا لم يكن نائب الدولة مصحوباً بعدد من الجنود، فإنه يسمى شيخ. ويضيف نيبور، إن نائب الدولة إذا كان «في قرية صغيرة فإنه يسمى حاكم»[2]. وهذه الإضافة تبدو غريبة مقارنة بالنظام الإداري المعروف في عهد المملكة المتوكلية اليمنية (١٩١٨ ـ ١٩٦٢). وعدا عن ذلك فإنه يوجد «في كل منطقة إدارية، وعلى الأقل في المناطق الكبيرة، موظف يسمى باش كاتب أو مراقب»[3]. ويرتبط هذا الموظف بالإمام مباشرة لا بالدولة، ويجلس إلى جانب الدولة في الجمارك، ويراقب كل شؤون المنطقة، ويرفع عنها تقارير إلى الإمام، ويعتبر بلاءً مستديماً، بالنسبة للدولة، وقد يحظى بدوره، نظراً لخدماته، بمنصب (دولة)، ولكنه ما أن يعين، حتى يوضع بجانبه باش كاتب، يشرب على يديه نفس الكأس الذي سقاه لغيره.

وفي كل منطقة إدارية يوجد قاض «وربما يرتبط بكبير القضاة في صنعاء، كما هو الحال في تركيا، حيث يرتبط القضاة بالمفتي في القسطنطينية»[4].

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 207.
(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 207.
(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 207.
(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 208.

وإضافة إلى الوظائف السابقة، يتبع الدولة مجموعة من الموظفين وهم[١]:

- أمير البحر في المخا، ومهمته الإشراف على السفن والقوارب، فلا يسمح بإبحار أي قارب أو سفينة، دون إذن منه. كما أنه يقوم بتفقد البضائع، التي تحملها السفن من الميناء وإليه، للتأكد من أن الضرائب المستحقة عليها قد تم تسديدها، على الوجه المطلوب[٢].
- أمير باب المدينة، وهو مسؤول عن أبواب أسوار المدينة، ومراقبة كل ما يمر من وإلى المدينة، وكشف عليه.
- أمير السوق، وهو مسؤول عن المقاييس والموازين ونوعية البضائع، الموجودة في السوق.
- شيخ البلد Schech el Belled، وهو مسؤول عن توزيع ما تصرفه الدولة للمواطنين في المدينة. ولم يوضح نيبور فيما إذا كان المقصود بهذه المصروفات أموال الزكاة، أم أن هناك مخصصات أخرى تصرف بواسطة شيخ البلد هذا.
- رئيس الحرس الليلي.
- مدير البحر.

٢. المناطق الإدارية التابعة لمملكة الإمام[٣]:

يستعرض نيبور المناطق الإدارية المختلفة، ضمن مملكة الإمام، مميزاً بين المناطق التهامية، والمناطق الجبلية. وسنوردها هنا في تسلسل واحد:

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 208
(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 300
(٣) انظر Niebuhr, C., BVA, S. 221FF

منطقة المخا:

يحدها البحر وإمارة عدن وبلاد ابن عقلان ووصاب الأسفل. ومن أهم المدن والقرى في هذه المنطقة(*):

- المخا: وهي مركز منطقة المخا ومقر العامل. وتعتبر أهم مدينة في مملكة الإمام، وذلك بسبب النشاط التجاري الكبير فيها. ويسكنها تجار أغنياء من اليمنيين والهنود. كما يزورها تجار أوروبيون، يأتون على ظهور السفن.
- يختل Jachtillo: وهي قرية كبيرة تبعد عن المخا بمقدار ميلين ألمانيين(**) نحو الشمال.
- موزع: وهي قرية فيها قلعة صغيرة ونائب للعامل. وتبعد عن المخا بمقدار أربعة أميال ونصف نحو الشرق. وذكر نيبور أنه «ربما تقع هنا مدينة ميسا Mesa، التي ورد ذكرها في كتاب موسى الأول، الفصل العاشر»(***).
- سوق الجمعة: وهي قرية يقام فيها سوق أسبوعي، في كل يوم جمعة، وتتبع موزع.
- الوازعية: وهي عبارة عن قلعة صغيرة، في منطقة جبلية، بجنوب موزع.
- ذباب: وهي قرية تبعد عن المخا بمقدار رحلة يومين، نحو الجنوب.
- ذكار وبعض الجزر الصغيرة.
- باب المندب.
- بريم.

(*) استطاع نيبور أن يستكتب أسماء بعض القرى، أما البعض الآخر فقد اكتفى بكتابه أسمائها بالأحرف اللاتينية وبحسب السماع. ولذا فسوف أثبت هنا الأسماء باللاتينية بالنسبة للقرى التي لم يورد أسماءها بالأحرف العربية، مع كتابة الاسم بالعربية بالصورة التي أظنها سليمة.

(**) الميل الألماني كان يساوي ٧٥٣٢ متراً، ولم يعد مستخدماً الآن.

(***) يشير نيبور بذلك إلى ما ورد في سفر التكوين الإصحاح العاشر بصدد تحديد مواطن أبناء سام بن نوح فبنو قحطان أو يقطان «كان مسكنهم من ميشا حينما تجيء نحو صفار جبل المشرق». انظر الكتاب المقدس ص ١٧.

ـ زبيع: وهي مدينة تقع على ساحل البحر ويحكمها نائب من قبل العامل في اللحية. وقد علمنا أن هذه المدينة تتبع الإمام في صنعاء(١).

منطقة وصاب الأسفل(*)

تحدها منطقة اللحية، وبلاد ابن عقلان، ومنطقة وصاب الأعلى، ومنطقة زبيد، ويطل جزء صغير منها على البحر الأحمر، أو بحسب التسمية التي يستخدمها نيبور: الساحل العربي. وليست هذه المنطقة منطقة واسعة، كما أنها ليست منطقة غنية. ومن أهم مدنها وقراها:

ـ مدينة حيس: وهي مركز منطقة وصاب الأسفل. وهي عبارة عن مدينة غير مسورة، فيها سفن، يسكنها العامل. وتمد هذه المدينة اليمن بالأوعية الفخارية.

ـ موشج Mausch أو موشد Maushid(٢): وهي قرية كبيرة، فيها نائب للعامل، وتقع على مقربة من البحر، بين المخا وزبيد. ويدفع المسافرون فيها ضريبة عن أمتعتهم. وقد اعتقد نيبور أن اسم هذه القرية يشبه اسم ميناء موسى Muza، الذي حدد بطليموس موقعه بصورة تبدو منطابقة مع موقع هذه القرية، ولذا فيمكن أن يبحث عن موقع ميناء موسى في هذه المنطقة(٣).

ويعود دخل هذه المنطقة إلى عائلة إسحاق.

منطقة زبيد

تحدها منطقة وصاب الأسفل، ومنطقة وصاب الأعلى، ومنطقة بيت

---

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 224
(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 224
(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 225
(*) يسميها نيبور وصاب السافل كما يسمون وصاب الأعلى وصاب العالي.

الفقيه، والبحر الأحمر. ومن أهم مدنها وقراها:

- مدينة زبيد: وهي مركز هذه المنطقة. وقد كانت أهم مركز تجاري، ضمن المنطقة التي يحكمها الإمام، وذلك عندما كان ميناء غليفقة ميناء مزدهراً وكانت تعتبر عاصمة تهامة كلها وتوجد فيها أكاديمية زبيد، التي تمد تهامة، والمناطق الجبلية الجنوبية، بالعلماء كما توجد فيها قلعة صغيرة، يسكنها العامل.

- قرية التحيتة او التحيتا[1]: وتقع على بعد ميلين وربع إلى الغرب من زبيد، ويبدو من مقابرها أنه كان لها ماضي مزدهر، على خلاف ما هي عليه الآن.

- قرية التربية Toreiba أو التريهة Traha[*]: وهي قرية هامة تقع شرق زبيد.

- قرية الشرجة: وهي قرية كبيرة تقع على بعد ثلاثة أميال ونصف من زبيد، باتجاه المخا. وفيها نائب للعامل، مع عدد من الجنود.

منطقة بيت الفقيه:

تحدها منطقة اللحية ومنطقة زبيد. ومن أهم مدنها وقراها:

- مدينة بيت الفقيه: وهي مدينة كبيرة غير مسورة، بدأت تأخذ مكانتها الهامة، بعد أن أصبح ميناء غليفقة غير صالح للاستعمال، وانصرف التجار شيئاً فشيئاً عن زبيد. وتعتبر هذه المدينة أهم مركز للبن في اليمن «بل وفي العالم كله»[2]. ويجتمع فيها تجار من مختلف أنحاء العالم: من تونس والمغرب والعراق وسورية وعمان وإيران وأوروبا.. إلخ.

---

(١) قارن: الويسي، اليمن الكبرى، ص ٨٩.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 225.

(*) رغم أن نيبور قد استكتب اسماء بعض القرى والمدن، إلا أنه، كما يبدو، وبسبب اعتماده على السماع بصورة أساسية، لم يكن واثقاً من صحة بعض الأسماء، التي كتبت له بالعربية، لذا فإنه كثيراً ما ورد الاسم بصورتين مختلفتين. أما الاسم الصحيح لهذه القرية فهو التربية.

- قرية المحط: وهي قرية كبيرة تقع في وادي المحط، على الطريق الموصل بين بيت الفقيه وزبيد.
- قرية الدريهمي: وهي قرية كبيرة.
- قرية غنمية أو الغانمية(*) Gannemie: وهي قرية كبيرة «تقع على الطريق بين بيت الفقيه واللحية»[1]. وفيها نائب للعامل مع عدد من الجنود.
- غليفقة: كانت مدينة مشهورة، وأصبحت قرية صغيرة لا أهمية لها. إلا أن توفر الملح فيها بكثرة، قد جعل العامل يضع فيها موظفاً سماه نيبور «حاكم أو كاتب»[2]، وذلك لقبض ما يدفعه تجار الملح، من مبالغ زهيدة، مقابل كل حمل جمل، يأخذونه من هناك.
- وتضم منطقة بيت الفقيه أيضاً قرى هامة، كالقطيع والمنصورية والمراوعة.

منطقة الحديدة:

لا تكاد حدود هذه المنطقة تتجاوز حدود مدينة الحديدة نفسها. ومع ذلك فإن دخل الجمارك في هذه المنطقة مرتفع جداً، إذ يستقبل ميناء الحديدة السفن التجارية، خاصة السفن القادمة من جدة ومسقط. ويمكن اعتبار ميناء الحديدة، ميناءً لبيت الفقيه. ويسكن العامل في قلعة مطلة على البحر.

منطقة اللحية:

يحدها البحر الأحمر، ومنطقة أبو عريش المستقلة عن دولة الإمام، ومنطقة بيت الفقيه، وبعض المشيخات التابعة لاتحاد حاشد وبكيل. ومن أهم المدن والقرى في هذه المنطقة:

---

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 227.

(2) Niebuhr, C., BVA, S. 227.

(*) تقع الغانمية بين بيت الفقيه وزبيد وليس بين بيت الفقيه واللحية. ولعل نيبور قد أخطأ في تحديد موقعها، أو أنه قد قصد بذلك قرية أخرى مشابهة في الاسم، لم أتمكن من العثور عليها في الخارطة.

- مدينة اللحية: وهي مركز المنطقة ومقر العامل.
- جويرة أورموك Urmuk(*): وهي جزيرة صغيرة؛ قريبة من اللحية، وتعتبر جزءاً منها، إذ يستخدمها أهالي اللحية كملجأ لهم، ولأموالهم، إذا داهمتهم القبائل من الجبال.
- ماربيه Marabea(**): كانت فيما مضى مدينة وميناء ومركزاً للمنطقة(١) يقيم فيها العامل، لكنها فقدت أهميتها، ولم يعد ميناؤها صالحاً لرسو السفن. وتقع إلى الشمال من اللحية.
- مور: هو عبارة عن سوق يبعد عن اللحية بمقدار ٤ إلى ٥ ساعات سفر(***). ويقيم فيه نائب للعامل وبعض الجنود.
- عدر Adir: قرية تبعد بمسافة ساعة واحدة عن مور، ودخلها يعود إلى قاضي اللحية.
- المنيرة: قرية كبيرة، تقع في الطريق بين اللحية وبيت الفقيه.
- الضحي: قرية كبيرة، تقع في منتصف الطريق بين اللحية وبيت الفقيه، وفيها نائب للعامل مع بعض الجنود.
- مخلاف: مدينة صغيرة، تقع في وادي سردد، ويسكنها شيخ وادي سردد.
- الهجم: كانت في الماضي مدينة مشهورة، ولكن لم يبق منها «الآن»(****) ما يستحق الذكر سوى مسجد قديم، رممه الأمير فرحان، أمير اللحية عام ١٧٦٢ م.

---

(١) Niebuhr, C. RB. Bd. I, S. 304 - 305.

(*) لعل نيبور يقصد جزيرة المرك الواقعة إلى الجنوب الغربي من اللحية.

(**) لم أعثر عليها في الخارطة ولا في المعاجم.

(***) لم يتقيد نيبور بمنهج محدد عند حساب المسافات. فأحياناً كان يحسب بالأميال وأحياناً كان يكتفي بحساب الساعات التي يستغرقها المسافر، وأحياناً لا يذكر أكثر من اتجاه موقع القرية أو المدينة أو المنطقة بالنسبة لقرية أو مدينة أو منطقة أخرى.

(****) أي عند زيارة نيبور لليمن.

- الزيدية: عبارة عن سوق كبير، فيه نائب للعامل وبعض الجنود.
- جزيرة كمران: جزيرة خصبة، يقيم فيها نائب للعامل وبعض الجنود.
- جزيرة فران Firân: وهي جزيرة يجمع فيها أهالي اللحية اللؤلؤ.

منطقة سنحان:

تحدها همدان وذيبان Daibân وخولان وبلاد آنس والحيمة. ومن أهم مدنها وقراها:

- صنعاء: وهي مدينة قديمة مشهورة، يقيم فيها الإمام وهي عاصمة مملكته.
- بير العزب: هي أقرب القرى إلى صنعاء، بل تعتبر ضاحية من ضواحي صنعاء.
- عصر: «قرية كبيرة بل يمكن اعتبارها مدينة صغيرة، ويسكنها اليهود فقط، ولذلك تسمى عادة بقاع اليهود»[1]. وقد حاول نيبور أن يجد تشابهاً(*) بين اسم هذه القرية، الذي كتبه هكذا: عسر Osér، واسم أزال Usal، وهو الاسم القديم لصنعاء.
- الروضة Rodda: هي مدينة صغيرة، تقع على السائلة نفسها المارة بصنعاء، وعلى بعد أربع ساعات نحو الشمال من صنعاء. وللإمام وأعيان صنعاء فيها بيوت وبساتين.
- سعوان Zauân: منطقة صغيرة، تقع شمال شرق صنعاء.
- طيبة Taibe: قرية، تقع شمال غرب صنعاء.
- حدة Hodde: قرية، تقع على بعد ميل وربع من صنعاء نحو الجنوب، وللإمام بساتين فيها.
- رماع ابن حميد Rema ibn Homeid: قرية، فيها سمسرة كبيرة، ومحطة

---

(1) يبدو أن نيبور قد خلط بين عصر وقاع اليهود. Niebuhr, C., BVA. S. 231.

(*) كثيراً ما حاول نيبور إيجاد تشابه بين الأسماء اعتماداً على السمع ولم يكن موفقاً في ذلك.

للقوافل، وتقع على بعد بضعة أميال من صنعاء، نحو الجنوب، على طريق ذمار، وتسمى عادة رماع فقط.

هذه المدن والقرى آنفة الذكر، وكثير غيرها، تتبع والي صنعاء وهو الأمير علي، أخو الإمام المهدي. وإلى جانبها كانت هناك قرى يمتلكها أو يعود دخلها إلى بعض أفراد أسرة الإمام، أو الأسر الكبير الأخرى. ومنها:

- سيان Sejiän: قرية تبعد عن صنعاء بمقدار ثلاثة أميال نحو الجنوب.
- زراجة Suradsje: قرية كبيرة تبعد سبعة أميال ونصف من صنعاء، على طريق ذمار.
- سوق العفص Suk el AFS وفيلان Weilän(*): قريتان كبيرتان في جبل الروس، تمتلكهما أسرة إسحاق، أمراء وصاب.

منطقة بلاد آنس Anes(**):

تحدها ريمة وعتمة ومغارب عنس. ومن أهم مدنها وقراها:

- ضوران: مدينة قديمة. وهي مركز العامل. وكانت عاصمة للإمام المتوكل إسماعيل(***)، الذي دفن وأخوه حسن فيها.
- معبر: قرية تقع بين مدينتي ضوران وذمار(****).
- عبيد(*****): مدينة صغيرة في وادي ريمة.

(*) لم أجدهما في الخارطة ولعلهما العبس ووعلان.

(**) كتب نيبور اسم آنس تماماً كاسم عنس والروضة كاسم رداع وقد وقع في أخطاء من هذا النوع لاعتماده على السماع والتباس مخارج بعض الأحرف العربية عليه

(***) الإمام المتوكل إسماعيل بن القاسم تولى الإمامة في الفترة من ١٠٥٣ هـ ١٦٤٣ م إلى وفاته عام ١٠٨٧ هـ ١٦٧٦ م.

(****) أخطأ نيبور بعض الشيء في تحديد موقع معبر فهي تقع شمال ذمار وشمال شرق ضوران.

(*****) لعلها مدينة العبيد.

- سوق الخميس: قرية كبيرة، تقع بالقرب من مدينة عبيد.

منطقة رداع

تحدها حولان ويافع وأهم مدنها مدينة رداع، مركز المنطقة ومقر العامل، وهي مدينة صغيرة فيها قلعة حصينة.

ولم يذكر نيبور أية معلومات أخرى عن هذه المنطقة، إذ لم يتمكن من الحصول على معلومات عن مدنها وقراها[1].

منطقة مغارب عنس

تحدها منطقة صنعاء وبلاد آنس ويريم. ومن أهم المدن والقرى فيها:

- ذمار: وهي مدينة كبيرة غير مسورة، يقيم فيها العامل، وتبعد عن صنعاء بمقدار اثني عشر ميلاً ونصف. وفيها أكاديمية «يدرس فيها غالباً الزيديون»[2]. كما توجد فيها قلعة كبيرة.

- المواهب: هي مدينة صغيرة، لا تبعد كثيراً عن ذمار، وفيها قلعة. وقد كانت عاصمة للإمام المهدي محمد بن أحمد(*)، الذي قبر فيها.

- جبل هران: يقع إلى الشمال الغربي من مدينة ذمار، ويوجد فيه العقيق اليماني.

- جبل الكبريت أو الأسبي: يقع إلى المشرق من ذمار.

منطقة عتمة

تحدها بلاد آنس وريمة ووصاب ومغارب عنس. ولم يستطع نيبور - كما ذكر - أن يحصل على معلومات عنها أكثر من أن مدينة عتمة هي مركز منطقة

---

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 235.

(2) Niebuhr, C., BVA, S. 235.

(*) هو الإمام المهدي، صاحب المواهب، انظر هامش ص ٢٨ من هذا البحث.

عتمة، ومقر العامل، وانه يوجد سوق، يسمى سوق الربوع، وفيه قلعة. وأضاف نيبور قائلاً «وقد أخبرني شخص آخر أن العامل يسكن في سوق الربوع. وهذا ربما يعني أنها لا توجد مدينة اسمها عتمة بل إن هذا الاسم هو اسم المنطقة فقط»[1].

منطقة بريم[*]:

تقع بين مغارب عنس وجبل سمارة. ومن أهم مدنها وقراها:

- بريم: وهي مدينة صغيرة، سيئة البناء، يقيم فيها العامل. وتبعد عن ذمار بمقدار أربعة أميال نحو الجنوب.
- ظفار: عبارة عن خرائب لمدينة كانت لها أهميتها الكبيرة، تحت حكم الملوك الحميريين. وتبعد عن مدينة بريم بمسافة يوم واحد، نحو الجنوب الغربي.

وقد أشار نيبور إلى أنه لم يستطع أن يحصل على أكثر من هذه المعلومات عن منطقة بريم، إضافة إلى مجرد بعض أسماء لعدد من القرى.

المخادر:

هي منطقة صغيرة وخصبة. قال عنها نيبور إنها «أعطيت لإبراهيم ابن الإمام المهدي محمد، وعندما توفي عام ١٧٦٢ م آلت إلى ابنه إسماعيل. ولا أعلم علم اليقين فيما إذا كانت تحكم من قبل إسماعيل نفسه حكماً مستقلاً عن سلطة الإمام، ولكني أرجح أنه يحصل على دخلها، في حين يتولى حكمها دولة معين من قبل الإمام»[2]. ومن أهم المدن والقرى في هذه المنطقة:

- المخادر: وهي مدينة صغيرة، تقع فوق جبل، وتوجد فيها قلعة. وتبعد عن

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 235 - 236.

(2) Niebuhr, C., BVA, S. 237.

(*) حاول نيبور أن يجد تشابهاً بين اسمي بريم وإرم، التي ورد ذكرها في القرآن الكريم. انظر: Niebuhr, C., BVA, S. 236.

مدينة إب بمسافة ميلين و ٨/٥ الميل، نحو الشمال، وعن مدينة يريم بمسافة أربعة أميال ونصف، نحو الجنوب الغربي.

- قرى Dolme و Tullüb و Schomén.

وهناك مناطق وقرى تقع قريبة من المخادر، لم يستطع (نيبور) أن يتحقق، مما إذا كانت تتبع إدارياً منطقة المخادر أم لا. وهي:

- سمارة أو جبل سمارة.
- المزن: وهي قرية، تقع في جبل سمارة، وفيها محطة للقوافل.
- Robo el Haua: وهو عبارة عن حصن يمتلكه النقيب محمد بن عبد الله الوادعي.
- حصن بني حسن: وهو عبارة عن قلعة، في قمة جبل سمارة، هدمت منذ سنوات قليلة، وأجبر بنو حسن على الاعتراف بسلطة الإمام.
- بلاد خبان: تقع إلى الشمال من المخادر، ويعود دخلها إلى السيد إسماعيل بن إبراهيم، الآنف الذكر.
- حبيش: مدينة تقع على مرتفع، بين المخادر وعتمة، وتتبعها منطقة حبيش «وربما أن لها شيخها»(١).

منطقة اليمن الأعلى(*).

تحدها العدين والمخادر وتعز، وتسمى مخزن غلال اليمن لخصوبتها، وهي كثيفة السكان. ومن أهم مدنها وقراها:

- جبلة: وهي أهم مدن هذه المنطقة ومركزها ومقر العامل.
- إب: ثاني مدينة من حيث الأهمية، بعد مدينة جبلة، ويقيم فيها نائب للعامل.

---

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 238.

(*) هكذا يسميها نيبور.

- السويق: قرية تقع بين إب والمخادر.
- Diksera: قرية تمتلكها أسرة إسحاق.
- محرس: قرية، محطة قوافل، والطريق إليها مرصوفة.

منطقة قعطبة(*):

تقع في الحدود الجنوبية لمملكة الإمام. ومن أهم المدن والقرى فيها:

- مدينة قعطبة: وهي مركز المنطقة ومقر العامل.
- خيران Cheirân: وهي مدينة جبلية صغيرة.
- Ghurefie: قرية كبيرة.

منطقة تعز:

تحدها منطقة اليمن الأعلى والعدين وبني عقلان والحجرية. ومن أهم مدنها وقراها:

- مدينة تعز: وهي مركز المنطقة ومقر العامل «وتبعد عن مدينة عدن بمسافة خمسة أيام: يوماً من تعز إلى خدير، ويوماً من خدير إلى حروة، ونصف يوم من حروة إلى نقيل الحمار، ويوماً ونصف من نقيل الحمار إلى لحج، ويوماً من لحج إلى عدن»[1].
- جبل صبر: وهو عبارة عن سلسلة من الجبال، كل جبل منها يحمل اسماً خاصاً به وأعلاها جبل حصن العروس. ولخصوبة جبل صبر يعتقد اليمنيون أنه يحتوي على جميع أنواع النباتات الموجودة في العالم، كما يعتقدون أنه يوجد فيه الكهف، الذي ورد ذكره في القرآن[2].
- مدينة عدينة: مدينة قديمة، تقع بالقرب من قاهرة تعز، ولم يبق منها إلا

---

(1) Neiuebuhr, C. BVA, S. 241.

(2) Niebuhr, C. BVA, S. 241.

(*) حاول نيبور أن يجد تشابهاً بين اسمي قعطبة وقتبان، ليخلص إلى القول: «إنه من المحتمل جداً أن قعطبة هي نفسها قتبان». أنظر Niebuhr, C., BVA, S. 241.

أطلالها. وقد اعتقد نيبور خطأ، أنها ربما تكون بقايا مدينة عدن لاعة(*).

ـ الجند: مدينة كانت مشهورة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكنها الآن أصبحت قرية صغيرة، ويقع فيها مسجد معاذ بن جبل.

ـ الضباب: منطقة جميلة تقع في طريق تعز ـ يفرس.

ومن القرى والمناطق التابعة لتعز أيضاً: شرمان والقاعدة وذي السفال وشرعب.. إلخ.

بلاد الحجرية:

تحدها مناطق تعز وقعطبة وبني عقلان والمخا ويافع وعدن. وقد حكمها الشيخ عبد الرب مستقلاً عن مملكة الإمام، ثم ضمت بعد ذلك إلى مملكة الإمام، وأصبحت تتبع إدارياً العامل في تعز. وأهم مدنها وقراها:

ـ الدملوة: مدينة صغيرة، تبعد مسافة يوم وربع إلى الجنوب الشرقي من تعز.

ـ Galla : كانت مقراً للشيخ عبد الرب.

ـ المفاطرة: هي عبارة عن قلعة منيعة للغاية. وقد كانت أيضاً، ولبعض الوقت، مقراً للشيخ عبد الرب.

ـ يفرس: مدينة. كان الإمام يعين فيها أحياناً عاملاً. ويوجد فيها قبر الولي ابن علوان(**).

ـ منصورة: قرية كبيرة، تدل خرائب مساجدها على أنه كان لها ماضي زاهر.

ـ قدس: قرية كبيرة.

ـ العزاعز: قرية على حدود منطقة عدن.

(*) لقد وهم نيبور: معدن لاعة تقع في منطقة حجة وقد كانت عاصمة منصور اليمن: انظر: الحجري، معجم البلدان، مج ٤، ص ٨٩، ٩٠، والحجري، بلدان اليمن، مج ٢، ص ٣٨٢د، واليمني، تاريخ اليمن، ص ٣٨ ـ ٣٩.

(**) أحمد بن علوان، صوفي يمني مشهور توفي عام ٦٦٥ هـ/١٢٦٧ م. انظر: الزركلي، الأعلام، مج ١، ص ١٧٠.

بلاد ابن عقلان أو بني عقلان(*):

كان يحكم هذه المنطقة إلى عهد قريب شيخ مستقل عن سلطة الإمام، من سلالة عقلان(**). ومن أهم المدن والقرى التابعة لها:

- الدريبات Dorebât: وهي مدينة صغيرة، تقع على جبل، وتبعد أحد عشر ميلاً عن المخا. وهي مركز المنطقة ويقيم فيها الشيخ ابن عقلان، وإلى جانبه موظف حكومي وبعض الجنود. وفيها سجن محفور في الصخر، هو أفظع سجن يمكن تصوره[1].
- القماعرة: عبارة عن مرتفعات جبلية، يحكم المشايخ جزءاً كبيراً منها، مستقلين عن مملكة الإمام.

ومن القرى التابعة لهذه المنطقة: Aqhûs، وشمير Schamir، والأهمول Ahmûl.

منطقة العدين(***):

لهذه المنطقة شيخ يحكمها حكماً مستقلاً عن مملكة الإمام. ومن أهم مدنها وقراها:

---

(١) انظر Niebuhr. C. RB. Bd. 1. S. 375

(*) لم يشر نيبور إلى حدود هذه المنطقة ولكن من خلال ورود ذكرها في حدود مخلاف حجرية ومن خلال حديثه عنها في يومياته يتضح أنها تقع مجاورة لمناطق تعز والحجرية والمعافر ووصاب السافل.

(**) أشار نيبور إلى أن الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن أمير الدين من سلالة عقلان لا يزال مسيطراً على منطقته رغم أن الإمام قد استطاع إخضاعها وضمها إلى مملكته. وقد استمر ابن عقلان يحكمها ويدفع ضرائب محددة للإمام، كما أن الإمام قد عين موظفاً مع عدد من الجنود التابعين له إلى جانب الشيخ ولم يشر نيبور إلى نوع العلاقة بين موظف الإمام والشيخ عبد الله بن عقلان. انظر: Niebuhr. C. BVA. S. 244
وكذا: Niebuhr. C. RB. Bd. 1. S. 375.

(***) لم يلتزم نيبور بطريقة موحدة عند حديثه عن المناطق الإدارية الممتنعة فمرة يذكر جميع المناطق المحادة لها ومرة يكتفي بإيراد اسم منطقة واحدة محددة فقط وحيناً لا يذكر اسم أي منطقة محادة.

- العدين وهي مدينة غير مسورة، تقع على جبل بالقرب من الوادي الذي يتجه إلى زبيد، وتبعد مسافة خمسة عشر ميلاً عن مدينة بيت الفقيه.

- Mahra قرية تبعد خمسة أميال عن مدينة العدين، على طريق العدين بيت الفقيه ويباع فيها [illegible].

ومن قرى هذه المنطقة أيضاً قرية بني عوض و سنيكي.

منطقة وصاب الأعلى

تحدها تهامة وقد ذكر نيبور أنه غير متأكد مما إذا كانت هذه المنطقة تحكم من قبل عامل من عمال الإمام أم لا(١). ومن أهم المدن والقرى التابعة لهذه المنطقة

- دنة Denn وهي مدينة صغيرة، توجد فيها قلعة كبيرة، وسوق أسبوعي.
- رباط وصاب Rabbe Osab. وهي عبارة عن حصن منيع.
- قرية Hal.

منطقة كسمة

تقع في شرق منطقة بيت الفقيه، وهي منطقة واسعة، تضم مناطق عديدة، تسكنها عشائر كثيرة، لكل منها شيخها، الذي يحكمها مستقلاً من ناحية عملية، مع الاعتراف بسلطة الإمام. ومركزها هو مدينة كسمة، وهي مدينة صغيرة، يقيم فيها العامل. ومن المناطق التابعة لكسمة:

- منطقة بني العنبي وتقع فيها مدينة كسمة.
- منطقة مسور.
- منطقة بني بكار.
- منطقة بني أحمد.

---

(١) Niebuhr, C. BVA, S. 245.

- منطقة بني القحوي. وفيها تقع قرية الحدية، التي تعتبر من أهم أسواق البن في اليمن.
- منطقة بني سعد.
- منطقة بني وقيد. وفيها قرية علوجة، التي تعتبر أيضاً من أسواق البن الهامة.
- منطقة بني ضبيبي.

منطقة الجبي:

تقع هذه المنطقة في شمال منطقة كسمة. ويطلق اليمنيون على كلا المنطقتين الجبي وكسمة اسماً واحداً هو ريمة. ومثلما هو الحال بالنسبة لمنطقة كسمة، تتوزع الجبي عشائر، لكل منها شيخها ومنطقتها. ومن مناطق الجبي:

- منطقة بني حمران Bani H'ommerán. وفيها تقع مدينة الجبي، مركز منطقة الجبي ومقر العامل.
- منطقة بني هندوان Bani Hindewán.
- منطقة بني حسين.
- منطقة Hadedda(*).

وقد ذكر نيبور أنه لم يشاهد بنفسه المناطق التي تتبع الجبي جميعها، إذ أنه قد مر بمنطقة الجبي مروراً سريعاً، وهو في طريق عودته من صنعاء إلى بيت الفقيه باتجاه المخا. لهذا فلم يكن متأكداً من مواقع هذه المناطق، وقد حمّلها على خارطته، مستنداً إلى ما تلقاه من معلومات شفوية من المواطنين[1].

(1) Niebuhr, C. BVA. S. 249

(*) لعلها الحدادة أو الحديدية وكلاهما عزلتان في بلاد ريمة. انظر: الحجري، بلدان اليمن، مج ١، ص ٢٥٠ - ٢٥١.

منطقة حفاش:

تحدها مناطق لحجة وبني ... وحراز وكوكبان. ومن أهم مدنها وقراها:

- مدينة صعفين Sehfain، وهي مدينة مسورة وفيها مقر العامل.
- قرية Beit el Nushch[*].
- حي مسحت.

منطقة حراز:

وأهم مدنها مدينة مناخة، وهي مركز منطقة حراز ومقر عاملها. ومن مناطقها:

- منطقة بني إسماعيل.
- منطقة بني محمد.
- منطقة بني سعد.
- منطقة بني حسن.

منطقة الحيمة السفلى[**] Heime el Asfal:

تحدها حراز والحيمة العليا وبلاد آنس. وتمر منها طريق صنعاء ـ بيت الفقيه. ويعود حكمها إلى أحد أفراد أسرة الإمام. ومن أهم مدنها وقراها:

- مفحق: مدينة صغيرة فيها قلعة وفيها مقر العامل.
- قرية سهمة Sehan.
- سوق الخميس.

منطقة الحيمة العليا[***] Heime el Ala:

تحدها مناطق سحنان والحيمة السفلى وحراز وكوكبان. وذكر نيبور، أنه

(*) [illegible]

(**) سماها نيبور الحيمة الخارجية.

(***) سماها نيبور الحيمة الداخلية. عن الويسي، اليمن الكبرى، ص ٧٩.

يعني، انه قد سمع أن دخل هذه المنطقة يعود إلى أحد أفراد أسرة الإمام[1].

ولم يذكر نيبور اسم أي مدينة أو قرية من مدن وقرى هذه المنطقة باستثناء مدينة العر، وهي مدينة صغيرة يقيم فيها العامل.

منطقة ثلا[*]:
سميت باسم مدينة ثلا، وهي مدينة حصينة، يقيم فيها العامل. ومن مدن وقرى ومناطق ثلا:

- مدينة كحلان.
- منطقة بني عفار.
- بلاد حجة، وتملكها أسرة شمسان Schemsân وتقع فيها مدينة الظفير Doffir، وهي مدينة كبيرة. وفيها أيضاً قرية ذي النوب ويملكها النقيب صالح بن نصر.
- مدينة حبور.
- بلاد السودة.

ويوجد في منطقة ثلا جبل شهارة، وهو جبل كبير فيه حوالي ثلاث مئة قرية.

منطقة همدان:

تقع في شمال غرب صنعاء، وهي من مناطق اتحاد حاشد وبكيل ولكنها تتبع مملكة الإمام، وتقدر مساحتها بمسافة يومين طولاً، ويوماً واحداً عرضاً. وفيها عامل معين من قبل الإمام، وهو نفسه شيخها، وهو الشيخ صالح بن خليل، ويشغل - إضافة إلى كونه شيخ المنطقة وعاملها - منصباً كبيراً في جيش الإمام. ومن أهم مدن وقرى هذه المنطقة:

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 251.

(*) أشار نيبور إلى أن مناطق ثلا وهمدان وعمران وخمر، وهي مناطق تقع إلى الشمال من صنعاء، تدخل ضمن مملكة الإمام إلا أنها لا تدفع شيئاً له، ويمكن اعتبارها من الناحية العملية مستقلة. ومع ذلك فقد ذكر أنه كان عليها عمال من قبل الإمام. انظر: Niebuhr, C., BVA, S. 253 - 254.

- Medem[*]، وهي مدينة صغيرة.
- قرية بيت النوم.
- قرية لولوة.
- منطقة المنكب Mnakeb[**]، التي يحفر سكانها منازلهم في الصخور.

منطقة عمران:

وهي أيضاً جزء من مناطق اتحاد حاشد وبكيل، وتتبع مملكة الإمام. وتقع فيها مدينة عمران، وهي مدينة صغيرة مسورة، ومدينة الجند وهي أيضاً مدينة صغيرة مسورة «وهي غير الجند الواقعة قرب مدينة تعز»[1].

منطقة خمر:

وهي منطقة صغيرة، لا تتجاوز حدودها حدود مدينة خمر نفسها. وهي جزء من منطقة اتحاد حاشد وبكيل، وتقع ضمن منطقة بني صريم. ويضطر الإمام للإبقاء على منطقة خمر ضمن مملكته إلى بذل «جهد كبير وأموال طائلة»[2].

٢ . المناطق المستقلة عن مملكة الإمام:

إضافة إلى المناطق الإدارية السابقة والتي تقع ضمن مملكة الإمام تحدث نيبور عن المناطق اليمنية المستقلة عن حكم الإمام معتمداً في ذلك اعتماداً كلياً على ما تلقاه من معلومات، إذ لم يقم بزيارتها ومشاهدتها بنفسه.

وهذه المناطق هي:

إمارة عدن:

وهي إمارة صغيرة، يحدها من الجنوب البحر ومن الشمال مملكة الإمام ومن الشرق يافع وبعض الإمارات المستقلة الأخرى. وكانت تتبع مملكة الإمام،

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 254.

(2) Niebuhr, C., BVA, S. 254.

(*) نعيم مدم

(**) هكذا كتبها نيبور بالأحرف العربية وبالأحرف اللاتينية. ولعلها المنقّب.

إلى ان انفصلت عنها في الثلاثينات من القرن الثامن عشر(*). وعاصمة هذه الإمارة هي مدينة عدن، وهي مدينة قديمة، ورغم أنها تعتبر ميناء هاماً، إلا ان عدم تنظيم علاقة حاكمها بجيرانه، قد أفقدتها أهميتها كميناء، إلى حد كبير. وتدخل ضمن حدود هذه الإمارة منطقتي لحج والفضلي.

ولاعتماد نيبور على مجرد السماع، فإن معلوماته، عن هذه الإمارة وعن حكامها، معلومات مشوشة. وقد اعتذر عند إيراده أسماء بعض المناطق بانه ربما يكون قد سمعها بصورة غير دقيقة.

إمارة كوكبان:

تقع بين مملكة الإمام وبين بلاد اتحاد حاشد وبكيل. ومن أهم المدن والقرى والمناطق التابعة لها:

- مدينة كوكبان: وهي مقر حكام الإمارة، ويسميها اليمنيون الحصن، لوقوعها على جبل منيع(**).
- مدينة شبام(***).
- مدينة الطويلة.
- مدينة المحويت.
- وادي لاعة: ويملكه السيد إبراهيم، أخو أمير كوكبان.

(*) تختلف المصادر في تحديد السنة التي استقلت فيها عدن عن مملكة الإمام فقد ذكرت مثلا السنوات ١٧٢٨م و ١٧٢٩م و ١١٤٥ هـ (١٧٣٢م). قارن: يعقوب، مونه شبه الجزيرة، ص٢٢. والحبيشي، اليمن الجنوبي، ص ٩. والعبدلي، هدية الزمن، ص ١٢٢، ١٢٣.

(**) ذكر نيبور أن اليمنيين يطلقون أسماء أخرى على بعض مدنهم، إلى جانب أسمائها الأصلية، مأخوذة من موقع المدينة أو من النشاط البارز الذي يمارسه سكانها. فصنعاء تسمى المدينة، وتعز البستان، وذمار الحصان (لاشتهارها بتربية الخيول)، وزبيد المدرسة، وكوكبان الحصن، انظر: Niebuhr, C., BVA, 257.

(***) أشار نيبور إلى أن الجغرافيين العرب ربما قد خلطوا بين شبام كوكبان وشبام حضرموت، فالوصف الذي قدمه أبو الفداء، وكذا الإدريسي، لشبام حضرموت، يبدو قريبا من الوصف الذي سمعه، أي نيبور، عن شبام كوكبان. انظر Niebuhr, C. BVA S. 257.

بلاد القبل أو منطقة حاشد وبكيل

هي منطقة واسعة، تحدها الصحراء شمالاً (صحراء Amasia(*)) ومملكة الإمام وكوكبان جنوباً، والجوف شرقاً، وأبو عريش غرباً.

ويحكم هذه المنطقة مشايخ كثيرون، كل منهم مستقل بحكم منطقته، ولم تدخل منها ضمن مملكة الإمام سوى همدان وعمران وخمر. ولا يؤثر الوضع المجزأ على القدرة القتالية لحاشد وبكيل، فقد عقدت القبائل تحالفاً عسكرياً بينهم، يتضمن تشكيل قوة مقاتلة واحدة في أيام الحرب، يقودها قادة مختارون من كلا القبيلتين.

ويذكر نيبور أنه قد اعتمد، اعتماداً كبيراً، في معرفة أسماء حكام (مشايخ) هذه المنطقة، على ما كان قد استقاه من معلومات، من الهولندي، الذي عاش سنوات، متنقلاً فيها، وتعرف خلال ذلك على جميع مشايخها تقريباً[1]. نفس الأسماء التي سنوردها عند حديثنا عن جيش حاشد وبكيل[2].

ومن المناطق والمدن والقرى التي تضمها منطقة حاشد وبكيل:

- منطقة الغراس Charres: تقع شمال صنعاء، وفيها مدينة الغراس Charres(**)، التي كانت مقراً للإمام المهدي أحمد بن حسن، وبها قبره(***).

---

(1) Niebuhr C., BVA, S. 259

(2) انظر ص ١٢١ - ١٢٣ من هذا البحث.

(*) هكذا كتب اسمها نيبور ولعلها المنطقة الصحراوية المعروفة بالعمشية: انظر: الويسي، اليمن الكبرى، ص ٢٤

(**) هكذا كتب نيبور الاسمين، ولعله يقصد بالاسم الاول منطقة بني الحارث، التي تقع بها الغراس. وقد تشابهت عليه كثير من الأسماء لاعتماده في كتابتها على السمع. انظر: المقحفي، ص ١٣ - ١٤ من هذا البحث.

(***) تولى الإمامة عام ١٠٨٧ هـ/١٦٧٦ م بعد وفاة عمه الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم، وتوفي في حصن الغراس عام ١٠٩٢ هـ/١٦٨١ م انظر: الحراجي، المقتطف، ص ١٧٩ وما بعدها.

. مخلاف ذيفان Deifân: وفيها مدينة ذيفان، وقرية الحطبة El Hâttba.

. مخلاف بني علي.

. مخلاف بني حشيش.

. مخلاف بني السري.

. مخلاف بني جبر Beni Dsûbbâr: وفيها تقع مدينة ذي بين، وهي مدينة صغيرة غير مسورة، قبر فيها الإمام المهدي أحمد بن حسين(*)، الذي لقبه اليمنيون أبو طير[1].

. منطقة غولة ابن حسين Ghula ibn Hossein

. منطقة بني قيس: ومن قراها ضمد وصبيا Sabbia.

. مخلاف ذو محمد.

. منطقة سفيان: وفيها سوق الحرف وقرية بركان، وإلى هذه القرية يمكن السفر دون خوف، أما بعدها فلا يمكن السفر إلا في قوافل.

. منطقة بني عصيمات.

. منطقة وادعة: وفيها سوق وادعة.

- منطقة بني صريم: وهي منطقة كبيرة، حتى ليقال أنها تستطيع أن تحشد تسعة آلاف مقاتل. وأهم مدنها مدينة خمر، وهذه المدينة تتبع مملكة الإمام.

- قاع البون.

منطقة أبو عريش:

تقع هذه المنطقة في تهامة، وتمتد من حدود اللحية جنوباً، إلى الطوي

---

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 262.

(*) تولى الإمامة عام ٦٤٦ هـ/١٢٤٨ م واستمر فيها حتى وفاته عام ٦٥٥ هـ/١٢٥٧ م. انظر: الحرازي المقتطف، ص ١٣٣ - ١٣٤.

Attoie شمالاً، أي بين خطي العرض ١٥،٥٠ و ١٧،٤٠. وكانت إلى عهد قريب تتبع مملكة الإمام. ومن أهم مناطقها ومدنها وقراها:

- مدينة أبو عريش: وهي العاصمة وباسمها سميت المنطقة، وفيها مقر الشريف، حاكم أبوعريش، وتبعد عن جيزان بمسافة يوم واحد.
- مدينة جيزان: تقع على البحر الأحمر، وفيها ميناء(*).
- قرى حرض وبحيص وصبيا. وتشتهر صبيا بحميرها الجيدة(**).
- منطقة خبت البقر: وتسكنها عشائر فقيرة عرف عنها «أنها تحب أن تخفف عن المسافرين عبء ملابسهم»[1].

وتتبع أبوعريش بعض الجزر الصغيرة. وقد كانت علاقة شريف أبو عريش بالإمام علاقة سيئة. فقد أشار (نيبور) إلى أن الشريف لم يكن يقابل الأجانب مقابلة جيدة، وخاصة رعايا الإمام[2].

المنطقة الفاصلة بين أبو عريش والحجاز:

في المنطقة الواقعة بين حدود أبوعريش وحدود الحجاز، أي بين خطي العرض ١٧،٤٠ و ١٨،٣٠، تعيش عشائر بدوية تحكم من قبل مشايخها.

منطقة خولان:

ذكر نيبور أن الشريف الإدريسي قد حدد هذه المنطقة، بأنها تقع على بعد أربعة أيام من حلي، في منتصف الطريق بين مكة وصنعاء. وأنه، أي نيبور، لم يتلق معلومات عنها، أكثر من أنها تقع شرق صعدة، وأنها لا زالت

---

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 268.

(2) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 294

(*) ذكر نيبور أن سكان الساحل الإفريقي الشرقي يسمون شريف أبو عريش بشريف جيزان، تماماً مثلما يسمي الأوروبيون إمام اليمن إمام المخا وإمام عمان إمام مسقط، وذلك لأنهم لا يعرفون من هذه البلدان سوى موانئها المذكورة. انظر: Niebuhr, C., BVA, S. 268.

(**) لعل نيبور يشير بذلك إلى الحمير الصيابية، وهي حمير مشهورة في اليمن.

تسمى خولان. وتشتمل على مناطق وقرى، منها حيدان وسوق الجمعة وعقبة مسلم.

منطقة Sahan(*):

هي منطقة جبلية واسعة، تقع بين بلاد حاشد وبكيل وبين الحجاز. وأهم مدنها صعدة، وهي مقر السيد حسن بن يوسف بن حسين، من أنسال الإمام الهادي، ويسمي نفسه إماماً، ولكنه لا يحكم سوى رقعة صغيرة، بينما يحكم المشايخ معظم أجزائها. ومن أهم المناطق التابعة لها:

- منطقة أم ليلة وصحراء Amasia، وبركة سويدان، وكذاد.

إمارة نجران:

تبعد إمارة نجران عن صنعاء بمسافة ثلاثة أيام، وهي إمارة مستقلة يحكمها الشيخ المكرمي. وأهم مدنها مدينة نجران وهي العاصمة. وللوصول إليها من صنعاء يمر المسافر بالمناطق التالية: ذيفان وغولة وحوث وسوق الحرف و Neseif و Amasia وصعدة ويام و Minneschid.

إمارة قحطان:

لم يستطع نيبور أن يعرف عن إمارة قحطان، أكثر من أنها تقع على مسافة ثلاثة أيام من نجران، وأنه يحكمها شيخ مستقل، وأنها كذلك تشتهر بتربية الخيول.

منطقة الجوف:

تحدها إمارة نجران ومنطقة حاشد وبكيل وحضرموت وعمان. ومعظمها سهول رملية. وتنقسم إلى ثلاثة أقسام: بلاد البدو، وبلاد السلاطين، وبلاد الشريف. ومن أهم مناطقها ومدنها وقراها:

(***) ربما يقصد نيبور صحار، ويبدو أنه قد أخطأ في معرفة الاسم كما أخطأ في تحديد موقع هذه المنطقة.

ـ مدينة مأرب: وهي المدينة القديمة، التي كانت ذات يوم عاصمة السبئيين. وقد سماها اليونان مربية أو مريابة. ولا زالت تعتبر أهم مدن الجوف.

ـ مدينة حريب.

ـ منطقة بيحان.

ـ منطقة نصاب.

ـ منطقة مرخة.

ـ منطقة عبر.

ـ منطقة مراد.

منطقة نهم:

هي منطقة صغيرة يحكمها شيخها «الذي يقال عنه أنه رجل مقاتل شديد البأس»[1] مما يجعل الإمام حريصاً، باستمرار، على كسب صداقته.

منطقة خولان:

تقع هذه المنطقة على بعد أميال قليلة جنوب شرق صنعاء، وهي غير منطقة خولان السالفة الذكر. ويعمل شيخها في جيش الإمام برتبة نقيب، ولذا فإن معظم إقامته في صنعاء(*) ومن مناطق ومدن وقرى خولان:

- مدينة تنعم(**).
- منطقة بيت الكبسي Beit el Kibsi.
- بعض القرى، التي أصبحت تتبع مملكة الإمام، وكانت من قبل تتبع خولان، مثل زراجة وسيان.

---

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 280.

(*) يبدو أن معلومات نيبور عن خولان وامتدادها كانت ناقصة فهو يصورها منطقة صغيرة يحكمها شيخ واحد وظفه الإمام في جيشه.

(**) حاول نيبور أن يجد تشابهاً بين اسم تنعم واسم تمنة عاصمة القتبانيين.

منطقة يافع:

تحدها مناطق عدن والحجرية وقعطبة ورداع وحضرموت. وقد كانت تتبع مملكة الإمام ولكنها انفصلت منذ حوالي ثمانين عاماً(*). وهي مقسمة إلى ثلاث مناطق، كل منطقة منها يحكمها سلطان:

- السلطان البياض El Beiäd وعاصمته مدينة Medsjeibe، الواقعة إلى الجنوب من مدينة رداع.
- السلطان علي بن قحطان، وعاصمته مدينة الموسطة Mosâka، الواقعة إلى الجنوب من مدينة قعطبة.
- السلطان علي بن سيف، وعاصمته مدينة القارة، وتتبعه مدينة البيضاء.

وقد امتدت حدود يافع إلى بعض مناطق حضرموت، كمنطقة الشحر.

منطقة حضرموت:

أفرد نيبور لحضرموت فصلاً خاصاً في كتابه (وصف بلاد العرب) BVA. ومع ذلك فقد أكد أن حضرموت، كانت جزءاً من بلاد العربية السعيدة، وأخذ يتحدث عنها كجزء من اليمن، ولم يميز بينها وبين اليمن، باستثناء وضعها تحت عنوان منفصل، سواءً من الناحية التاريخية، أو الجغرافية، أو الاقتصادية، وقد أشار أيضاً إلى أن المهرة هي جزء من حضرموت.

وتنقسم حضرموت إلى قسمين رئيسيين: القسم الأول، هو بلاد البدو، الذين يعيشون في الخيام حياة البداوة، والقسم الثاني، هو بلاد القبائل، التي تعيش في المناطق الجبلية، وتحكم من قبل العديد من المشايخ والسلاطين، المستقل كل منهم عن الآخر. ويعتبر شيخ مدينة شبام واحداً من أقوى المشايخ. وقد ذكر نيبور أنه لم يسمع عن شبام من المعلومات، أكثر من أن المسافر

(*) بالنسبة إلى عام ١٧٦٣ م، وهو العام الذي زار فيه نيبور اليمن

يستغرق في سفره ثمانية أيام، من صنعاء إلى مأرب، ثم عشرة أيام، من مأرب إلى شبام. وتضم حضرموت إلى جانب شبام مدناً كثيرة منها:

- مدينة دوعن. وتبعد عن صنعاء بمسافة خمسة وعشرين يوماً. وشيخها اسمه سعيد بن عيسى العمودي.
- مدينة قيدون.
- مدينة ظفار: وهي مدينة مشهورة وميناء هام، ويحكمها شيخ مستقل.
- مدينة قشن: وهي ميناء أيضاً. وشيخها يحكم جزيرة سقطرة. وتبعية هذه الجزيرة لحضرموت قديمة جداً، فقد أشار إلى ذلك المؤرخ (أريانوس Arrianus)(*).
- موانيء لم يستطع نيبور أن يعرف عنها أكثر من أسمائها، مثل: ريفوت وفورتك.
- مدينة (عينات Ainàd): وقد ذكر نيبور أن أحد سكان حضرموت قد أخبره في مسقط أن مدينة عينات والمنطقة التابعة لها تحكم من قبل شيخ مستقل. ولكنه (أي نيبور) قد استنتج، من خلال إجابات الرجل نفسه، على أسئلة أخرى، وجهها إليه، أن هذه المدينة، والمنطقة التابعة لها تتبعان أحد سلاطين يافع. ويوجد في القرب من عينات قبر النبي هود. وتقام زيارة سنوية لهذا القبر، في شهر شعبان، يحضرها الناس من مختلف مناطق حضرموت. ويعتقد نيبور أنه «ربما يقام في هذا الوقت من السنة سوق كبير، إذ إن الحج إلى هذا القبر قد يكون بغرض البيع والشراء أكثر مما هو بغرض إحياء ذكرى، مرت عليها آلاف السنين»(١).

---

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 288.

(*) أريانوس هو مواطن من بيثينيا، وهي إقليم قديم في الشمال الغربي لآسيا الصغرى، وتعتبر الآن جزء من تركيا. عاش في القرن الثاني الميلادي، وله كتابات تاريخية أشهرها «تاريخ الإسكندر». انظر الموسوعة، ص١٢٦، ٤٥٧.

وأورد نيبور أسماء العديد من المدن، التي ذكر أنه غير متأكد من صحتها، ولا يعرف إن كانت تتبع حضرموت أم لا، وقد أوردها كما سمعها من الحضرمي المشار إليه آنفا، وترك للرحالة، الذين يمكن أن يأتوا بعده إلى اليمن، مهمة التأكد من صحتها، ومنها: تريم وسيئون.

وقد لاحظ نيبور أن هناك تشابها بين أسماء مدن يمنية، يعتقد أنها حميرية الأصل، وبين الأسماء، التي ذكرها موسى في التوراة، عندما تحدث عن بلاد يقطان، أو قحطان، الممتدة من مدينة Mesa(*) الواقعة على البحر الأحمر، في الشرق، إلى مدينة Dotat(*)، الواقعة على المحيط الهندي، في الغرب. وقد عبر نيبور عن اعتقاده أن Mesa هي موزع الحالية، وأن Dotat هي مدينة ظفار ((ومن هنا يبدو أن مملكة يقطان كانت تمتد من تهمة إلى المهرة))[1].

٤. الجيش:

إضافة إلى ما نعرفه عن استخدام الأئمة لرجال القبائل في العمليات الحربية، تحدث نيبور عن وجود جيش عامل لدى الإمام المهدي عباس كما تحدث عن وجود جيش قبلي يتبع اتحاد حاشد وبكيل.

أ. جيش الإمام:

لدى الإمام جيش عامل ولكنه ليس مقسماً إلى كتائب كما في أوروبا، لذا يصعب على الرحالة أن يحصل على معلومات وافية عنه. ويقدر البعض عدد أفراد المشاة في هذا الجيش، أيام السلم، بأربعة آلاف جندي، الجزء الأكبر منهم من حاشد وبكيل، وعدد الفرسان بألف فارس. ويتولى القيادة عدد من المشايخ والسادة. منهم:

---

(1) Niebuhr (... RS ... S. 211)

(*) انظر: هامش ص ٩٣، من هذا البحث

١ ـ الشيخ صالح بن خليل، شيخ همدان. وهو كما يلقبه نيبور الجنرال الأول في الجيش. وفي موضع آخر يوضح نيبور أن الجنرال يسمى في اليمن نقيب. ويذكر نيبور أن الشيخ صالح هو أحد رعايا الإمام، لتمييزه عن بعض المشايخ، الذين ينتمون إلى مناطق لا تخضع لحكم الإمام.

٢ ـ الشيخ حميد الوادعي، وهو أحد مشايخ وادعة، أي من منطقة حاشد وبكيل، فهو إذن ـ كما يقول نيبور ـ «غريب»[1]، أي ليس من رعايا الإمام.

٣ ـ الشيخ أحمد بن حبيش Hobeisch، وهو من سفيان «فهو أيضاً أجنبي»[2]، حسب تعبير نيبور.

٤ ـ الشيخ راجح الخولاني، شيخ وحاكم خولان، وهو أيضاً ليس من رعايا الإمام.

ويتولى قيادة الفرسان النقيب خير الله، الذي كان عبداً من عبيد الإمام ثم أعتق. وهناك أفراد آخرون كانوا من قبل عبيداً ثم أصبحوا نقباء في الجيش. منهم: النقيب سالم، والنقيب ريحان، والنقيب يعقوب.

ويسمى كل قادة الجيش نقباء، فليس هناك لقب عسكري أعلا من هذا اللقب. وتلي رتبة النقيب رتبة البيرقدار، أي حامل العلم، ثم رتبة الشاووش، وهو الذي يتولى عملية التدريب. وهناك أيضاً «الصراف». الذي يتولى تزويد الجنود بالبنادق والرصاص والبارود[3]. ويذكر نيبور أنه لم يسمع عن رتب عسكرية أخرى في جيش الإمام.

ويبدو من حديث نيبور كما لو أن الجندي في سلاح الفرسان ليس له عمل عسكري في أيام السلم إلا امتطاء صهوة حصانة، الذي يحضره له السائس

---

(1) Niebuhr, C. BVA. S. 211.
(2) Niebuhr, C., BVA. S. 211.
(3) Niebuhr, C., BVA. S. 211.

من اسطبل الدولة، ومرافقة الإمام أو العامل إلى المسجد في أيام الجمع والأعياد[1].

وما عدا ذلك فإنه يمارس أعمالاً مدنية عادية، فيذهب للعمل في الحقل مثلاً. وليس له لباس رسمي موحد، بل يرتدي ما يتوفر لديه من ملابس[2]. ولكن الجنود بشكل عام يكلفون بمهام الحراسة لدى الحكام أو في القلاع والأبراج[3].

وقد لفت نظر نيبور سلوك الجنود، وهم يرافقون الحكام إلى المسجد، إذ كانوا يسيرون صفوفاً متتالية، كل صف يتكون من ستة إلى سبعة جنود، يرفع كل منهم جنبيته أو بندقيته عالياً، وينشدون معاً، ويثبون وثبات ذات اليمين وذات الشمال بصورة «تجعل المرء يعتقد أنهم إما مهووسون أو سكارى، ولكن ربما أن هذه الأناشيد والحركات عادة قديمة، الهدف منها إثارة الحماس في نفوس المقاتلين»[4]. وعندما يوصلون الحاكم إلى داره، يطلقون أمام الدار عيارات نارية، إلى الهواء، بصورة عشوائية.

ب. جيش حاشد وبكيل:

تحدث نيبور عن حاشد وبكيل تحت اسم (اتحاد حاشد وبكيل). وكانت منطقة حاشد وبكيل منطقة مستقلة عن مملكة الإمام يحكمها مشايخ عديدون ولا تخضع منها لسلطة الإمام سوى همدان وعمران. ولأن حاشد وبكيل كانت لا تستطيع أن تقف في وجه الإمام وهي مجزأة، فقد اتفق مشايخها على أن يتحدوا في حربهم ويكونوا جيشاً واحداً لهم. واختاروا عدداً منهم ليتولوا قيادة عملياتهم العسكرية، ولقب كل من هؤلاء القادة العسكريين بلقب نقيب.

---

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 211

(2) Naebuhr, CS., BVA, S. 212-213

(3) Niebuhr, C., BVA, S. 213

(4) Niebuhr, C., BVA, S. 214

ولما كان نيبور غير قادر على الحصول على معلومات مباشرة عن هذا الجانب العسكري، فقد اعتمد على رواية الرجل الهولندي، الذي كان قد عاش سنوات منفلاً في منطقة حاشد وبكيل، وأورد بعض أسماء قادة جيش حاشد وبكيل ومنهم[1]:

١ـ النقيب قاسم بن علي الأحمر(*). من منطقة بني عصيمات.
٢ـ النقيب ناجي بن ناصر بن غيلان. من منطقة برط.
٣ـ القاضي حسن. من منطقة برط.
٤ـ النقيب حسن المراني. من جنوب منطقة برط.
٥ـ النقيب أحمد بن صالح بن حبيش. من منطقة سفيان.
٦ـ النقيب هادي بن علي بن حبيش. من منطقة سفيان.
٧ـ النقيب صالح بن ناصر. من منطقة بني خيار.
٨ـ النقيب أحمد بن قاسم. من منطقة وادعة.

ويشتهر رجال حاشد وبكيل بأنهم مقاتلون شجعان. ويعمل كثير منهم ضمن قوات الإمام، وكذا ضمن قوات شريف مكة[2]. ويخشى الإمام منهم كثيراً، إذا هوجمت منطقته من قبل مشايخ حاشد وبكيل، إذ سرعان ما يعلن جنوده، المنتمون إلى حاشد وبكيل، تمردهم وانضمامهم إلى قبائلهم.

ويعمد بعض اليمنيين، لإظهار شجاعتهم في الحرب، إلى ثني أحدى الساقين وربطها إلى الفخذ، ثم يستمرون، وهم في هذا الوضع، في إطلاق النار على العدو حتى ينسحب أو يقتلون[3]. وقد سمع نيبور عن هذا السلوك

---

(١) انظر: Niebuhr, C., BVA, S. 285.
(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 259.
(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 214 - 215.
(*) كان أخوه النقيب أحمد قائداً بارزاً في جيش الإمام المهدي عباس، ثم اعدمه الإمام: انظر: Niebuhr, C., BVA, S. 197 FF. وكذا: ص ٢٤٣ وما بعدها من هذا البحث.

عندما كان لا يزال في مدينة اللحية، وظن ذلك نوعاً من المبالغات. لكنه سمع عن ذلك بصورة متكررة أثناء رحلته. وقد أشار إلى أن هذا السلوك قد حدث في حروب قريبة العهد، كالحرب التي شنها جنود الإمام على تهامة قبل سنوات قليلة، وكالحرب التي نشبت بين الشيخ المكرمي، حاكم نجران، وبين شريف أبو عريش[1].

جـ. التسليح:

يستنتج المرء، من كتابات نيبور، أن الشعب اليمني شعب مسالم، وغير خطر، وأنه مع ذلك شعب مسلح بشكل عام. ويقدم لنا صورة عن السلاح الفردي للمواطن اليمني في تهامة، من خلال حديثه عن سلاح مرافقه، الذي كان يرافقه أثناء تجواله في تهامة. فقد كان متسلحاً، إضافة إلى الجنبية، بالسيف والترس. أما الأفراد، الذين لا يستطيعون أن يمتلكوا سيفاً، فإنهم يحملون عادة رمحاً صغيراً أو فأساً. كما يتسلح البعض بالمسدس والبندقية ذات الفتيل[2]. وهذا السلاح هو نفسه موجود في الجوف. ويضاف إليه بالنسبة للمواطن في الجوف ملابس خاصة بالحرب، وهي عبارة عن قميص أو صدرية، مصنوعة من أسلاك الحديد الدقيقة، وخوذة مع رداء، مصنوع من أسلاك الحديد أيضاً، إذا زررت غطت الوجه تماماً، ما عدا العينين[3]. ورغم أن نيبور لم يذهب إلى الجوف، فقد قدم وصفاً لهذه الملابس، من خلال رؤيته لها مع رجل، كان قادماً من الجوف. وذكر أن جنود الإمام لا يستعملون هذه الملابس.

ولا يختلف تسليح الجيش عن تسليح المواطن العادي، اختلافاً كبيراً، فسلاح الجندي الفارس يتكون من رمح، يحمله عادة السائس، ومن سيف

---

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 214 - 215
(2) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 322
(3) Niebuhr, C., BVA, S. 276

وترس وحربة، وبعض الجنود لديهم مسدسات(١). أما الجندي العادي، أي جندي المشاة، فيتكون سلاحه من السيف والترس والرمح، ويحمل سلاحه هذا أثناء السفر، وحتى عند ذهابه للعمل في الحقل.

وعند حديث نيبور عن الجندي في الحرب، يذكر أن الجندي يحمل بندقية(٢). كما أشار أيضاً إلى أن اليمنيين قد بدؤوا، منذ سنوات، يصنعون البنادق، إلا أنها لا زالت رديئة النوعية(٣). ولم يشاهد نيبور لدى المواطنين أو الجنود وجوداً للقوس أو المقلاع(٤). ونستخلص من ذلك كله أن تسليح الجيش كان يتكون من السيوف والرماح والتروس والمسدسات والبنادق. أما المدافع فلم تكن آلة حرب أساسية، إذ أن الجيش لا يصطحبها معه(٥). ويكتفي الجنود، وهم متجهون إلى المعارك، بحمل البندقية، التي لا تثقل كواهلهم كثيراً. وما عدا ذلك فإن الجندي يسير بملابس غاية في البساطة، إلى درجة يبدو معها كما لو كان عارياً. أما المواد الغذائية والمستلزمات الضرورية، فتحمل على ظهور الجمال(٦).

فآلة الحرب الأساسية إذن هي البندقية، إضافة إلى الأدوات التقليدية السابقة كالسيف والرمح... إلخ. ولكن هذا لا يعني عدم وجود المدافع في اليمن، فقد تحدث نيبور عنها مراراً، حيث صادفها في بعض بوابات المدن وفي القلاع، وهي قليلة على أي حال، وتستعمل عادة في الأعياد والمناسبات، حيث يتم تشغيلها من قبل أفراد من جنسيات مختلفة: أتراك وهنود وأوروبيون(٧). وقد قدم نيبور وصفاً لحظيرة المدافع، أو جربة المدافع،

---

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 212.
(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 273
(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 217
(٤) Niebuhr, C., 214.
(٥) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 318, 382 - 383
(٦) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 273.
(٧) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 215. U. RB, Bd. 1, S. 387

كما سماها، وهي موجودة داخل قلعة صنعاء، حيث قال: «وهنا رأيت شيئاً، في الحقيقة غير متوقع، وهو مدفع ألماني قديم مصنوع من معدن الميتال، مكتوب عليه 1513 .Iorg. Selos. Gos. Mich. وعليه أيضاً بضعة أسطر بالخط المسمى خط الرهبان، ولكنها قد انطمست مع مرور الزمن. كما رأيت ستة إلى سبعة مدافع مصنوعة من الحديد وقد ترك معظمها مرمي على الرمال، وما تبقى منها كان موضوعاً فوق قواعد محطمة»[1]. وإلى جانب هذه المدافع كان يوجد مدفعان على كل بوابة من أبواب صنعاء، الرئيسية الثلاثة: باب اليمن وباب شعوب وباب السبح، تستخدم في الأعياد والمناسبات. ويصف نيبور هذه المدافع التي رآها في صنعاء بقوله: «وهذه جميعها مدافع رديئة، وهي كل ما يمكن أن يجده المرء في عاصمة مملكة الإمام»[2]. أما السلاح البحري فلم يكن له وجود، إذ إن الإمام لم يكن يخشى شيئاً من جهة البحر، ولم يسمع نيبور عن وجود قراصنة في سواحل الجزيرة العربية، لهذا لم يكن هناك ما يدفع الإمام إلى امتلاك سفن حربية[3].

وقبل أن نختتم حديثنا عن التسليح، نود أن نشير في هذا السياق، إلى أن نيبور قد ذكر، أن اليهود والهنود، لم يكن يسمح لهم بحمل السلاح، في حين كان يسمح بذلك للأوروبيين[4]، ويمكننا أن نفترض أن ذلك يرجع إلى أن اليهود والهنود كانوا يعاملون كمواطنين ذميين، لا علاقة لهم بالحرب والقتال. أما الأوروبيون فلم يكونوا مواطنين، بل كانوا يأتون كزوار عابرين، إما كرحالة أو كتجار، لا يلبثون أن يغادروا البلاد.

د- النظام الدفاعي:

يمكننا أن نستخلص من مشاهدات نيبور، أن النظام الدفاعي في اليمن

(1) Niebuhr, C. RB, Bd. I, S. 421.
(2) Niebuhr, C. RB, Bd. I, S. 421.
(3) Niebuhr, C., BVA, S. 215
(4) Niebuhr, C., BVA, S. 67

كان يتكون من القلاع والحصون وأسوار المدن. ولم تكن الخنادق جزءاً من هذا النظام، فلم يذكر نيبور سوى خندق صغير شاهده في مدينة اللحية.

وتقدم لنا بعض عباراته، التي ترد ضمن سياق وصفه للمدن، فكرة واضحة إلى حد ما عن النظام الدفاعي حول المدن.

ففي اللحية شهد حول المدينة اثني عشر برجاً «تشبه أبراج المراصد في ألمانيا، إلى حد كبير»[1]، يقف الحراس في أعلاها. ولها أبواب عالية، لا يمكن الوصول إليها إلا باستخدام السلم المتحرك. ومعظم هذه الأبراج تصلح للدفاع ضد البنادق فقط. وهي غير مزودة بمدافع، باستثناء برجين منها. وأمام شيء من أبراجها حفر خندق صغير لا أهمية له. وهذا النظام الدفاعي حول مدينة اللحية، بعامة - في رأي نيبور - ضعيف إلى درجة أن مقاتلي حاشد وبكيل قد تمكنوا، قبل سنوات، من إقتحامه بسهولة[2].

وفي حديثه عن مدينة المخا، ذكر أن المدينة محاطة بسور. وأن هناك بعض الأبراج «التي تسمى هنا قلاعاً»[3]، منتشرة بين المدينة وبين بير البليلي، الواقعة على طريق قرية موزع. وهناك قلعتان على جانبي الميناء، زودتا بمدافع. وتسمى إحداهما - وهي أكبرهما - (قلعة طيار)، نسبة إلى الولي المقبور بجانبها. أما الأخرى فتسمى قلعة عبد الرب، وعبد الرب هذا هو ابن الشيخ الشاذلي، ويوجد قبره داخل القلعة[4].

وفي مدينة تعز شاهد نيبور حصن القاهرة، الواقع على مرتفع صخري شديد الانحدار، يبلغ ارتفاعه، كما قدره بالعين المجردة، حوالي ٤٠٠ قدم. ويحيط بالحصن سور مبني في بعض أجزائه من جدارين. وتشكل مدينة تعز

(1) Niebuhr, C., RB, Bd., 1. S. 306

(2) Niebuhr, RB, Bd.1, S. 306 - 307.

(3) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 438.

(4) Niebuhr, C. RB, Bd.1, S. 438.

حصن القاهرة امتداداً دفاعياً واحداً، حيث يصل سور المدينة إلى حافة الحصن. وفي سور تعز عدد من الأبراج، زود برجان منها فقط بالمدفعية، وهما يطلان على بابي المدينة الرئيسيين: باب الشيخ موسى والباب الكبير. ولا توجد مدافع في تعز إلا في هذين البرجين وفي حصن القاهرة[1].

اما صنعاء، العاصمة، فهي محاطة بسور وأبراج. وقد جهزت ثلاثة أبواب من أبوابها بالمدفعية ـ كما أسلفنا ـ ويفترض أن تلعب قلعة صنعاء دوراً دفاعياً، وإن كان وصف نيبور لسلاح المدفعية فيها، يجعلنا نشك في القدرة الدفاعية لهذه القلعة. وقد ساور نيبور الشك نفسه في فعالية هذا النظام الدفاعي في اليمن بمجمله، وهو يشاهد الأبراج والقلاع، التي قال عنها: «إنها تعتبر قوية في هذا البلد، حيث لا يصطحب الجيش مدافع معه، وإلا فإنها في الواقع لا قيمة لها»[2].

هـ. التدريب:

لا نستطيع أن نتحدث عن نوعية التدريب العسكري، فلم يكن هناك، كما يبدو، شكلاً من أشكال التدريب الحقيقي، رغم بعض الإشارات من نيبور، في سياق حديثه عن الرتب العسكرية حيث ذكر أن (الشاووش) يباشر اعمال التدريب. إلا أن نيبور نفسه، يترك لدينا، وهو يصف عمليات التدريب، انطباعاً بعدم وجود تدريب عسكري حقيقي، إذ يقول: «عندما يرجع الجنود ـ الفرسان من المسجد ويصلون إلى ساحة كبيرة، يجدها المرء في كل المدن تقريباً، وهي تقع عادة أمام منزل العامل، يمسك بعضهم برماحهم عالياً ويعدون بأحصنتهم، بعضهم وراء بعض. ويمثل هذا كل تدريباتهم العسكرية»[3].

---

(1) Niebuhr, CS . RB. Bd. I, S. 378.

(2) Niebuhr, C. RB. Bd. I, S. 318.

(3) Niebuhr, C., BVA, S. 212.

وقد شاهد نيبور هذه التدريبات مراراً، ولكن أفضل ما رآه كان في مدينة اللحية حيث كان ضمن المشتركين في التدريب عامل اللحية، الأمير فرحان وقاضي اللحية وبعض المشايخ(1).

و. المرتبات:

كل جندي يتقاضى مرتباً شهرياً، مقداره ريالين ونصف(2). وقد اعتذر الإمام المهدي عباس للبعثة الدنماركية، عند وصولها صنعاء، بأنه لن يستطيع مقابلتها خلال الأيام التالية، لانشغاله بدفع مرتبات الجنود، من قبائل حاشد وبكيل(3).

أما في المدن الأخرى، حيث يوجد عمال، فإن مرتبات الجنود تصرف من دخل المناطق التي يحكمونها، كل في منطقته(4).

٥. القضاء:

كانت تجربة نيبور مع القضاة في اليمن تجربة إيجابية، لذا فقد تحدث عنهم بنبرة إعجاب واضحة، ففي المخا، وبعد أن كانت البعثة قد وصلت إلى حالة من الإرهاق واليأس، بسبب ما تعرضت له من معاملة قاسية، في جمرك الميناء. وطردت من المنزل الذي كانت قد استأجرته، ولم يتجرأ أحد من الأهالي أن يؤجرهم منزله، تدخل القاضي لمساعدتها. ولنقرأ كلمات نيبور عن تجربته الأولى هذه مع القضاة: «إن معظم القضاة في تركيا، في نظر الناس، نهابون. أما القضاة اليمنيون فقد سمعنا عنهم أشياء كثيرة. وكان قاضي المخا إلى جانب ذلك حسن الحديث. وقد جئنا بصاحب المنزل إليه، وتحدث معه، وأكد له أنه يستطيع أن يؤجر لنا منزله دون أن يخشى شيئاً»(5).

---

(1) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 387 u. BVA, S. 212

(2) Niebuhr, C., BVA, S. 213.

(3) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 412.

(4) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 210

(5) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 365.

كما تحدث نيبور بإعجاب عن قاضي تعز، الذي كان «طيباً ورجلاً شجاعاً»[1]، وكيف تدخل لمساعدة البعثة، وإيقاف محاولة الإبتزاز التي مارسها العامل تجاهها. فقد كان سلوك العامل غريباً، فمرة يوافق على سفر البعثة إلى صنعاء، بناءً على أوامر الإمام، ومرة يرجع عن موافقته، ويرفض السماح لها بالسفر. كل ذلك في محاولة للضغط عليها، وإجبارها على تقديم بعض الهدايا أو النقود له. وهنا يلمح أحد المواطنين للبعثة، إلى ان القاضي يستطيع ان يساعدها. فتتجه البعثة إليه، وتطلب منه مساعدتها. فيتدخل فعلاً، ويطلب من العامل، ان ينفذ أوامرالإمام بالسماح للبعثة أن تغادر تعز إلى صنعاء، وان لا يكون طماعاً. ويكرر نيبور هنا أيضاً تأكيده، بأنهم (أي أعضاء البعثة) قد سمعوا «أشياء طيبة كثيرة» عن القضاة اليمنيين[2]. ويواصل القاضي الوقوف إلى جانبهم، فيزودهم بمرافق أمين، بناء على طلبهم، أصبح موضع ثقتهم، وظل معهم حتى عادوا إلى المخا[3]. وعند مغادرة البعثة مدينة تعز، حملها القاضي رسالة إلى وزير الإمام، الفقيه أحمد النهمي، قال نيبور أنها قد «تضمنت فيما تضمنته: لا تصدق إذا أخبرك أحد بأشياء سيئة عن هؤلاء الفرنج»[4]. ويختتم نيبور حديثه عن تجربة البعثة مع قاضي تعز بالعبارات التالية: «لقد أعجبنا إعجاباً كبيراً بعدالة القضاة المسلمين وتعاونهم، وكنا قد قررنا أن نهدي له ساعة، كما أهدينا صديقنا الأمير فرحان في اللحية. ولكن حتى الخادم، الذي كلفه القاضي بمرافقتنا، أكد لنا أن القاضي لن يقبل منا الهدية، وذلك حتى لا يبدو وكأنه لم يكن عادلاً في تعامله معنا، إلا لمصلحته الشخصية. بل وأكد أيضاً أن القاضي سوف يأخذ الأمر بمأخذ سيء، إذا نحن قدمنا هدية له. وهنا لم يبق لنا ما نقدمه لذلك الرجل الطيب إلا عبارات الشكر والامتنان. أما أنا،

---

(1) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 385.

(2) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 391.

(3) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 392.

(4) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 393.

على وجه الخصوص، وباعتباري الشخص الوحيد الذي قدر له أن يعود حياً إلى أوروبا، فإني أجد نفسي ملزماً أدبياً، أن أتخذ منه مثلاً، للتدليل على أنه ليس كل القضاة العرب مستغلين بالصورة نفسها المعروفة عن القضاة الأتراك المستغلين، وهي صورة قد لا تكون بعيدة عن الحقيقة»[1]. وإلى جانب ما نقله نيبور عن تجربته المباشرة مع القضاة، تحدث عن جانب من نظام القضاء في اليمن. فهناك قاض في كل مركز من مراكز المناطق الإدارية، وربما أن هؤلاء القضاة يتبعون المحكمة العليا في صنعاء، كما هو الحال في تركيا، حيث يعمل جميع القضاة تحت إشراف المفتي في القسطنطينية. والقضاة في اليمن، كما في تركيا، يحكمون في المسائل الدينية والدنيوية، ولا يملك العامل نقض أحكامهم، تماماً كما لا يملك الباشا في تركيا أن ينقض حكم القاضي. ويحتفظ القاضي في اليمن، عادة، بوظيفته طوال حياته. أما في تركيا فكثيراً ما يعزل القضاة من وظائفهم[2].

وإلى جانب القضاة الذين يمارسون أعمالهم في مراكز المناطق الإدارية، كاللحية وبيت الفقيه وتعز ويريم. إلخ. . ، هناك محكمة عليا في صنعاء(*)، مشكلة من سبعة قضاة، ويرأسها السيد يحيى بن محمد، وأبرز أعضائها: القاضي محمد ملحان Mohammed Melhân ، والقاضي عبد الله، والقاضي محمد حطبة Mohammed Hattaba[3]. ويتبع رعايا الإمام السنيون من الناحية القضائية مفتي زبيد، وهذا يتبع المحكمة العليا في صنعاء، التي تعمل تحت سلطة الإمام مباشرة. ولا يحق للإمام أن يصدر حكماً بإعدام أحد، فأحكام

---

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 393.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 208.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 205.

(*) استقى نيبور المعلومات المذكورة عن المحكمة من عالم هندي قابله في الهند، كان قد أمضى سنوات في أكاديمية زبيد. وكان نيبور أثناء وجوده في اليمن قد سمع أن المحكمة العليا تضم أكثر من عشرين قاضياً برأسهم الإمام. انظر:

Niebuhr, C., BVA, S. 205 - 206.

الإعدام تصدرها المحكمة العليا. ومع ذلك فإن الإمام - إذا كان مستبداً - لا تعوزه الحيلة في تنفيذ إرادته. فليس هناك إلا قلة من القضاة يمتلكون الجرأة في الوقوف ضد مشيئة الإمام. لهذا فإن الإمام يستطيع أن يمرر الحكم القضائي الذي يريده، إذا ضمن الشخصيات الرئيسية من القضاة، وخاصة أن من صلاحياته تغيير القضاة وموظفيهم، مما يجعلهم في موقف ضعيف ويجبرهم على النطق بالأحكام التي يطلبها منهم[1].

٦. الفساد الإداري:

لم يتحدث نيبور عن الفساد الإداري. ولا شك أن ظاهرة الفساد الإداري تبدو أكثر وضوحاً، كلما أصبح الجهاز الإداري أكثر تعقيداً، وزاد تعامل المواطنين معه، وهو أمر لم يكن متحققاً عند زيارة نيبور لليمن؛ فقد كانت البلاد تدار بواسطة الإمام وممثليه، بأسلوب بسيط ومباشر. ومع ذلك فهناك بعض الإشارات، التي وردت في سياق يومياته، تجعلنا نتلمس صوراً من الفساد الإداري، يتمثل في سلوك حكام المناطق وبعض الموظفين:

ففي المخا يقف العامل من البعثة موقفاً غير ودي. ولا يغير من موقفه إلا بعد أن تنفحه البعثة مبلغاً من المال قدره (٥٠ دوكاتن)(*)، على سبيل الهدية[2].

وعندما حل عيد الأضحى، أثناء إقامة البعثة في تعز، لاحظ نيبور أن المواطنين يقدمون للعامل ولأعيان آخرين في المدينة «أعداداً كبيرة من الأغنام وهدايا أخرى»[3] بمناسبة العيد. ومثل هذه الهدايا، التي يقدمها المواطن

---

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 206.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 366 - 367.

(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 386.

(*) عملة ذهبية كانت تأتي من البندقية. وكان الدوكاتن الواحد يساوي ١٦ ريالاً. انظر: ص ١٧٤ وما بعدها من هذا البحث.

للحاكم، لا يمكن أن تكون تعبيراً عن الحب والولاء، وإنما بالأحرى تكمن وراءها أسباب أخرى، ليست بعيدة عن مفهوم الفساد الإداري. وقد لاحظ نيبور أيضاً، أثناء وجوده في تعز، أن عملية تأجير الحمّان للمسافرين عملية منظمة يقف على رأسها العامل نفسه[1]. كما أن نيبور قد أشار إلى مناورات حاكم تعز، ومحاولته عرقلة سفر البعثة إلى صنعاء، كنوع من الضغط للحصول على مزيد من الهدايا[*].

ويقدم نيبور صورة أخرى من سلوك العمال، عند حديثه عن موت رفيق رحلته، فورسكال، في مدينة يريم. فبعد موت فورسكال طلب العامل واحداً من أعضاء البعثة ليتحدث إليه. وذهب إليه نيبور ودار بينهما حوار سجل مضمونه في يومياته على النحو التالي: «قال لي إنه دائماً إذا مامات أحد المسافرين، من اليهود أو البينيان، في منطقته، فإنه، بصفته عامل المنطقة، يكون وريث المتوفي. وقد أجبته بأن الميت ليس يهودياً ولا بينياناً، بل أوروبياً، وأن العامل في المخا لم يطلب أن يرث عضو البعثة، الذي توفي هناك. وهنا بادر ابن العامل لشرح وجهة نظر أبيه: إن والده يتوقع أن يحصل على هدية قيمة، ليس إلا. وعندما قلت له أن الأوروبيين لا يدفعون أي شيء، دون أن يحصوا وصل استلام بذلك. وأن عليه أن يحدد لنا خطياً، ما يطلبه منا مقابل موت أحد رفاق الرحلة في منطقته، توقف عن طلب أي شيء. فقد كان يعلم أننا متجهون إلى صنعاء وخشي أن نشكوه إلى وزير الإمام»[2].

ويتحدث نيبور عن سلوك سكرتير وزير الإمام، فيذكر أنه (أي السكرتير) كان يعرف أن الإمام قد تكفل بدفع أجرة الجمال والحمير، التي ستنقل البعثة من صنعاء إلى المخا. ومع ذلك فقد أوهم أعضاء البعثة، بأن

---

(1) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 390.

(2) Niebuhr, CS., RB, Bd. 1, S. 404 - 405

(*) كانت البعثة قد قدمت له هدية عند وصولها إلى مدينة تعز. انظر: Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 390 FF.

منهم أن يدفعوا أجرة الحمير، أما أجرة الجمال فسوف يدفعها الإمام. وهكذا استحوذ على مبلغ من المال بهذه الحيلة، كما استحوذ على جزء من الهدايا، التي قدمها الإمام للبعثة، عندما كلف بإيصالها إلى البعثة، ولكنه لم يسلم البعثة إلا جزءاً منها[1].

٧. علاقة الإمام بالمشايخ:

يبدو من خلال بعض الملاحظات العابرة، التي سجلها نيبور، أن علاقة المشايخ بسلطة الإمام قد تباينت من شيخ إلى آخر، ومن منطقة إلى أخرى. فمشايخ المناطق المستقلة لم يكونوا ملزمين بدفع أي ضرائب للإمام، بل على العكس من ذلك، فقد كان الإمام يقدم لهم العطايا حرصاً منه على إقامة علاقات سلام معهم[2]، وللإستعانة بهم في حروبه. وكان منهم من يعمل في جيشه[3]. وقد أورد نيبور مثالاً لاستعانة الإمام بالمشايخ المستقلين في حروبه، فذكر أن حاشد وبكيل قد شنتا حرباً لحساب الإمام ضد شريف أبو عريش، في محاولة لإخضاعه لسلطة الإمام، إلا أنهما لم تكونا جادتين في تلك الحرب[4]. وعدا عن ذلك فقد كان مشايخ هذه المناطق يحكمون مناطقهم باستقلال كامل عن سلطة الإمام.

أما في المناطق التابعة لمملكة الإمام، فقد وظف الإمام بعض مشايخها في وظائف مختلفة. ويمكننا أن نكوّن، من خلال حديث نيبور عن عامل تعز، فكرة عن أنواع هذه الوظائف. فقبل تعيينه عاملاً على تعز، كان قد عمل نقيباً في جيش الإمام، ثم أميراً على باب الشاذلي، وهو أحد أبواب مدينة المخا، ثم

---

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 428 - 429.

(٢) قارن: Niebuhr, C., BVA, S. 280.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 259 - 260.

(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 267

أصبح بعد ذلك عاملاً على تعز[1]. كما عين الإمام بعض المشايخ نواباً للعمال في بعض المدن والمراكز الصغيرة. وقد أشار نيبور في سياق وصفه لرحلته، إلى العديد من هؤلاء النواب[2].

وهناك مناطق، استطاع الإمام إخضاع مشايخها بطرق سلمية، أو عن طريق الحرب، وظل مشايخها بعد ذلك يحكمونها، معترفين بسلطة الإمام، ويدفعون الضرائب المقررة عليهم للدولة. ومن خلال وصف نيبور لرحلته، نجد أمثلة لذلك، أبرزها:

- الشيخ ابن عقلان: كانت أسرته تتوارث حكم المنطقة التي أطلق عليها نيبور اسم بلاد (ابن عقلان)[3]. وقد استطاع الإمام أن يضم المنطقة إليه، بعد حرب طاحنة وظل الشيخ ابن عقلان بعد ذلك يحكم منطقته، ويدفع الضرائب المقررة. وقد وضع الامام بعض الجنود إضافة إلى موظف حكومي، في مدينة الدريبات، التي كانت مركز المنطقة ومقر شيخها. ولم يحدد نيبور طبيعة العلاقة بين جنود الإمام وموظفه، وبين الشيخ ابن عقلان، وفيما إذا كانوا قد عملوا تحت إمرة الشيخ مباشرة، أم أنهم كانوا يأتمرون بأمر قائد لهم، مستقل عن سلطة الشيخ. وهل كان ابن عقلان يحكم المنطقة كشيخ فحسب، أم أنه أصبح، إلى جانب ذلك، يتمتع بالصفة الرسمية كعامل للإمام. مثل هذه التساؤلات لم نجد لها إجابات لدى نيبور.

- شيخ العدين: لم يسجل لنا نيبور صورة دقيقة عن وضع العدين. ولكن في قوله «أعتقد أن الإمام لم يبعث عاملاً إلى هذه المنطقة، بل إن الحكم فيها بيد أسرة شيخ، يسكن في قصر، على جبل مرتفع خارج المدينة. ويبدو أن الشيخ الحاكم هنا يعترف بسلطة الإمام»[4]، ما يجعلنا نستنتج أن شيخ

---

(1) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 384.

(2) انظر مثلاً: Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 339, 356 - 357.

(3) انظر ص١٠٥ من هذا البحث.

(4) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 343.

العديين كان مستقلاً من الناحية الفعلية. بحكم منطقة العدين، مع اعترافه بسلطة الإمام. ولعل هذا الاعتراف كان يتم من خلال دفع ضرائب محددة.

وهناك إشارات في كتابات نيبور، تدل على وجود مشايخ ضمن المناطق الإدارية، التي يحكمها عمال الإمام، تتراوح علاقتهم بسلطة الإمام، بين الاستقلال الكامل عن سلطة الإمام، والاستقلال الفعلي بحكم مناطقهم مع دفع ضرائب للإمام. ففي جبل صبر مثلاً، وهو تابع لمنطقة تعز، ذكر نيبور أنه كان يوجد فيه أكثر من مئة شيخ، لا يرتبط منهم بالدولة إلا القليل. أما اكثرهم يحكمون مناطقهم بشكل مستقل ويورثون حكمها لأبنائهم. ولا يدفعون للإمام أي ضرائب[1].

وفي منطقة كسمة، يعيش كثير من المشايخ في قلاعهم، ويحكمون مناطقهم، دون أن يربطهم رابط بسلطة الإمام، باستثناء ما يدفعونه من ضرائب على محصول البن الذي يصدر من مناطقهم[2]. والوضع نفسه ينطبق على مناطق أخرى كمنطقة حراز[3] ومنطقة الجبي[4].

وقد قدم لنا نيبور من خلال حديثه عن الشيخ عبد الرب وصراعه مع الإمام صورة من صور تعامل الإمام مع المشايخ، سنقف عليها فيما بعد[5].

٨. علاقة الإمام بالأقليات السكانية:

أ. اليهود:

لاحظ نيبور أن اليهود يسكنون في قرى منفصلة، وأنهم يشكلون أهم الفئات الحرفية في اليمن. ورغم أن اليمنيين ينظرون إليهم نظرة احتقار، تماماً

---

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 241.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 246.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 250.

(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 248.

(٥) انظر ص ٢٤١ وما بعدها، من هذا البحث.

كما يطلق عليهم الأوروبيون في أوروبا[1]. إلا أن منهم تجاراً، لهم مكانتهم الكبيرة. كما أن لبعضهم علاقات قوية بالسلطة. فأحدهم، واسمه (العراقي Oraki)، كان قد حظي بثقة إمامين متعاقبين، وتقلد منصباً كبيراً في الدولة. فكان المشرف الأول على جميع الجمارك وعلى مباني ومزارع الإمام. وتعد هذه الوظيفة واحدة من أهم الوظائف في اليمن. ولكنه نكب قبل وصول البعثة إلى اليمن بعامين. فقد وضع في السجن وغرم خمسين ألف ريال، حسب ما سمعه نيبور من اليهود أنفسهم. ثم أفرج عنه الإمام قبل وصول البعثة إلى صنعاء بأسبوعين فقط، وأهداه الإمام خمس مئة ريال.

وذكر نيبور أن اليهود في صنعاء قد اضطهدوا، من قبل الإمام، في هذه الفترة، إذ أمر بهدم اثني عشر معبداً من معابدهم، ولم يترك لهم سوى معبدين. وكانت منازلهم جميلة، تضاهي منازل أغنياء المسلمين، فأمر بهدم ما زاد ارتفاعه منها عن طابق واحد[2].

ب. الهنود:

رغم أن الهنود لم يكونوا مواطنين يمنيين، بحيث يصح اعتبارهم أقلية سكانية، فقد كانوا مجرد مهاجرين، يأتون إلى اليمن ليعملوا، ويوفروا بعض المال، ثم يعودون إلى بلادهم. إلا أن بقاء معظمهم زمناً طويلاً في اليمن، وتعامل الدولة معهم، باعتبارهم جماعة متميزة ومستقرة نوعاً ما، يجعلنا أكثر ميلاً إلى تناولهم كأقلية سكانية، بدلاً من تناولهم كأجانب. وذلك لتمييزهم عن الأجانب، الذين يأتون إلى اليمن على سبيل الزيارة، أو لبيع بضائعهم، أو شراء سلع، من الموانئ والمدن اليمنية، ثم لا يلبثون أن يغادروا اليمن.

وقد أطلق نيبور على الهنود اسم البنيان، وهو الاسم الذي يطلقه

---

(1) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 361, 422 - 423.

(2) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 422 - 423.

نيبون، عادة، على الهنود غير المسلمين. وكانوا عند زيارة نيبور لليمن منتشرين في المدن اليمنية الرئيسية، وخاصة في المخا وبيت الفقيه وتعز وصنعاء. وكان كثير منهم يمارسون التجارة، كتجار أو كوكلاء لشركات وبيوت تجارية أجنبية. وقد ذكر نيبور أنه كان يوجد منهم في صنعاء وحدها، عند زيارته، مئة وخمسة وعشرون هندياً. وكانوا يدفعون للإمام مبلغ ثلاث مئة ريال شهرياً، في حين كان قاع اليهود بكامله، وهو القرية التي كانت تضم يهود صنعاء، يدفع مبلغ مئة وخمسة وعشرين ريالاً فقط. «وإذا توفي أحد الهنود في صنعاء، فإن ورثته يدفعون للإمام مبلغاً يتراوح بين عشرة إلى خمسين ريالاً. وإذا لم يكن للمتوفي وريثاً في اليمن فإن إرثه كله يؤول إلى الإمام»[1].

٩. تعامل الإمام مع الأجانب:

أشار نيبور في أكثر من موضع، إلى أن الأجانب، الذين يأتون إلى اليمن، هم من التجار. لذا فقد كان وضع البعثة، منذ وصلت إلى اللحية، موضع استغراب المواطنين هناك. فهي تتجول أو تنفق المال، دون أن تمارس البيع والشراء، وهذا أمر لم يعتد عليه المواطنون[2]. ويبدو أن التجار كانوا يمارسون نشاطهم، ضمن الموانىء، أو في مراكز تجميع البن، كبيت الفقيه، بصورة روتينية، لا يحتاجون معها إلا أن يتصلوا بسلطات الجمارك في المدن التهامية وبكبار التجار، وربما بالعامل أو القاضي، إذا نشبت إشكالات تتطلب تدخلهما. ومن خلال انطباعات نيبور عن معاملة اليمنيين للأجانب بشكل عام[3]، نستطيع أن نفترض، أن أمور هؤلاء التجار، في تعاملهم مع المواطنين، كانت تسير بصورة مرضية. كما أنهم كانوا يحظون بمعاملة متميزة، لدى سلطات

---

(١) Niebuhr, C.: RB. Bd. I. S. 423.

(٢) Niebuhr, C.: RB. Bd. I. S. 299, 303.

(٣) انظر ص ٧٤ ـ ٧٨ من هذا البحث.

الجمارك، إلى درجة أنهم كانوا يعاملون أفضل من المسلمين أنفسهم، كما يؤكد ذلك نيبور[1].

أما بالنسبة لتعامل الإمام وموظفيه مع الأجانب الزائرين لليمن، من غير التجار، فيمكننا أن نعتبر تجربة البعثة العلمية الدينماركية مثالاً لذلك:

لقد استقبلت البعثة من قبل السلطات المحلية، بدءًا باللحية وانتهاءً بذمار، باهتمام واضح. واعتبر وجودها حدثاً غير عادي. وإذا استثنينا العامل في بيت الفقيه، الذي لم يكترث كثيراً بالبعثة، ولم يولها اهتمامه، لا سلباً ولا إيجاباً، فإن السلطات المحلية، في جميع مراكز المناطق الإدارية، التي مرت بها البعثة، قد اهتمت بوجودها. فمن العمال من أكرمها إكراماً غير عادي، كعامل اللحية، ومنهم من حاول ابتزازها، كعامل المخا. وكان القضاة كما رأينا إلى جانب البعثة، طوال رحلتها، يمدون لها يد المساعدة، كلما احتاجت إليها.

ولكي يسمح للبعثة بالسفر إلى صنعاء كان لا بد من إذن شخصي من الإمام نفسه[2]. وبناءً على ورود هذا الإذن اتجهت البعثة إلى صنعاء، عاصمة مملكة الإمام. ومن خلال وصف نيبور لإقامة البعثة في صنعاء، وهي إقامة قصيرة، لم تتجاوز عشرة أيام(*)، نقف على صورة واضحة إلى حد كبير، لتعامل الإمام مع الأجانب[3]. فقد استقبلت البعثة في مشارف صنعاء وأسكنت في بيت للضيافة في حي بئر العزب ووفرت لها المواد الغذائية اللازمة (دقيق، رز، لحوم، سمن... إلخ) كما وفر لها الحطب[4]. ليس هذا فحسب، بل وأرسل الإمام لها مبلغاً من المال، يتكون من قطع نقدية صغيرة، لأنه لم يكن

---

(١) انظر ص ١٨٥ من هذا البحث.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 371.

(٣) انظر: Niebuhr, C., RB, BD. 1, S. 411 FF.

(٤) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 412.

(*) وصلت البعثة إلى صنعاء في ١٦ يوليو ١٧٦٣ م وغادرتها في ٢٦ من الشهر نفسه.

من المهل صرف القطع النقدية الكبيرة(1). وقد نبهت البعثة، إلى أنه يجب عليها أن لا تتصل بأحد، وأن لا تغادر مسكنها، قبل أن تمثل بين يدي الإمام. ولم تتمكن من مقابلة الإمام إلا بعد بضعة أيام، وذلك بسبب انشغاله، بصرف مرتبات الجنود، كما تقدم.

ولم يكن استقبال الإمام للبعثة استقبالاً عادياً. ولعل من الأفضل أن نترك نيبور نفسه، يصف لنا بعباراته حفل الاستقبال(*):

وفي صباح يوم ١٩ يوليو طلب منا أن نذهب لمقابلة الإمام. وقادنا سكرتير الفقيه أحمد إلى قصر الإمام، في بستان المتوكل. ولأننا لم نكن نتوقع أن يحضر مقابلتنا مع الإمام أكثر من بعض كبار موظفيه، فإن دهشتنا كانت كبيرة، عندما شاهدنا مظاهر حفل كبير. كانت ساحة القصر مكتظة بالخيول والخدم والمواطنين، إلى درجة أننا ما كنا سنتمكن من شق طريقنا بينهم إلا بصعوبة، لولا أن النقيب خير الله، الذي كان في السابق عبداً وأصبح الآن مديراً لاسطبلات الإمام(**)، قد جاء إلينا، وبيده عصى طويلة، وأفسح لنا الطريق.

كانت قاعة الاستقبال عبارة عن مبنى مربع كبير، في سقفه فتحة ذات شكل مقعر، وفي منتصفه بركة ماء، في وسطها نوافير تقذف بالماء إلى علو أربعة عشر قدماً تقريباً(***). وخلف البركة منصة تتصدر القاعة، علوها حوالي

---

(1) Niebuhr: CS. RB, Bd. I, S. 415 - 416.

(*) قارن: الرعدي، من كوبنهاجن، ص ٣١٠ ـ ٣١١. والعمري، مئة عام، ص ٢٩ ـ ٣٠. سيلاحظ القارىء اختلافات طفيفة بين هذه الفقرات المترجمة عن النص الألماني مباشرة، وهو النص الذي كتبه نيبور بلغته، وبين الفقرات التي ترجمت عن النص الإنجليزي. ومع ذلك فإن المضمون بشكل عام واحد.

(**) في مكان آخر ذكر نيبور أن النقيب خير الله كان قائداً لسلاح الفرسان. انظر ص ٨٤ من البحث.

(***) وضح نيبور طريقة عمل هذه النوافير في سياق وصفه لحديقة بيت الفقيه أحمد المهدي، ونفهم من توضيحه أن الماء يرفع من بئر بجانب البيت إلى العلو المطلوب بواسطة [illegible]، وينساب منحدراً في قناة تنتهي في أسفل الناعورة حيث يصعد في [illegible] الأعلى حتى يصل إلى فوهتها وينساب على جوانبها. انظر: Niebuhr: CS. RB, Bd. I, S. 417.

قدم ونصف، وعرضها حوالي أربعة إلى خمسة أقدام. وعلى هذه المنصة ـ في الخلف ـ منصة أخرى صغيرة، عليها عرش الإمام. كانت الصالة جميعها مغطاة بالمفارش الإيرانية. وأما العرش نفسه فلم أشاهد أكثر من منصة مربعة، مكسوة بقماش من الحرير، وعليها، في الخلف وفي الجانبين، وسائد كبيرة مغطاة بأكياس من القماش الذهبي. وكان الإمام يجلس على العرش، بين الوسائد، وساقاه مثنيتان، على الطريقة الشرقية. وكان مرتدياً قميصاً ذا لون أخضر فاتح، بأكمام طويلة واسعة، وعلى صدره في كلا الجهتين، اليمنى واليسرى، أنشوطة ذهبية كبيرة، كتلك التي يضعها الوجهاء الأتراك أحياناً على معاطفهم. وعلى رأسه عمامة بيضاء كبيرة. وكان يقف عن يمينه أبناؤه وعن يساره إخوته، وأمامه وزيره، الفقيه أحمد، ونحن نقف على المنصة الأولى، أي أدنى من الفقيه. وعلى امتداد القاعة، بدءاً من جانب أبناء الإمام وإخوته، وانتهاء بباب القاعة، وقف أعيان العرب متلاصقين في صفين مستقيمين. وقد أُخذنا إلى الإمام، لنقبل ظاهر وباطن كفه الأيمن وقماش ثوبه، عند الركبة. ويسمح الأمراء المسلمون، عادة بسهولة، بتقبيل ظاهر الكف وقماش الثوب، عند الركبة، أما تقبيل بطن الكف، فإنه يعتبر مظهراً من مظاهر العطف غير العادية، إذا سمح به للأجنبي. كان يسود القاعة صمت مطبق. ولكن ما أن يلامس أحدنا كف الإمام، حتى يهتف ترجماني ببعض الكلمات، التي تعني: الله يحفظ الإمام. إلخ. وما أن يتوقف ترجماني، حتى يردد نداءه كل الحاضرين في القاعة، بصوت واحد، بدا لي أنهم يهتفونه بكل ما لديهم من قوة. وبما أنني كنت أول المتقدمين إلى الإمام، وكنت مركزاً كل تفكيري في أن أنطق كلمات المجاملة باللغة العربية نطقاً سليماً قدر الإمكان، وفي ملاحظة مظاهر الأبهة التي لم يسبق لي أن شاهدتها في بلاد العرب، فإنني لا أنكر أنني قد أصبت بالذهول، عندما فوجئت بالصخب الهائل، وخاصة أنهم بدؤوا يصرخون في اللحظة التي لمست فيها كف الإمام. ولكني لم ألبث أن تمالكت نفسي. ولما تكرر الهتاف في كل مرة لامس فيها زملائي كف الإمام، أدركت أنه في هذه المراسم يحدث ما يشبه

ذلك الذي يحدث، عندما يهتف الطلاب، في الجامعات الألمانية بحياة شخص، ثلاث مرات متتالية.

ولأن لغة البلاط في صنعاء مختلفة عن اللهجة الدارجة في مناطق نجدان، ومختلفة أكثر عن لهجة تهامة. وكنا لا نفهم إلا لهجة تهامة، ونتحدثها مع ذلك بصورة رديئة، فقد تولى خادمنا، الذي قدم معنا من المخا، وكان قد تعود على نطقنا، تولى عملية الترجمة لنا، وتولى في الوقت نفسه الفقيه أحمد، الذي كان قد عاش فترة طويلة في تهامة، وتعود على لهجتها، عملية الترجمة للإمام. وعندما كان الفقيه يتحدث إلى الإمام فإنني بالكاد، كنت أفهم كلمة واحدة من كل أربع كلمات. وحتى الخادم، الذي ولد وعاش حياته في مملكة الإمام، أكد لي بانه نادراً ما كان يستطيع أن يفهم ما يقوله الإمام. ونظراً لوجود هذا الجمع، ولأننا لم نكن نتحدث إلا عبر مترجمين. فقد كان حوارنا مع الإمام قصيراً»[1].

وقد انتهت المقابلة بتقبيل يد الإمام وركبته، وبتعبير الإمام عن ترحيبه بالبعثة، وبأنها تستطيع أن تتجول وتقيم كما تشاء، بكل حرية وأمن. ويشير نيبور إلى أن السلطان في تركيا لا يستقبل أحداً، إلا بعد أن يكون هذا قد استقبل من قبل الوزير. أما في اليمن فيحدث العكس: الإمام أولاً ثم الوزير[2]. وهكذا بعد مقابلة الإمام «استدعانا الفقيه أحمد إلى منزله في بير العزب»[3]. وقد استقبلهم كما يؤكد نيبور، استقبالاً بشوشاً، وتحادث معهم، ووجه إليهم أسئلة، تدل على اهتماماته العلمية[4].

ولم يطل المقام بالبعثة في صنعاء، رغم كرم الإمام وحفاوته، ورغم أنها

(1) Niebuhr, C., RB. Bd. 1, S. 413 - 415

(2) Niebuhr, C., RB. Bd. 1, S. 416.

(3) Niebuhr, C. RB. Bd. 1, S. 416.

(4) Niebuhr, C., RB. Bd. 1, S. 416

كانت تحمل حربية، محملة بهدايا السلطة والأعيان. إلا أنها كانت تريد أن تلحق بالباخرة الإنجليزية، التي كان مقرراً أن تغادر المخا في أول شهر سبتمبر في نفس العام (١٧٦٣م). وقد سمعت البعثة أثناء إقامتها في صنعاء عن طبيعة الإمام وبعضه من خلال نيبور، وهو يتحدث عن أسباب الإسراع في مغادرة اليمن. بعض ما سمعته البعثة ضمن هذه أسباب(١).

وقد استأذنت البعثة الإمام بالسفر، وذهبت لوداعه، وتلقت منه هدايا، تتكون من ملابس، لكل واحد من أفرادها، إضافة إلى مبلغ من المال، قدره مئتي ريال كمصروف للسفر. كما أصدر أمره باستئجار جمال وحمير، لنقلهم وأمتعتهم. وزودهم برسائل إلى العمال، في المناطق التي سيمرون بها، لاستضافتهم وتغيير حيوانات النقل، كل ذلك على حساب بيت المال(٢).

١٠. معلومات عن أسر وشخصيات سياسية كبيرة:

أ. الإمام المهدي عباس وأسرته:

تحدث نيبور عن الإمام المهدي عباس، وانتمائه إلى الأسرة القاسمية، وتاريخ هذه الأسرة. وهو حديث منقول عن روايات تاريخية مكتوبة. ولا يختلف في مضمونه عما نعرفه عن هذه الأسرة. وبما أنه يهمنا هنا ما سجله نيبور من معلومات، وقف عليها بنفسه، أو رويت له، عن أحداث قريبة العهد، من قبل معاصرين لها. فإننا سنقتصر هنا على ما سجل من ملاحظات ومعلومات متفرقة، عن الإمام المهدي عباس وأسرته أبنائه وأقاربه ، دون التعرض لتاريخ الأسرة القاسمية.

ذكر نيبور أنه عند قدوم البعثة إلى اليمن كان قد مر على وجود الإمام المهدي في الحكم سبعة عشر عاماً. وكان عمره حينذاك خمسة وأربعين عاماً.

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 425

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 425 FF.

«وكـ منظره جميلاً جداً. ولكنه لم يكن أبيض البشرة، كأسلافه من جهة الأب، بل كان أسمراً كأمه»(١). فقد كانت أمه جارية حبشية(٢). وكان له خمسة عشر أو عشرين أخاً. وقد رأى نيبور بعضهم. وكانت لهم أنوف مفلطحة، وشفاه غليظة، وبشرة سمراء، كالأفارقة. وقد أورد أسماء ثلاثة منهم، وهم: محمد، وهو أخ شقيق للإمام، وأحمد وحسين، وهما أخوان للإمام من الأب. أما زوجة الإمام فقد كانت ابنة «سيدي علي بن سيدي احمد، عامل تعز. وربما كانت له زوجات أخرى، كما كانت له كثير من الجواري، ولكن، بالتأكيد، أقل مما كان لوالده المنصور، الذي ـ كما يقال ـ كان يمتلك أكثر من مئتي جارية»(٣). وكان للإمام المهدي حوالي اثني عشر ولداً، كانوا لا يزالون أطفالاً، إلا أربعة منهم كانوا قد أصبحوا كباراً، وهم عبد الله وعلي وقاسم ومحمد، وكان علي «والياً أو عاملاً»(٤) على منطقة سنحان، التي تعتبر صنعاء تابعة لها. أما الثلاثة الأخرون فلم يكونوا قد تقلدوا وظائف رسمية.

وأورد نيبور أسماء عدد من أقارب الإمام، الذين كان معظمهم مقيماً في صنعاء، كعميه، عبد الرحمن وإبراهيم، وأقارب آخرين(*)، مثل «سيدي إسماعيل صاحب(**) المخادر وسيدي علي صاحب وصاب»(٥). وكان الإمام يسكن في المدينة ـ أي في مدينة صنعاء ـ، بينما كان عدد من أقاربه يسكنون في قلعة صنعاء(٦). وكان دخل بعض المناطق والقرى يعود إلى بعض أفراد أسرة الإمام وأقاربه، مثل قريتا سيان وزراجة ومنطقة الحيمة(٧).

---

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 204.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 197.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 204.

(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 204.

(٥) Niebuhr, C., BVA, S. 204.

(٦) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 421.

(٧) انظر: Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 410, 431.

(*) لم يحدد نيبور درجة القرابة.

(**) استعمل نيبور هنا لقب Herr ويعني سيد، أي سيد المخادر.

ب. وزير الإمام:

كان وزير الإمام، ويسميه نيبور أيضاً وزير الدولة، هو الفقيه أحمد النهمي[1]. ويؤكد نيبور أنه لم يكن يخاطب إلا بلقب فقيه. إذ إن اليمنيين لا يعرفون الألقاب الكبيرة، كما أن الألقاب التي يستخدمونها محدودة[2]. ويمتدح نيبور سعة اطلاع الفقيه أحمد، ومعرفته بالبلدان الأوروبية، ومواقعها وأحوالها، رغم أنه لم يغادر اليمن أبداً. ولكنه، على أي حال، كان على اتصال بالتجار الأوروبيين، بصورة خاصة، والأجانب بصورة عامة، الذين يأتون إلى اليمن[3].

جـ. عامل اللحية:

أمير اللحية، أو دولة اللحية، أو عامل اللحية، أو حاكم اللحية، كلها ألقاب أطلقها نيبور على المنصب نفسه. وكان عامل اللحية، عند مجيء نيبور إلى اليمن، هو الأمير فرحان. وقد حرص نيبور على إعطائه قدراً من الاهتمام في كتاباته، أكثر مما أعطاه لغيره. ولعل ذلك يرجع إلى كرمه وحسن استقباله للبعثة. وقد سجل نيبور عنه معلومات مفيدة، تساعدنا، ليس فقط في معرفة شخصيته، بل أيضاً في الوقوف على جوانب من الحياة السياسية والاجتماعية، في يمن القرن الثامن عشر: كوضع عمال المناطق، ومجال سلطاتهم، ومواقعهم في الهرم الإداري للدولة، وكوضع العبيد الاجتماعي، ودورهم السياسي. إلخ.

فقد كان الأمير فرحان أفريقياً شديد السواد، جيء به صبياً من إفريقية، وبيع إلى رجل من الأعيان اسمه الماس (*)، كان لسنوات عديدة عاملاً للإمام

---

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 206.

(2) انظر ص ٨٠ - ٨١ من هذا البحث.

(3) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 416 - 417.

(*) ربما يكون هو نفسه النقيب الماس، الذي ذكر نيبور أنه واحد من كبار قادة جيوش الإمام. انظر ص ٢٤٤ - ٢٤٥ من هذا البحث.

على بيت الفقيه، «ثم أصبح من أهم وزراء الإمام»[1]. وقد حرص العاس على تنشئة فرحان تنشئة طيبة. ثم أخذ يكلفه ببعض الاعمال والمهام البسيطة. وأصبح هذا العبد، شيئاً فشيئاً، معروفاً في البلاط بخدماته، واكتسب سمعة طيبة. وسرعان ما تقلد منصباً رسمياً، كعامل على إحدى المناطق. ثم استقر أخيراً في وظيفته، كعامل على اللحية. وكان مستقيماً، ولطيفاً في تعامله، وخاصة مع الأعراب[2].

د. أسرة الوادعي وأسرة إسحاق:

أشار نيبور إلى هاتين الأسرتين، إشارات عابرة، في أكثر من موضع، خلال وصفه لرحلته، وعند حديثه عن المناطق الإدارية المختلفة في اليمن. ولكنه لم يقدم معلومات تفصيلية عنهما، أكثر من أن أسرة الوادعي، وعلى رأسها النقيب محمد بن عبد الله صاحب Robò el Hawà الواقع قرب المخادر، تنتمي أصلاً إلى منطقة حاشد وبكيل، ولكنها استقرت في منطقة المخادر منذ سنوات طويلة. وأنها تمتلك أراضي وقرى عديدة، في الجهة الغربية من جبل سمارة[3].

وأما أسرة إسحاق، فهي تنتمي إلى الإمام المؤيد محمد بن القاسم[*]. وتقيم في منطقة وصاب السافل، وإليها يعود دخل هذه المنطقة[4].

---

(1) Niebuhr, C., RB. Bd. 1. S. 295.

(2) Niebuhr, C., RB. Bd. 1. S. 295 - 296.

(3) Niebuhr, C., BVA. S. 238

(4) Niebuhr, C., BVA. S. 224.

(*) الإمام المؤيد محمد بن القاسم تولى الإمامة بعد وفاة والده القاسم عام ١٠٢٩ هـ/١٦٢٠ م، واستمر فيها حتى وفاته عام ١٠٥٤ هـ/١٦٤٤ م.

١. الصن

أورد

شاهدها أث

السوق الم

في كتاباته،

تجول فيها،

يزرها، بل

مشاهدتها،

أما ال

أ. صناعة ا

شاهد

حبس، التي أ

شاهد فيها معا

(١)

(٢)

الفصل الثاني
الحياة الاقتصادية

١. الصناعة:

أورد نيبور إشارات متفرقة، إلى بعض الحرف والصناعات، التي شاهدها أثناء تجواله في اليمن، وهي بمجملها صناعات، كانت تلبي حاجة السوق المحلية. وباستثناء صناعة الحديد، فإن ما أورده نيبور بصورة متناثرة في كتاباته، قد اقتصر على حرف وصناعات، شاهدها بنفسه، في المناطق التي تجول فيها، مما يبقي الاحتمال قائماً بوجود صناعات، في المناطق التي لم يزرها، بل وبوجود صناعات أخرى، في المناطق التي زارها، لم يتمكن من مشاهدتها، وبالتالي لم يأت على ذكرها في كتاباته.

أما الصناعات التي شاهدها وضمّن كتاباته إشارات إليها، فهي:

أ. صناعة الأواني الفخارية:

شاهد نيبور صناعة الأواني الفخارية في قرى ومدن مختلفة، كمدينة حيس، التي أشار إلى أنها تمد جزءاً كبيراً من اليمن بهذه الأواني[١]، وذكر أنه شاهد فيها معامل كثيرة، لصناعة الأواني الفخارية، وخاصة فناجين القشر[٢]،

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 352 U. BVA, S. 224..

(٢) Niebuhr, C. RB, Bd. 1, S. 352.

التي يستخدمها اليمنيون بشكل عام، أما الفناجين المعروفة بالصينية(*) فقد كان استخدامها مقتصراً على الأعيان(١).

وعدا عن مدينة حيس، فقد شاهد نيبور هذه الصناعة في قرية المحط Maha'd، الواقعة على طريق بيت الفقيه - زبيد(٢)، وفي قرية الضحي(٣). ومن الملاحظ أن إشاراته كلها بالنسبة لصناعة الفخار، قد اقتصرت على المناطق التهامية. ويبدو أنه لم يشاهد أي معامل للفخار في المناطق الجبلية.

ب. صناعة الأقمشة:

أكد نيبور وجود معامل كثيرة لصناعة الأقمشة، وأورد اسم إحدى المناطق التي تصنع فيها الأقمشة، وهي بني ضبيبي Beni Dobejbi، في منطقة كسمة Kùsumma. إلا أنه أشار إلى أن الأقمشة اليمنية متوسطة الجودة وخشنة، ولذا، فإن الأقمشة الناعمة تستورد من الهند. كما يستورد نوع أقل جودة من مصر(٤). وفي قرية الدريهمي Drehemi، التابعة لمنطقة بيت الفقيه كانت توجد معامل كثيرة لصناعة اللحف(**)(٥).

جـ. صناعة النيلة:

أشار نيبور إشارات متكررة إلى نبات الأنديجو Indigo المنتشر في تهامة وهو النبات الذي تستخرج منه النيلة الزرقاء اللون، التي كانت إلى عهد قريب

---

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 56.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 227.

(٣) Niebuhr, C., RB, bd.1, S. 315.

(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 217, 248.

(٥) Niebuhr, CS., BVA, S. 227.

(*) الصينية والحيسي اسمان معروفان، الأول يطلق على الفناجين المستوردة من الصين. وكانت قليلة الاستعمال، حتى عام ١٩٦٢ م. والثاني يطلق على الفناجين المصنوعة محلياً في مدينة حيس، وفي أماكن أخرى إلا إن اسم حيس غلب على هذا النوع من الفناجين باعتبارها أهم مكان لصناعته.

(**) اللحفة قطعة قماش مستطيلة توضع على الكتف.

تصبغ بها الملابس وتدهن النساء بها أجسامهن. فقد كانت تقوم مقام الأصباغ المستوردة الآن. وقد شاهد نيبور في أماكن عديدة قدوراً ضخمة، تحضر فيها مادة النيلة، فإلى جانب أفران حرق الفخار خارج مدينة الضحي، كان يوجد عدد كبير من هذه القدور مملوء بالنيلة[1]. وفي القرب من قرية تحيتة Tahâta الواقعة على بعد ميلين وربع «حوالي ١٧كيلومتراً» (*)، غرب زبيد، تمكن نيبور من إحصاء ما يزيد على ست مئة قدر ضخم، مخصصة لتحضير النيلة[2].

د. صناعة الأسلحة:

رغم شهرة السيف اليماني في بلاد العرب، إلا أن صناعة السيوف كان قد عفا عليها الزمن، عند زيارة نيبور، كما عفا على الكثير من مهارات اليمنيين وإبداعاتهم. ومع أن نيبور قد أكد أن السيوف لم تعد تصنع في اليمن، إلا أنه قد أشار إلى أن اليمنيين يصنعون أسلحة أخرى، كالجنابي والسكاكين، وأنهم «بدؤوا منذ سنوات قليلة يصنعون بنادق بأنفسهم، ولكن نوعيتها لا تزال رديئة»[3].

هـ. صناعة الحديد:

ذكر نيبور أن اليمنيين يستخرجون الحديد، من مناجم الحديد، الموجودة في منطقة سهام، ولكنه حديد غالي الثمن، ورديء النوعية(**). ويرجع نيبور سبب رداءة الحديد اليمني إلى «نقص الأخشاب وجهل اليمنيين

---

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 315.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 331.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 217.

(*) قدر نيبور المسافات بالميل الألماني القديم وهو يساوي ٧٥٣٢ متراً.

(**) ازدهرت صناعة الحديد في اليمن قبل الإسلام ازدهاراً تدل عليه شهرة السيوف والدروع وغيرها من آلات الحرب اليمنية. ولكن من الواضح أن هذه الصناعة قد تدهورت خلال العصر الوسيط.

بهذا النوع من الصناعة[1]. فهذه الصناعة تحتاج إلى جانب المهارة قدراً كبيراً من الوقود اللازم لصهر الحديد.

و. صناعات أخرى:

إلى جانب الصناعات الآنفة الذكر، أشار نيبور إشارات متفرقة إلى صناعات أخرى عديدة، شاهدها أثناء رحلته في اليمن. فقد شاهد في مدينة حلة «معامل كثيرة لصناعة الصابون»[2]. كما شاهد في تهامة معصرة للزيت، تدار بواسطة ثور[3]. وذكر أنه قد أنشىء مصنع للزجاج في مدينة المخا «منذ سنوات»[4]. وأشار إلى أن اليمنيين يصنعون الحبال من نباتات برية تسمى «السلف»[*] Saltab والدنجة Dennedje[5]. وفي القرب من مدينة اللحية شاهد عملية استخراج الصدف، حيث كانت تجلب الأحجار المرجانية من البحر وتقطع، وتحرق في محارق منتشرة في العراء، ويستخرج منها الصدف[6]. وفي منطقة المملاح شاهد، وهو في طريقه من بيت الفقيه إلى المخا، حفراً كبيرة، تملأ بماء البحر، بواسطة قنوات، ثم تترك ليتبخر الماء بفعل حرارة الشمس، ويبقى الملح مترسباً في الحفر[7]. وكان يصنع في اليمن أيضاً النبيذ[**] الذي تخصص في صناعته اليهود، وخاصة يهود صنعاء، حيث كانوا

---

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 271.

(2) Niebuhr, C., BVA, S. 239

(3) Niebuhr, C., BVA, S. 217.

(4) Niebuhr, C. BVA, S. 217.

(5) Niebuhr, C., BVA, S. 150

(6) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 308

(7) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 359

(*) تسمى في المنطقة الوسطى (السنعف).

(**) ذكر نيبور أن طبيب البعثة كرامر قد وجد أدوات لصناعة النبيذ في بيت أحد أعيان اللحية، وأن الذين يشربون المشروبات الكحولية من اليمنيين يتكتمون، ولا يشربونها إلا مساءً في بيوتهم. انظر:

Niebuhr, C. BVA, S. 56.

يحتاجونه من كميات تفيض عن حاجتهم، يبيعونها للمسلمين بحذر شديد(1).

وفي منطقة قرب قرية الصحي شاهد نيبور معملاً، ينتج كميات كبيرة من الجلود المدبوغة(2). هذا عدا عن بعض الصناعات الحرفية الدقيقة، التي كانت تمارس غالباً من قبل اليهود، وأبرزها صياغة الذهب والفضة(3)، التي أكد نيبور أنها كانت تمارس «بصورة متقنة»(4)، وكان الهنود البينيان يشاركون اليهود في إتقان واحتراف الصياغـة.

ويبدو أنه لم يكن هناك حرفيون، يتقنون الحرف المتصلة بالصناعات الحديثة، فقد أكد نيبور مثلاً، أنه «لم يكن يوجد في كل اليمن شخص واحد يستطيع أن يصلح ساعة»(5).

٢ . الزراعة:

تضمنت كتابات نيبور إشارات، وملاحظات كثيرة، حول الزراعة في اليمن، وسوف نحاول فيما يلي أن نرتبها، بطريقة تمكننا من رسم صورة متكاملة وواضحة، قدر الإمكان، للمناطق الزراعية وأنواع المحاصيل وتوزعها وأدوات الزراعة وأنظمة الري، في القرن الثامن عشر.

لم يسجل نيبور ملاحظات كثيرة حول الزراعة في تهامة، واكتفى بالتأكيد على أن سكان تهامة لا يكادون يزرعون شيئاً آخر غير الذرة، وأن الذرة تكاد تكون الغذاء الوحيد لعامة الناس(6). كما أنه قد لاحظ، وهو متجه من تهامة نحو العدين، أن الزراعة تكثر كلما ابتعد عن المناطق التهامية، وتوغل في

---

(1) Niebuhr, C., RB. Bd. 1, S. 420 - 421, 298.
(2) Niebuhr, C., BVA, S. 229.
(3) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 422.
(4) Niebuhr, C., BVA, S. 216.
(5) Niebuhr, C., BVA, S. 216.
(6) Niebuhr, C., BVA, S. 226

الجبال(١)، وعندما مر بتعز في طريقه إلى بيت الفقيه عائداً من العدين، لاحظ أن الزراعة تقل، كلما ابتعد عن تعز(٢). أما المناطق الجبلية فقد أشار إلى خصوبتها وأنواع المزروعات فيها وأنظمة الري. إلخ . . . وقد وجد أن أخصب المناطق الزراعية هي تلك الواقعة في جبل صبر والعدين وجبلة وكسمة ويافع ونجران، وهي المناطق اليمنية، التي لا زالت تتركز فيها أخصب الأراضي حتى الآن. وسيتضح توزع الزراعة ومناطقها، من خلال استعراضنا لأهم المحاصيل الزراعية، وخاصة المحاصيل ذات الأهمية التجارية.

أ. المحاصيل الزراعية:

ـ البن:

كان البن يحتل المرتبة الأولى، على رأس المحاصيل الزراعية في اليمن، وكان يشغل معظم الأراضي الخصبة في المرتفعات الجبلية. وسنقف هنا على ما سجله نيبور عنه في حدود كونه محصولاً زراعياً، تاركين الحديث عن أهميته كسلعة تجارية إلى الجزء الخاص بالتجارة.

أشار نيبور إلى أن البن كان يزرع بصورة خاصة في الجهة الغربية من المرتفعات الجبلية، الممتدة في وسط اليمن، من الشمال إلى الجنوب، وأن زراعته تكثر أيضاً في بلاد حاشد وبكيل وقعطبة ويافع، ولكن أفضله كان يزرع في مناطق العدين وكسمة والجبي. ومن هذه المناطق كان يأتي معظم البن وأجوده(٣). وكان بن العدين أجود أنواع البن في اليمن، وبالتالي ـ كما أكد نيبور ـ في العالم كله(٤). وكانت أشجار البن تزرع في مدرجات، تمتد حتى قمم الجبال، بعضها يروى بمياه الأمطار، وبعضها يروى من بركة في أعلى

---

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 343.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 350.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 143-145.

(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 245.

المدرج، تمتد منها قنوات، لتصل إلى جميع أشجار الحقل «ويقال ان الأشجار، التي تروى بهذه الطريقة، تعطي محصولين في العام، إلا أن المحصول الثاني ليس بجودة المحصول الأول»[1].

وقد أشار نيبور إلى أنه لم يشاهد حقول البن منذ شهر مارس ١٧٦٣(*)، أي منذ قيامه من بيت الفقيه بزيارة لمنطقة العدين، وحتى عودته من صنعاء، باتجاه المخا، في أغسطس من العام نفسه(**)، حيث شاهدها مرة أخرى قرب مقهى أطلق عليها اسم الدورة(***) (Eddora)[2]. ولعل هذا يدل على أن البن لم يكن يزرع في المناطق التي مر بها بعد شهر مارس في طريقه من بيت الفقيه إلى المخا فتعز فإب فيريم وذمار إلى صنعاء.

وذكر نيبور أن اليمنيين، كانوا يوقعون عقوبات صارمة، على من يحاول ان ينقل شجرة البن إلى الخارج. وأن الهولنديين والفرنسيين والإنجليز قد تمكنوا، رغم ذلك، من تهريبها وزرعها في مستعمراتهم، إلا أن البن اليمني قد ظل أفضل أنواع البن في العالم. ويرجع نيبور سبب جودة البن اليمني إلى أن المناخ وارتفاع الحقول الجبلية قد وفر للبن شروطاً ممتازة، لم تتوفر له في تلك المستعمرات. ويؤكد اليمنيون ـ كما أشار ـ أنهم قد جلبوا شجرة البن من الحبشة، وأن هذه الشجرة لا زالت موجودة بكثرة في بلاد الحبشة ولا تقل بعض أصنافها جودة عن البن اليمني[3].

---

(1) Niebuhr. C., RB. Bd. 1, S. 335.

(2) Niebuhr. C., RB. Bd. 1, S. 433.

(3) Niebuhr. BVA. S. 143-145.

(*) وصلت البعثة إلى اليمن في نهاية شهر ديسمبر ١٧٦٣م وغادرت اليمن في شهر أغسطس من العام نفسه.

(**) كان خط رحلة البعثة في اليمن على النحو التالي: اللحية ـ بيت الفقيه ومنها قام نيبور برحلات جانبية إلى زبيد وغليفقة والحديدة والعدين وجبلة وتعز وحيس) ـ المخا ـ تعز ـ إب ـ يريم ـ ذمار ـ صنعاء، ثم العودة من صنعاء إلى المخا عن طريق معحق وبيت الفقيه.

(***) يبدو من وصف نيبور ومن خارطته أن تلك المقهى تقع في منطقة حراز.

ـ القات:

على الرغم من أن زراعة القات، في القرن الثامن عشر، لم تكن تمثل أهمية كبيرة، قياساً بأنواع المزروعات الأخرى، وهو ما نلحظه من خلال كتابات نيبور، إلا أن الأهمية التي اكتسبتها هذه الشجيرة، عبر أكثر من مئتي عام، أي منذ زيارة نيبور وحتى الآن، حيث أصبحت اليوم تمثل نوعاً من الزراعة لا ينافس ولا يقاوم إغراؤه، وذوت أمام جبروته شجرة البن الثمينة رمز اليمن ونافذته إلى عالم العصر الحديث، تجعلنا على غير رضى نسرد هنا ما سجله نيبور حوله:

لقد سجل نيبور أول ملاحظة عن القات، عند حديثه عن وصول البعثة إلى تعز، فخلال الأشهر التي قضاها متجولاً في تهامة، لم يتطرق إلى ذكره، وحتى أثناء رحلته الفرعية، من بيت الفقيه إلى العدين وجبلة، ثم إلى حيس ماراً بالقرب من مدينة تعز دون أن يدخلها، ثم إلى بيت الفقيه، لم يسجل أي ملاحظة تتعلق بالقات. وعندما غادرت البعثة بيت الفقيه إلى المخا ومن المخا إلى تعز، في طريقها إلى صنعاء، استقرت بضعة أيام في تعز، وذهبت لزيارة عامل تعز، وفي مجلسه شاهد نيبور القات، وسجل عنه في يومياته العبارات التالية: «إنه عبارة عن أغصان رطبة من شجرة معينة، يستعملها اليمنيون، لتمضية الوقت، مثلما نستعمل نحن النشوق(*) ومثلما يستعمل الهنود التنبل. ولكننا لم نستسغ طعمه، مع أن اليمنيين يجدون طعمه لذيذاً»[1]. ويأتي نيبور على ذكر القات مرة أخرى، في سياق حديثه عن استعدادات اليمنيين في تعز، لاستقبال العيد، حيث جهز المواطنون أنفسهم بمحتاجات العيد وبالقات[2]. ويروي نيبور أنه شاهد رُبَط القات بعد ذلك في المناطق الجبلية، لدى

(1) Niebuhr, C., RB. Bd. 1, S. 376.

(2) Niebuhr, C., RB. Bd. 1, S. 376.

(*) يسمى في اليمن البردقان.

والأعيان، وأن الولع به يعتبر من مكملات الشخصية المحترمة، وأن صحاح الأسنان يمضغونه مباشرة، وهو في نفس الحالة، التي يقطف فيها من الأشجار، أما الذين ليست لهم أسنان سليمة، فإنهم يلجؤون إلى دقه في مدق الهون، قبل وضعه في أفواههم[1].

وكما هو الحال بالنسبة لشجرة البن، فإن القات قد جلب من الحبشة أيضاً، إلا أن القات ـ كما لاحظ نيبور ـ لا يحقق إيراداً لليمنيين من العملات الأجنبية[2].

ـ البخور:

ذكر نيبور أنه كان للبخور اليمني شهرة كبيرة في التاريخ القديم، رغم أن البخور الذي كان يصدر من اليمن لم يكن جميعه يزرع في اليمن نفسها، بل كان يستورد جزء كبير منه ويعاد تصديره. أما الآن ـ أي عند زيارة نيبور ـ فقد تراجعت أهميته، ومع ذلك فلا زال يزرع في الجنوب الشرقي من ظفار، وفي قشن ومرباط Merbât وحاسك Hâsek والشحر، في جنوب اليمن. وهناك أنواع من البخور مستوردة من الحبشة وسمطرة وسيام وجاوة، ومن بين تلك الأنواع نوع يعرف بالجاوي. وقد لاحظ نيبور أن اليمنيين يقرون بعدم جودة البخور اليمني، ولذا فإن الأعيان يستعملون البخور الهندي، كما يستعملون المسكى بكميات كبيرة[3].

ـ محاصيل زراعية أخرى:

ذكر نيبور أن الذرة كانت تزرع في معظم مناطق اليمن التهامية والجبلية، وأنها تكاد تكون الغذاء الوحيد لعامة الناس. وإلى جانب الذرة، كان يزرع القمح والشعير والفاصولياء والعدس وقصب السكر والتبغ والقطن والورس

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 58.

(2) Niebuhr, C., BVA, S. 145.

(3) Niebuhr, C., BVA, S. 143-144.

والنيلة، وكثير من الأشجار المثمرة. ولم يلاحظ نيبور أن اليمنيين يزرعون الأرز، وقد يستغرب لذلك، حيث كان الفرنسيون والذين زاروا مدينة المواهب عام ١٧١٢م قد زعموا أنهم رأوا مزارع الأرز في طريقهم إلى المواهب»(١).

وقد حدد نيبور أنواع المزروعات ومناطقها على النحو التالي:

ففي منطقة (اليمن الأعلى)(**)، وعاصمتها جبلة، تزدهر زراعة القمح والذرة وأنواع كثيرة من الفواكه، إلى حد أن هذه المنطقة قد سميت «مخزن حبوب اليمن»(٢)، كما يزرع فيها نبات الورس الأصفر اللون، الذي تصدر منه كميات كبيرة إلى مسقط(٣). وفي العدين تزرع مختلف المحاصيل، وخاصة البن، ويوجد فيها كثير من أشجار الفواكه(٤)، ويزرع فيها كذلك قصب السكر إلا أن نوعيته رديئة(٥). وفي منطقة سنحان، وعاصمتها صنعاء، تكثر الأشجار المثمرة، كالتين والمشمش والفرسك والعنبروت واللوز والعنب، الذي يوجد منه أكثر من عشرين صنفاً(٦). وفي منطقة مغرب عنس، وعاصمتها ذمار، تكثر غلال الحبوب بأنواعه(٧). وفي منطقة نجران، وهي منطقة وفيرة المياه، تزرع أنواع الحبوب بكميات كبيرة، وفيها أنواع شتى من الأشجار المثمرة، وخاصة النخيل، كما توجد فيها مراع ممتازة(٨). وتنمو أشجار النيلة بكثرة في بعض الوديان،

---

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 150-151.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 238.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 238.

(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 245.

(٥) Niebuhr, C., RB. Bd. 1, S. 344.

(٦) Niebuhr, C., BVA, S. 230.

(٧) Niebuhr, C., BVA, S. 235.

(٨) Niebuhr, C., BVA, S. 272.

(*) زار طبيب إحدى السفن الفرنسية الراسية في المخا واسمه باربير الإمام المهدي محمد بن أحمد في عاصمته المواهب لمعالجته ورافقه في الرحلة الرائد دي لاجريلو دير. انظر: ماكرو، اليمن، ص ٣٩ ـ ٤٠.

(**) هكذا سمى نيبور هذه المنطقة، إلا أن اسمها وفقاً لموقعها هو: اليمن الأوسط، وليس الأعلى.

كوادي المحط Wadi el-Mahad، ووادي زبيد[1]. ويزرع التبغ بصورة خاصة في منطقة وصاب العالي، وهو أجود أنواع التبغ في اليمن[2]. وتوجد في اليمن شجرة البلسم، وقد ذكر نيبور أن اليمنيين يسمونها شجرة (أبو شم) لرائحتها الزكية، ولكنهم لا يعرفون أنها شجرة البلسم، ولهذا فإن بعض التجار في الحديدة يرسلون أوعية إلى (المدينة)، في الحجاز لملئها بالبلسم، حيث يجمع هناك، ويرسل دون أن يغش، أما البلسم الذي يباع في جدة فإنه مغشوش[3]. ويوجد في اليمن كذلك شجر الأراك، الذي تستخدم أعواده لتنظيف الأسنان، وتصدر منه كميات كبيرة إلى المدن العربية، مثل البصرة وحلب[4].

وإلى جانب ذلك أشار نيبور إلى خصوبة بعض المناطق، دون أن يذكر أنواع الزراعة فيها، مثل جبل صبر، الذي أشار إلى أنه خصب جداً، إلى درجة أن اليمنيين يعتقدون، أنه يحوي كل أنواع النبات في العالم[5]، وحضرموت التي تحتوي على وديان خصبة[6].

ب. المياه وأنظمة الري:

أشار نيبور إلى اعتماد اليمن في زراعتها على مياه الأمطار، وقد لاحظ هطول الأمطار في الصيف بانتظام، كل يوم تقريباً، في فترة بعد الظهر، وخاصة في المنطقة الواقعة بين جبلي صبر وسمارة[7]. وعندما وصلت البعثة إلى يريم، كانت يريم تعاني من عدم هطول الأمطار، ولذا قرر الأهالي أن يصلوا صلاة الاستسقاء[8]. وترتبط باعتماد اليمنيين على مياه الأمطار ظاهرتان، تكررت

---

(1) Niebuhr. C., BVA. S. 327. U. RB. Bd. 1, S. 331, 326.
(2) Niebuhr. C., BVA. S. 245.
(3) Niebuhr. C., BVA. S. 245.
(4) Niebuhr. C., BVA. S. 149.
(5) Niebuhr. C., BVA. S. 241. U. RB. Bd. 1, S. 385.
(6) Niebuhr. C., BVA. S. 283.
(7) Niebuhr. C., RB. Bd 1. S. 377,401.
(8) Niebuhr. C. RB. Bd. 1. S. 401-402.

بشارة نيبور إليهما، الأولى كثرة الآبار الجوفية، والثانية كثرة السدود[1]
وقد ذكر نيبور أن المياه ترفع من الآبار الجوفية، بطريقة (المسنى) وأنه شاهد
آبارا ترفع منها المياه بواسطة ست بكرات، تنتصب عند فوهتها، فإذا رويت
الأرض بمياه الآبار بهذه الطريقة، فإن الزراعة تصبح مكلفة جداً، كما أن طريقة
الري هذه طريقة مضنية ومرهقة «على خلاف طرق الري التي يشاهدها المرء في
بلدان أخرى من الشرق»[2].

وقد لاحظ نيبور وجود نوعين من السدود، النوع الأول، يحفر في الأرض، وتحفظ فيه مياه الأمطار، لشرب الإنسان والحيوان ولري الحقول. والنوع الثاني، عبارة عن سدود مؤقتة، تقام في مجاري السيول، لرفع المياه وتوجيه جزء منها إلى الحقول، على جانبي المجرى، ففي هجير Hadsjir، منطقة الحجي مثلاً، شاهد سدين، سماهما خزانين(*)، أحدهما لشرب المواشي، والآخر لشرب الناس[3]. وفي الطريق من مفحق إلى سهام Sehán شاهد ستة خزانات، قال عنها إنها «تصبح في أوقات معينة من السنة سيئة جداً، ربما لأنها لا تنظف، كما أنها تترك مكشوفة»[4]، وفي وادي زبيد شاهد في مجرى السيل، السدود الترابية التي تعترض المجرى وترفع منسوب الماء إلى مستوى الحقل[5]. ويتم ري الحقول وفق نظام محدد، «فكل فلاح يقيم سداً من التراب في مجرى الماء، ليرفع بذلك منسوب الماء، ويدخله إلى حقله، ويروي حقله، ضمن وقت محدد، يترك بعده الماء ينساب إلى حقل جاره»[6].

---

(1)
(2) Niebuhr, C., RB. Bd. 1, S. 315, 320, 323, 350.
(3) Niebuhr, C., RB. Bd. 1, S. 410, 396-397.
(4) Niebuhr, C., RB. Bd. 1, S. 434.
(5) Niebuhr, C., RB. BD. 1, S. 432.
(6) Niebuhr, C., RB. Bd. 1, 437.
(*) Niebuhr, C., RB. Bd. 1, S. 356.
المقصود هنا بالخزانات والسدود البرك المنتشرة في قرى اليمن ومدنها ويطلق في بعض المناطق اسم السد على خزان الماء ذي الشكل المستدير، أما الخزان ذو الشكل المستطيل فيطلق عليه اسم البركة أو البرك.

وقد سبقت الإشارة إلى طريقة ري بعض حقول البن في المدرجات الجبلية، عن طريق برك في أعلى الحقل، متصلة بقنوات، ينساب فيها الماء ليصل إلى جميع أشجار البن في الحقل.

وتحدث نيبور عن سد مارب، وأهميته التاريخية، وقدم وصفاً له، معتمداً في ذلك على السماع، إذ إنه لم يزر منطقة مارب. وقد أكد، في سياق حديثه عن سد مارب، أنها توجد في اليمن سدود كثيرة، أقامها الإنسان اليمني، لحجز وحفظ مياه الأمطار، التي لا تهطل إلا في أوقات معينة من السنة. إلا ان تلك السدود صغيرة الأحجام، ولا تقاس بضخامة سد مارب. واختتم حديثه عن سد مارب بالعبارات التالية: «إنه من الممكن، ومن المفيد للسكان اليوم، نظراً للخصائص الطبيعية لمنطقة مارب، إعادة بناء السد، تماماً مثلما كان بناؤه ممكناً ومفيداً في الماضي. ولكن مارب كانت في الماضي عاصمة لملك، كان حكمه يشمل جزءاً كبيراً من اليمن وحضرموت، في حين أنها الآن مقر لشريف فقير، لا يمتد حكمه خارجها إلا إلى عدد محدود من القرى، يكاد يعجز أن يدافع عنها في وجه جيرانها، وهو أعجز من ذلك بكثير في أن يفكر بإعادة بناء سد كبير كهذا»[1].

وإلى جانب إشاراته عن الآبار والسدود، لفتت نظره الطريقة التي يتم بها توصيل المياه إلى مدينة إب وبيوتها، وكذا الطريقة التي يتم بها تزويد المسافرين بمياه الشرب.

ففي شرق مدينة إب يقع جبل بعدان، الذي ينساب منه الماء في قناة، فوق جدار طوله ١٥٠ خطوة مزدوجة(*) إلى جامع كبير، ومنه إلى المنازل، وإلى المساجد الأخرى. ولأن الجامع الكبير يقع في مكان منخفض، فإنه يتم رفع المياه من خزان الجامع إلى خزان آخر مرتفع، بطريقة المسنى. ومن الخزان

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 277-279.

(*) حوالي ٢٥٠ متراً.

المرتفع بنساب الماء إلى المدينة[1].

وفي المناطق الجبلية صادف نيبور ، بصورة متكررة، على امتداد طرق المسافرين، ما سماه ماجل Madsjil ، ويعرف حتى اليوم في بعض جهات المنطقة الوسطى، أي منطقة محافظة إب، بالسقاية، وقد وصفه على النحو التالي:

«في هذا الجبل(*) وجدنا ثلاثة مواجل، أو بيوت ماء صغيرة، وهي تملأ باستمرار بماء صاف عذب، وذلك ليجد المسافرون ماءً طيباً يجددون به نشاطهم. وخزانات المياه هذه عبارة عن بناء مربع مساحته حوالي $2\frac{1}{2}$ قدم وارتفاعه ٥ إلى ٧ أقدام وسطحه من الأعلى إما مدور أو مخروطي الشكل، وله في إحدى جهاته فتحة صغيرة، يُصب منها الماء إلى داخله. ويجد المسافر عند هذه المواجل وعاءً صغيراً، إما من القرع أو من الخشب»[2].

وقد أكد نيبور أنه خلال تجواله في اليمن، لم يشاهد طواحين هوائية أو مائية[3].

جـ . الأدوات الزراعية:

تحدث نيبور عن الأدوات المستخدمة في الحقول، وطرق استخدامها، وضمن كتابه (وصف بلاد العرب) رسوماً لها(**)، وهي بمجملها أدوات وطرق لا زالت تشاهد في الحقول اليمنية حتى اليوم. فقد أشار إلى المفرس (***)، والمحر اليدوي، الذي يستخدم بواسطة فلاحين متواجهين، أحدهما يسحبه نحوه، بواسطة حبلين مشدودين إليه، والآخر يضغطه في الوقت نفسه إلى

---

(١) Niebuhr, C., RB, BD. 1, S. 396.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 344, 396, 410, 431.

(٣) Niebuhr, ., BVA, S. 217.

(*) جبل المسعد el Masa'ad.

(**) انظر الملحق.

(***) استخدمنا هنا التسميات المعروفة في المنطقة الوسطى (محافظة إب).

الأسفل، بواسـ
إلى المحر، ا
ضغطه إلى الأسـ
المحرات وحـ
ولاحظ نـ
لهم مقاعد فوق
مصطبة عالية،
٢. الثروة الحـ
يستشف
من المواشي و
في (اليمن الأعـ
الأغنام والأبقار
كبيرة»(٥). وفي
والجمال، التي
والجمال أيضاً،
الإمام فإن المنطـ
وعاصمتها ذمار(٨
(١)
(٢)
(٣)
(٤)
(٥)
(٦)
(٧)
(٨)
(٩)
(*) انظر هامش ص

الأسفل، بواسطة مقبض خشبي، لينغرس في التربة، ويجرفها معه. كما أشار إلى المحر، الذي يسحب بواسطة الثيران، ويعمل عليه فلاح واحد، يتولى ضغطه إلى الأسفل، في حين تسحبه الثيران إلى الإمام، جارفاً معه التربة، وإلى المحراث وحجر درس القمح (المدوم) والمنشار[1].

ولاحظ نيبور عدا عن ذلك، أن الفلاحين في مناطق الجبال يستحدثون لهم مقاعد فوق الأشجار، يراقبون منها حقولهم. أما في تهامة فينصبون لهم مصطبة عالية، فوق أربعة أعمدة خشبية، يعلوها سقف[2].

٢. الثروة الحيوانية:

يستشف من إشارات نيبور أن الثروة الحيوانية في اليمن كانت تتكون من المواشي وحيوانات النقل (الحمير والجمال والخيول). ففي يافع[3]، كما في (اليمن الأعلى)[*]، وعاصمته جبلة[4]، تكثر الحيوانات ذات القرون، أي الأغنام والأبقار، كما يشاهد المرء «في قاع جهران أغناماً جميلة وبأعداد كبيرة»[5]. وفي نجران تكثر المراعي الممتازة، مما يساعد على تربية الخيول والجمال، التي تُطلب في جميع أنحاء اليمن[6]. وتشتهر الجوف بتربية الخيول والجمال أيضاً، وتباع منها سنوياً أعداد كبيرة في مملكة الإمام[7]. أما في مملكة الإمام فإن المنطقة الوحيدة، التي تربى فيها الخيول، هي منطقة مغارب عنس، وعاصمتها ذمار[8]. وللخيول الذمارية شهرة ممتازة[9]. وتباع الخيول اليمنية في

---

(١) Niebuhr. C., RB. Bd. 1. S. 217.

(٢) Niebuhr. C., Bd. 1. S. 435.

(٣) Niebuhr. C. BVA. S. 282

(٤) Niebuhr. C. BVA. S. 238.

(٥) Niebuhr. C., BVA. S. 233.

(٦) Niebuhr. C. BVA. S. 272.

(٧) Niebuhr. C., BVA. 276

(٨) Niebuhr. C. BVA. S. 235

(٩) Niebuhr. C. RB. Bd. 1. S. 407

(*) انظر هامش ص ١٥٦ من هذا البحث.

المخاء، بمبلغ يتراوح بين ثمان مئة إلى ألف ريال للخيل الواحد. وقد اكد احد التجار الإنجليز لنيبور وأن أحد مواطنيه اشترى في العام الماضي(*) واحداً من هذه الخيول، وأنه قد عرض له فيه في البنجال ضعف المبلغ الذي اشتراه به، ولكنه فضل أن يرسله إلى بريطانيا، على أمل أن يحصل على أربعة أضعاف ثمنه الأصلي»[1].

وذكر نيبور أنه يوجد في اليمن نوعان من الجمال، نوع متوسط الحجم، لونه بني فاتح، ويكثر في مملكة الإمام، ونوع ضخم الحجم، لونه بني داكن، يُجلب من نجران إلى مناطق اليمن الأخرى. كما يوجد في اليمن نوعان من الحمير، نوع صغير، ونوع ضخم الحجم، وجده نيبور أثناء سفره «مريحاً اكثر من الحصان»[2]. وتُجلب أفضل الحمير من صبيا(**) في أبو عريش[3] إلى مناطق اليمن الأخرى.

وإلى جانب إشارات نيبور عن المواشي وحيوانات النقل، تحدث عن الجراد، ومع أن الجراد لا تدخل ضمن مفهوم الثروة الحيوانية، وإنما هي بالأحرى من الآفات الزراعية المهلكة، إلا أن إمكانية تحولها من آفة زراعية إلى مصدر غذائي، جعلنا نميل إلى ذكر إشارات نيبور عنها ضمن هذا السياق.

شاهد نيبور الجراد لأول مرة في اليمن في منطقة تهامة، وذلك في شهر مايو عام ١٧٦٣ م عند بداية نضج البلح. فقد جاءت أسراب هائلة من الجراد، قادمة من الغرب والجنوب، لتستقر بعض الوقت في تهامة، ثم تعود من حيث أتت، أو تواصل رحلتها نحو المناطق الجبلية في الشرق. وقد شاهد أسراباً قدمت من الجنوب، واتجهت رأساً نحو الشمال، ثم شاهد بعد أيام أسراباً قادمة

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 164.

(2) Niebuhr, C., BVA, S. 164.

(3) Niebuhr, C., BVA, S. 268.

(*) أي عام ١٧٦٢ م.

(**) لعل هذا هو سبب تسمية هذه الحمير بالحمير الصبيانية وهي تسمية معروفة في اليمن حتى اليوم.

من الشمال نحو الجنوب، ربما أنها ـ كما أشار ـ كانت هي الأسراب التي جاءت قبل أيام من الجنوب نفسها. كما شاهد كميات كبيرة من الجراد طافية فوق مياه البحر، لعلها ـ كما ذكر ـ تعبت، ولم تستطع أن تعبر البحر من الساحل الإفريقي المقابل، فسقطت، وطفت ميتة فوق مياه البحر. وفي شهر يوليه شاهد أسراباً هائلة، في جبل سمارة ويريم ومفحق[1]. كما شاهد عملية حماية الحقول من هذه الأسراب، في جبل سمارة فبمجرد أن رأى المزارعون أسراب الجراد، قادمة في السماء، أخذوا يصرخون، ويهرعون إلى حقولهم، ويربطون أقمشة على أعواد طويلة، يمشون بها فوق مزروعاتهم، ليمنعوا الجراد، أن تحط عليها[2].

وتتحول عملية الدفاع عادة إلى هجوم. فقد شاهد نيبور في جبل سمارة أيضاً رجلاً.. يحمل فوق ظهره كيساً كبيراً مملوءاً بالجراد. وتباع الجراد في جميع المدن العربية من المخا وحتى البصرة[3]. ولا تشكل الجراد طعاماً لذيذاً للمسلمين وحدهم، بل إن اليهود أيضاً يأكلونها ويزعمون أن الطير الذي أرسله الله لبني إسرائيل في الصحراء ليس سوى الجراد[4].

٤. الثروات الطبيعية :

ذكر نيبور أن اليونانيين قد أكدوا وجود ذهب وحديد في اليمن، بكميات كبيرة. ولكنه يعتقد أن وجود الذهب أمر غير أكيد. فلو كان الذهب متوفراً لما لجأ ـ في رأيه ـ الإمام المهدي عباس، عندما فكر في سك عملة ذهبية محلية، إلى إذابة العملة الذهبية الآتية من البندقية، وسكها من جديد. أما الحديد فقد أكد نيبور وجوده في منطقة صعدة، حتى عصره ـ أي عصر نيبور ـ ويحتمل كما أشار أن يكون موجوداً في مناطق أخرى من اليمن[5].

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 169.
(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 174.
(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 171.
(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 172.
(٥) Niebuhr, C., BVA, S. 141 - 142.

وعدا عن الحديد أشار نيبور الى وجـود الأحجـار الكريمة، المعروفة بالعقيق اليماني، في جبل هران Hirrân، قرب مدينة ذمار[1]، وفي الجبال الواقعة بين نعز وسمارة[2]. وفي السواحل التهامية شاهد كميات كبيرة من الملح، كما في منطقة المملاح وغليفقة واللحية. . . إلخ[3] وذكر وجود الملح أيضاً في منطقة مأرب[4].

وفي جزيرة فران Firân ذكر أنها تستخرج كميات كبيرة من اللؤلؤ[5]. كما أشار إلى عملية استخراج الصدف، قرب مدينة اللحية[6]، وإلى وجود الأسماك بكثرة، في السواحل اليمنية[7] ،غير أن اليمنيين ـ كما أشار ـ يمارسون الصيد بقوارب بسيطة، لعلها أبسط وأقدم قوارب صيد في العالم[8].

٥. التجارة:

كانت المدن والأسواق الأسبوعية هي الأماكن التي تمارس فيها التجارة، فحتى التجارة الخارجية لم تكن تمارس عن طريق وكلاء لليمن في الخارج، بل كان التجار العرب والأجانب يأتون لشراء السلع اليمنية، في الأسواق اليمنية نفسها، ثم يدفعون ضرائبها المقررة، ويشحنونها في السفن بأنفسهم.

والأسواق اليمنية نوعان، أسواق دائمة في المدن الرئيسية، وأسواق أسبوعية، كثرت إشارات نيبور إليها أثناء تجواله في اليمن، مما يدل على انتشارها في جميع المناطق، وضمن مسافات متقاربة[9]. حتى أن نيبور ليؤكد

---

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 235. U. RB, Bd. 1, S. 408.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 142 - 143.

(٣) انظر مثلاً: Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 323, 359. u. BVA, S. 227, 229.

(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 276.

(٥) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 294.

(٦) انظر ص ١٥٠ من هذا البحث.

(٧) Niebuhr, C., BVA, S. 168.

(٨) Niebuhr, C., BVA, S. 215.

(٩) انظر مثلاً: Niebuhr, C., BVA, S. 239, u. RB, Bd. 1, S. 339, 431.

بأنه «ربما لا يجد المرء بلداً تكثر فيه الأسواق كما تكثر في اليمن»(1). فإذا حاولنا أن نتبين محتويات السوق اليمنية، في ذلك الحين، فإن أفضل ما يقدمه نيبور لنا هو وصفه لسوق صنعاء:

«في سوق صنعاء، كما في المدن التجارية الأخرى في الشرق، توجد مطارح كبيرة للقوافل، وسمسرة Simsera(*) لمبيت التجار والمسافرين، وأماكن تباع فيها الأخشاب والحطب والحديد والعنب(**) والحبوب والزبدة والملح والخبز. ويكثر وجود النساء في سوق الخبز. ويوجد في صنعاء أيضاً سوق، يستطيع فيها المرء أن يستبدل ملابسه القديمة، بملابس جديده. كما يوجد تجار يبيعون بضائع هندية وفارسية وتركية، وغيرها من البضائع الأجنبية. كما تباع البهارات والأدوية والقات وأنواع الفواكه المجففة والطازجة، التي تتوفر بكميات كبيرة، مثل العنبروت والمشمش والفرسك والتين، وغيرها من الفواكه. كما يشاهد المرء في سوق صنعاء النجارين والحدادين والإسكافيين والسراجين(***) وخياطي الملابس وخياطي الطاقيات والبنائين والصاغة والحلاقين والطهاة ومجلدي الكتب والكتبة، الذين يكتبون العرائض(****)، لرفعها إلى الإمام، أو إلى غيره من الحكام، مقابل مبلغ زهيد من المال، كما يقومون إلى جانب ذلك بتدريس الأطفال ونسخ الكتب، ويجلسون طوال النهار في أماكنهم في مواضع معينة من المدينة. وتعتبر أخشاب البناء ثمينة جداً في اليمن. كما أن الحطب في سوق صنعاء غال، لأن الجبال في منطقة صنعاء صخرية، ولا تنبت فيها الأشجار؛ لذا فإن الحطب يجلب من مسافة يومين إلى ثلاثة أيام، ويباع

---

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 28.

(*) السَّمْسَرة بفتح السين الأولى وتشديدها وسكون الميم وفتح السين الثانية هي النزل الذي يبيت فيه المسافرون

(**) أشار نيبور إلى أن هناك ما يزيد على عشرين صنفاً من أصناف العنب، معروضة للبيع في سوق صنعاء. انظر: Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 420.

(***) صانعو سروج الخيل.

(****) العريضة هي عبارة عن شكوى مكتوبة يرفعها المواطن إلى أحد الحكام.

حمل الجمل الواحد بريالين. وقد أكد لي أحدهم أنه يُستخدم في صنعاء أيضاً الفحم الحجري، بسبب نقص الحطب»[1].

ومن الملاحظ أن نيبور لم يذكر البن ضمن السلع المعروضة في سوق صنعاء، ولعله لم يكن من السلع الهامة في هذه السوق، فقد كان استخدامه المحلي نادراً، كما يستشف من يوميات نيبور، حيث لم يذكر أنه قدم له خلال رحلته مشروب آخر سوى القشر.

وقد تركزت أسواق البن في تهامة، وفي بعض الأسواق الجبلية، القريبة من تهامة، كقرية الحدية Hadie، الواقعة في جنوب غرب كسمة، والتي كانت تعتبر سوقاً هامة للبن، إذ يجلب إليها ويعبأ وتدفع الضرائب عليه، في القرية نفسها، ثم ينقل إلى بيت الفقيه، أو إلى الحديدة مباشرة. وقد ذكر نيبور أن هذه القرية تكاد تكون معروفة لجميع التجار الأجانب، الذين يأتون إلى بيت الفقيه[2]. وكقرية علوجة في منطقة كسمة أيضاً، وهي سوق هامة للبن، ومنها ينقل مباشرة إلى الحديدة[3]. ولكن بيت الفقيه هي أهم سوق للبن في اليمن، بل وفي العالم كله، حيث يباع فيها البن الآتي من المناطق الجبلية المجاورة ثم ينقل إلى الحديدة والمخا[4]، وفيها يتجمع تجار من بلدان عديدة «من الحجاز ومصر وسورية والقسطنطينية وبلاد البربر وفاس ومراكش والحبشة والسواحل الشرقية للجزيرة العربية وإيران والهند، وأحياناً من أوروبا»[5].

ولقد ازدهرت التجارة الخارجية عبر الموانىء اليمنية، ازدهاراً كبيراً، حتى أصبحت الضرائب، التي كانت تدفع على السلع اليمنية المصدرة، تشكل أهم مصدر من مصادر إيرادات الإمام، كما سنرى.

---

(1) Niebuhr. C.. RB. Bd. 1. S. 420

(2) Niebuhr. C.. RB. Bd. 1. S. 339 U. BVA. 247 - 248.

(3) Niebuhr. C.. BVA. S. 248.

(4) Niebuhr. C.. BVA. S. 226 - 227.

(5) Niebuhr. C.. RB. Bd. 1. S. 319

أ. أهم الصادرات:

- البن(*):

كان البن أهم سلعة يمنية تصدر إلى الخارج. وكان يتم تصدير أفضل أنواعه وهو البن الآتي من العدين والجبي وكسمة عبر مينائي المخا والحديدة. وكان ميناء الحديدة يعتبر ميناء بيت الفقيه، فمنه يصدر البن الآتي من سوق بيت الفقيه، على ظهر السفن إلى جدة. كما كانت السفن العمانية تنقله إلى مسقط والبصرة وموانىء الخليج[1].

وكان يصدر من ميناء اللحية البن الآتي من المناطق الجبلية القريبة، وهو أقل جودة من البن الذي كان يصدر من المخا والحديدة. إلا أن رخص أسعاره وقرب اللحية من ميناء جدة، كان يقلل من تكاليف شرائه ونقله، مما جعل الكثيرين يفضلون شراءه من اللحية وشحنه إلى جدة. ولهذا فقد كان هناك تجار - خاصة من مصر - يقيمون في اللحية ويتولون شراء البن وتصديره إلى جدة ومنها إلى مصر وتركيا. وإلى جانب التجار الأجانب المقيمين كان هناك تجار يأتون سنوياً لشراء البن بأنفسهم[2].

وكان البن الآتي من بلاد حاشد وبكيل يصدر من ميناء جيزان إلى جدة ثم إلى السويس فالقاهرة[3]. ومن ميناء عدن كان يصدر بعض البن ولعله يأتي من منطقتي يافع وقعطبة[4].

---

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 228, 226 - 227

(2) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 305 - 306

(3) Niebuhr, C., BVA, S. 267

(4) Niebuhr, C., BVA, S. 254 - 255

(*) قبل أن يعرف الأوروبيون البن كان الهولنديون، ابتداء من القرن السادس عشر، يقومون بشرائه من اليمن وبيعه في بعض البلدان الآسيوية بكميات قليلة، ولم يصبح سلعة تجارية ذات أهمية إلا حوالي عام ١٧٠٠، عندما بدأ طلب الأوروبيين له. وقد أدت زيادة الطلب عليه وارتفاع أسعار شرائه في اليمن إلى قيام الهولنديين والفرنسيين والإنجليز بزراعته في مستعمراتهم. إلا أن قهوته كانت أقل جودة من البن اليمني. قارن: عادل د.م. هوسه وتعاملها التجاري ص ٣١

- سلع أخرى

مع أن اليمنيين قد استعاضوا ـ كما ذكر نيبور ـ عن تجارة البخور والصبر التي ازدهرت في تاريخهم القديم، بتجارة البن؛ إلا أن بعض الصبر لا زال ـ أي في عصر نيبور ـ يصدر من ميناء المخا، ولا زال صبر سقطرة مضرب عالمياً(١). كما يصدر الصبر والبخور من ميناء الشحر(٢) ومن موانئ مرباط وحسك وظفار. ويعتبر بخور ظفار أجود من بخور مرباط وحاسك، وهذا أجود من بخور الشحر(٣). ويصدر من الموانئ الحضرمية أيضاً المر ودم التنين Drachenblut خاصة إلى مسقط والهند(٤).

ومن السلع اليمنية الأخرى التي تصدر إلى الخارج أعواد الأراك التي تستخدم لتنظيف الأسنان، حيث تصدر بكميات كبيرة، إلى المدن العربية كالبصرة وجدة(٥). كما تصدر كميات كبيرة من الزبيب(٦)، لم يشر نيبور إلى الجهات التي كانت تصدر إليها. وفي ميناء جيزان ازدهرت تجارة أوراق السنا Senesblättern، ذات النوعية الممتازة التي كانت تنمو في منطقة جيزان(٧). ويصدر الورس بكميات كبيرة إلى عمان(٨). وفي سياق حديث نيبور عن الأسعار، أورد أسماء سلع أخرى، يمنية كالصدف، وغير يمنية، تستجلب من بلدان أخرى، ويعاد تصديرها من ميناء المخا(٩)، كما سنرى.

ب. اهم الواردات:

كانت أهم السلع المستوردة تأتي إلى اليمن من الهند. وقد سبقت الإشارة

---

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 284.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 282.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 287.

(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 283.

(٥) Niebuhr, C., BVA, S. 149.

(٦) Niebuhr, C., BVA, S. 147 - 148.

(٧) Niebuhr, C., BVA, S. 267.

(٨) Niebuhr, C., BVA, S. 238.

(٩) Niebuhr, C., BVA, S. 220 - 221.

الأقمشة الهندية. وقد ذكر نيبور أن الأقمشة الأقل جودة من الأقمشة الهندية كانت تستورد من مصر[1]. وفي حديثه عن سوق صنعاء أشار إلى وجود بضائع هندية وتركية وإيرانية. ولكنه لم يبين أنواعها. أما السلع الأوروبية فقد كان اليمنيون لا يحتاجون إليها كثيراً. لهذا «فإن معظم ما يجلبه الأوروبيون إليها هو سلع هندية. والسلعة الأوروبية الوحيدة، المطلوبة كثيراً، هي الحديد، الذي يشتريه الإنجليز من الدينمارك، ويأتون به إلى ميناء المخا»[2].

وعند حديث نيبور عن الأسعار - كما سنرى - ذكر أسماء سلع كانت تستورد إلى اليمن، وهي الفولاذ ومواسير البنادق والمسدسات ومادة الرصاص والقصدير والسيوف والمرايا والسكاكين والكاسات والشموع[3].

وقد سجل نيبور ملاحظة، تشير إلى شكل من أشكال الحركة التجارية الداخلية في اليمن، بين موانىء حضرموت، وموانىء تهامة، وعدن، حيث كان تجار الحضارمة يجلبون الأقمشة والمفارش والجنابي إلى موانىء مملكة الإمام[4].

وتحدث نيبور عن نظام تسديد أثمان البضائع الأجنبية المستوردة، فذكر أن أثمان هذه البضائع تسدد في ثلاث فترات، كل فترة منها مدتها مئة يوم تقريباً:

- الفترة الأولى تمتد من ١٧ سبتمبر وحتى ٢٢ ديسمبر.
- الفترة الثانية تمتد من ٢٣ ديسمبر وحتى ٢ أبريل من العام التالي.
- الفترة الثالثة تمتد من ٣ أبريل وحتى ١٠ يوليه.

---

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 217 - 248.
(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. I, S. 446 - 447.
(٣) Niebuhr, C. BVA, S. 220 - 221.
(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 283.

وكل بضاعة تسلم ضمن إحدى هذه الفترات، لا بد أن يسدد ثمنها قبل انقضاء الفترة نفسها[1].

ويبدو من خلال ما سجله نيبور، أثناء رحلته في يومياته، أن التجار، في المراكز التجارية والموانئ المختلفة، كانت تربطهم ببعضهم علاقات وثيقة ويستدل على ذلك من خلال التوصيات، التي حملتها البعثة معها، من تجار عرب ويهود في جدة إلى تجار في اللحية والمخا. ومن تجار في اللحية إلى زملائهم في بيت الفقيه. ومن بيت الفقيه إلى المخا. ومن المخا إلى تعز وصنعاء[2] بل إنه كانت تتم تحويلات مالية، على الأقل بين التجار الهنود. فقد ذكر نيبور أن اليمنيين «لا يتعاملون بالتحويلات المالية بل يحملون النقود معهم فيكونون بذلك عرضة للسرقة. ولكن المسافر يستطيع أن يتعامل مع الهنود، فهم أناس أمناء. وبواسطتهم يمكنه أن يحصل على تحويل مالي، كما يمكنه أن يحصل على توصيات إلى زملائهم، في الموانئ والمدن المختلفة، لتقديم المساعدة اللازمة له»[3].

جـ ـ الأسعار والأوزان[4]:

في تسجيل نيبور للأسعار اعتمد على ما دونه زميله فورسكال في أوراقه، التي خلفها، من أسعار للبضائع، التي كانت قد جلبتها سفينتان هولنديتان إلى ميناء المخا، وللبضائع، التي حملتها السفينتان معهما من المخا. وكان فورسكال قد دون هذه الأسعار معتمداً على معلومات استقاها من الوكيل التجاري للباخرتين. وقد أبدى نيبور بعض التحفظ على دقة هذه الأسعار، وذلك بسبب ما لمسه في الوكيل التجاري من طبيعة استغلالية. ومع ذلك ورغم

---

(1) انظر هامش.

(2) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 445 - 446.

(3) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 296, 317, 360, 373, 377.

(4) انظر: Niebuhr, C., BVA, S. 289

Niebuhr, C., BVA, S. 219 - 221.

نيبور يمكن لهذه الأسعار، وبعد مضي أكثر من مئتي عام على بحثها، أن تعطينا ولو صورة تقريبية للأسعار المتداولة في السوق في ذلك الزمن سواءً بالنسبة للبضائع المستوردة، أو بالنسبة للبضائع المصدرة.

. أسعار بعض البضائع المستوردة إلى ميناء المخا:

الحديد	٣٠ ريالاً للبهار الواحد.
الفولاذ	٤٠ ـ ٥٠ ريالاً للبهار الواحد.
ماسورة البندقية	١٠ ـ ١٢ ريالاً للقطعة الواحدة(*).
مادة الرصاص	ريالين للفراسلة. ولم يكن يحق لغير العامل أن يشتري مادة الرصاص.
التصدير	٥ ريالات للفراسلة.

ولم يورد نيبور أسعار المرايا والسكاكين والسيوف والكاسات والشموع التي جاءت بها السفينتان المذكورتان. أما المسدسات فلم تتمكن السفينتان من بيع شيء منها.

. أسعار البضائع المصدرة:

. البن/٥٥ ريالاً للبهار الواحد. ويتم دفع ريال واحد إضافة إلى السعر، مقابل عملية الوزن، ونصف ريال كبقشيش. وذلك عن كل بهار من البن. وإضافة إلى ذلك يتم دفع ٣٪ من القيمة، كضريبة جمركية(**)، وهذا ينطبق على جميع أنواع البضائع المصدرة.

(*) كان اليمنيون يستوردون ماسورة البندقية فقط أما خشب البندقية وأجزاؤها الأخرى فكانوا يصنعونها، ويركبونها محلياً، وكانت بنادقهم تعمل بواسطة الفتيل.
انظر:
Niebuhr, C., BVA, S. 220.

(**) ذكر نيبور في موضع آخر أن الإمام كان يحصل على ربع قيمة البن المصدر. وليس واضحاً في كتابات نيبور فيما إذا كانت الضريبة المذكورة (٣٪) تدخل ضمن الربع أم أن هذه الضريبة يدفعها المشتري الأجنبي في حين يدفع الربع من قبل التاجر المحلي أو المزارع. انظر:
Niebuhr, C., BVA, S. 210.

ـ الصبر الطبي/ ٢٠ ريالاً للبهار الواحد.
ـ المر / $٥\frac{١}{٢}$ ريال للفراسلة. وأفضل أنواعه تجلب من الحبشة ويعاد تصديرها.
ـ البخور/١٢ ـ ١٥ ريالاً للبهار الواحد.
ـ السنا/٥ ريالات للبهار الواحد.
ـ خواتم ذهبية، حبشية المنشأ/ ٢٠ ـ ٢٢ للوقية (الوقية تساوي $\frac{١}{١٥}$ رطل هولندي).
ـ العاج، حبشي المنشأ/ ١٠٠ ريال للبهار الواحد.
ـ الصدف/ ريال واحد للمئة قطعة.
ـ النحاس/٧ ـ ١٠ ريالات للفراسلة، ويجلب من الحجاز وسورية ثم يعاد تصديره.

هذا وقد أشرنا سابقاً إلى أثمان الخيول التي كانت تتراوح بين ٨٠٠ـ١٠٠٠ ريال للخيل الواحد.

أما الأوزان فقد اعتمد نيبور في إيرادها على معلومات استقاها من تاجر انجليزي، زار بيت الفقيه والمخا عدة مرات، ودرس بعناية ـ كما يذكر نيبور ـ الأوزان المختلفة، التي كان يجري التعامل بها، في كل من بيت الفقيه والمخا. ويبدو أن الأوزان لم تكن جميعها موحدة. فهناك أوزان في بيت الفقيه، تختلف في مقاديرها، عنها في المخا. ولعل ذلك كان حال الأوزان في المدن، والمناطق اليمنية المختلفة. وسنوردها فيما يلي كما أوردها نيبور نفسه:

١٦ ديتو Dito = قفلة واحدة Caffila.

١٠ قفلات Caffilas = وقية واحدة Wakie(*).

(*) لا يبدو محتملاً أن تكون هذه الوقية هي نفس الوقية التي كان يوزن بها الذهب وتساوي $\frac{١}{١٥}$ رطلاً هولندياً كما هو مذكور أعلاه.

١½ وقية = بيك واحد Bek.

٨٧ بيك = وزن ١٠٠ ريال اسبانيا.

الأوزان الكبيرة في المخا:

رطل واحد = ١٥ دقيقة.

موند واحد Maund = ٤٠ ديتو.

٤٠٠ ديتو أو ١٠ موند = فراسلة واحدة.

٦٠٠٠ ديتو أو ١٥ فراسلة = بهار واحد Bahar.

الأوزان الكبيرة في بيت الفقيه:

٢٩ ديتو = موند واحد.

٢٩٠ ديتو = فراسلة واحدة.

١١٦٠٠ ديتو أو ٤٠ فراسلة = بهار واحد.

وقد ذكر نيبور أن صديقه فورسكال كان قد سجل أيضاً أوزاناً مشابهة، وأورد الأونسة والرطل الهولندي والرطل الإنجليزي. وهما مختلفان. فالفراسلة تساوي ٢٨ رطلاً هولندياً وتساوي ٣٢ رطلاً إنجليزياً[١].

٦. العملات:

أشار نيبور مرة واحدة فقط إلى عملية بيع وشراء، تمت بطريقة المقايضة(*)، وذلك في سياق حديثه عن رحلة البعثة من جدة إلى اللحية ففي منطقة، ذكر أنها تقع بين أبو عريش والحجاز، قدم بعض السكان لسنبكة، التي كانت تقل أعضاء البعثة، الحليب والزبدة، مقابل الذرة والتنزلاء[٢]

(١) Niebuhr, C.: BVA, S. 220

(٢) Niebuhr, C.: BVA, S. 270 u. RB, Bd. 1, S. 292-293

(*) كانت طريقة المقايضة لا تزال موجودة في مناطق الريف اليمني إلى عام ١٩٦٢م، مما يجعلنا نعتقد أنها كانت أكثر انتشاراً في عصر نيبور. ولعل عدم تكرار ذكره لها يرجع إلى أنه لم يصادفها شخصياً أثناء رحلته سوى مرة واحدة

ويبدو من ذلك ومن كل ما تحمل كتاباته من معلومات يدل على أن العملات المستخدمة كانت هي وسيلة الدفع، وهي في معظمها عملات أجنبية، أما العملات المحلية فقد كانت مقتصرة على القطع النقدية الصغيرة(*). وكانت هذه عملات فضية وعملات ذهبية كما سنرى.

أ. العملات الأجنبية:

إن أكثر عملة تكررت إشارات نيبور إليها هي الريال النمساوي، الذي كان يسمى في أوروبا الريال القيصري الروماني(**) وأما اليمنيون فكانوا يسمونه ريال حجر[1]، وهو عملة نمساوية. وذكر نيبور أنه عندما لوحظ في فيينا أن هناك طلب متزايد على الريال القيصري، وأنه أصبح يصدر بكميات كبيرة إلى بلدان شرق البحر الأبيض، وخاصة إلى مصر، تم إنقاص محتواه من الفضة بنسبة ٥٪ عن السابق. وقد تنبه اليمنيون إلى ذلك سريعاً، وأخذوا يحرصون على أن لا يقبلوا الريالات الجديدة التي سكت بعد عام ١٧٥٦[2]م(***).

وإلى جانب الريال القيصري (النمساوي) كانت هناك عملة قيصرية أيضاً، من فئة نصف الريال. كما كان يوجد لدى التجار الريال الأسباني والريال الفرنسي. وكان الريال الأسباني يعتبر أفضل من الفرنسي. ولا يكاد المرء يعثر في اليمن على عملة ذهبية سوى الدوكاتن Ducaten، وهي عملة ذهبية كانت

---

(1)

(2) Niebuhr, C., BVA, S. 217-219

(3) Niebuhr, C., BVA, S. 217-219

(*) [illegible] وضع النقد في عهد المملكة المتوكلية اليمنية (١٩١٨ - ١٩٦٢).

(**) تسمية [illegible] نسبة للأسرة [illegible] ملكي. وقد أطلقت هذه التسمية في البلاد العربية في القرنين ١٧، ١٨ على عملات فضية كبيرة، هولندية وألمانية ونمساوية وفرنسية وأسبانية. وقد ضرب [illegible] ماريا تريزا، لأول مرة عام ١٧٥١ م [illegible]. في كل مرة تدل على ذلك [illegible]

(***) [illegible] وكذا الموسوعة، ص ٩٠٥

Rittmann, D. Munzsammlerslexikon, Unter Taler, Ducaten

سنت في البندقية وكانت قيمتها تصل إلى ٢٦ ريالاً[1]. وهناك عملة صغيرة تكرر ذكرها لدى نيبور وهي الأشتوفر Stuver. وهي في مستوى الفلس والسنت. ولم يذكر نيبور مصدرها.

وقد أورد نيبور في كتابه (وصف بلاد العرب) أسماء عديد من العملات الأوروبية، ذكر أنها شائعة الاستعمال في شرق البحر الأبيض، كالدوكاتن الهمبركي والشلنج والروبية إلخ[2]... ولعل هذه العملات أو بعضها كان مستعملاً في البلاد العربية. إلا أن نيبور لم يشر في يومياته إلى وجود أي منها في اليمن، باستثناء ما سلف ذكره.

ب . العملات المحلية:

لم تكن النقود في اليمن تسك ـ كما أشار نيبور ـ إلا بكميات قليلة، وقد أن أحد أبناء الإمام المؤيد محمد بن إسحاق، واسمه أحمد، كان يقيم في الدن يحصل على إيرادات وصاب العالي والسافل، قام بسك عملة باسمه، قبل سنوات من مجيء (نيبور) إلى اليمن، مما دفع بالإمام المهدي عباس إلى إجباره على القدوم إلى صنعاء والإقامة فيها[3]. أما الإمام المهدي عباس نفسه فقد قام بسك عملة ذهبية محلية صغيرة، قيمتها ريال ونصف، وثلاثة أرباع الريال. وذلك بتذويب عملة البندقية الذهبية (الدوكاتن)، وإعادة سكها. ولكن هذه العملة الذهبية المحلية لم تكن رائجة الاستعمال، ولا يكاد المرء يعثر عليها لدى الصرافين إلا نادراً. كما تم سك ستة آلاف قطعة من العملة الذهبية، قيمة القطعة ثلاثة ريالات. ولكن لا يستطيع المرء ـ كما أشار نيبور ـ أن يعثر عليها حتى لدى يهود صنعاء(*). أما العملات المحلية الفضية فقد سكت بقطع

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 217-219

(2) Niebuhr, C., BVA, S. 97-98

(3) Niebuhr, C., BVA, S. 248

(*) كان معظم المشتغلين في صنعاء بالصيرفة من اليهود. انظر Niebuhr, C., BVA, S. 216

مختلفة الأحجام والقيم. وأكبر قطعة منها كانت تساوي نصف ريال، وتسمى بأسماء مختلفة. فقد كان هناك الكبير والخماسي والباولة والحرف. وكان الريال يساوي ٣٢ كبيراً أو ٦٤ خماسياً أو ٧٢ باولة أو ١٦٠ حرفاً. وكانت هناك أنواع كثيرة من الخماسي، بعضها يستعمل في مناطق ولا يقبل في مناطق أخرى. وكانت الأسعار تحسب بصور مختلفة، «ففي اللحية تحسب الأسعار عند شراء شيء من السوق بالباولة. أما في بقية مناطق تهامة فبالخماسي. وفي المناطق الجبلية بالحرف وبالكبير. وأما الصيارفة فيحسبون أسعار العملة وفقاً لعملة وهمية هي البقشة(*)، حيث يساوي الريال ٨٠ بقشة»[1].

وقد أثبت نيبور في كتابه (وصف بلاد العرب) صورة لنصف الريال اليمني، وقدم وصفاً له(**)، وقد كتب على أحد وجهيه: أمير المؤمنين المهدي العباس بن المنصور بن المتوكل. وعلى الوجه الآخر: بن القاسم بن الحسين بن المهدي، دامت خلافته، ضرب في صنعاء ١١٧٧[2]. ولاحظ نيبور أن هناك عملة عربية وتركية، مكتوب عليها عبارة (لا إله إلا الله محمد رسول الله). إلا أن العملة الجديدة، في تركيا والبلاد العربية، لم يعد يكتب عليها إلا اسم الحاكم ولقبه. ويقول نيبور: «وقد فسر لي أحد الملاّ في البصرة سبب ذلك، وهو أن المسلمين لا يريدون أن يلمس النصارى واليهود والوثنيين بأيديهم غير الطاهرة هذه الكلمات المقدسة. ولكني أشك في أن سلطان القسطنطينية وإمام اليمن يفكران نفس تفكير رجل الدين هذا. إذ أنهما،

---

(١) Niebuhr, S. 217-219, U.S. 141.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. XXXIV.

(*) يقصد نيبور هنا كما يبدو أن هذه العملة لم يكن يجري التعامل بها في السوق. ويحدث مثل هذا الأمر عادة إذا كان قد تم التعامل بعملة لفترة طويلة ثم اختفت، فإن التعامل بها بعد ذلك بصورة نظرية أو وهمية أمر مفهوم لأنها لا تزال باقية في أذهان الناس، فالريال والبريزة عملة اختفت من مصر ومع ذلك استمرت في أذهان الناس كعملة وهمية يتعاملون بها. ولكن من غير المحتمل أن يتداول الناس اسم عملة لم يسبق لهم التعامل بها.

(**) انظر الملحق.

بالأحرى، قد تركا كتابة هذه الكلمات على العملة ليفسحا مكاناً لكتابة اسميهما ولقبيهما[1].

وفي المخا لاحظ نيبور أن التجار، عندما يسلمون بعضهم مبالغ كبيرة، يلجؤون بدلاً من عد القطع النقدية، إلى وزنها؛ ولهذا فإن صراف الإمام يقوم بمراقبة وفحص موازين التجار والصرافين أيضاً[2].

أما عملية نقل النقود، فقد شاهد نيبور بنفسه تجار بيت الفقيه، وهم ينقلون نقوداً، من بين الفقيه إلى المخا، على ظهور الحمير[3]. ومن المخا تنقل كميات كبيرة من النقود على ظهر السفن إلى الهند. وقد عادت السفينة الإنجليزية، التي أقلت من بقي حياً من أعضاء البعثة، عادت إلى الهند وعلى ظهرها مبلغ من الريالات القيصرية وعملة البندقية الذهبية (الدوكاتن)، يساوي مئتين وخمسين ألف ريال[4]. وذكر نيبور أن بعض السفن، العائدة من جدة ومن البصرة إلى الهند، تحمل أيضاً نقوداً أوروبية على ظهرها، ثمناً للبضائع الهندية، التي جاءت بها «وإذا فكر المرء بكمية الفضة التي تأخذ طريقها من أوروبا، على شكل عملة إلى الهند والصين سنوياً، فإنه سيستغرب كيف أن أوروبا لم تُستنزف منذ وقت طويل. هذا إذا لم يضع في اعتباره الكنوز التي تجلب من أمريكا إلى أوروبا»[5].

٧ ـ الموانىء اليمنية وحركة السفن فيها:

تضمن عرضنا السابق للسلع، المصدرة والمستوردة، إشارات ضمنية إلى الموانىء اليمنية. وسوف نحاول هنا رسم صورة لهذه الموانىء، في القرن الثامن عشر، من خلال إشارات نيبور المتفرقة إليها. فنقف على حالتها

---

(1) Niebuhr, C. BVA. S. 99-100.

(2) Niebuhr, C. BVA. S. 219.

(3) Niebuhr, C. RB. Bd. 1. S. 437.

(4) Niebuhr, C.. RB. Bd. 1. S. 445-446.

(5) Niebuhr.. RB. Bd. 1. S. 445

ولمصبها وحركة السفن منها وإليها، وعلاقاتها بالموانىء الأجنبية.

فمن الشمال إلى الجنوب بدأت ملاحظات نيبور عن الموانىء اليمنية بعد أن غادر حدود الحجاز. وقد ذكر أن «كل المناطق الواقعة جنوب حلي تعتبر جزءاً من اليمن»[١]. إلا أن أول ميناء هام في المناطق اليمنية أشار إليه هو ميناء جيزان، التابع لمنطقة أبو عريش. وكانت معاملة شريف أبو عريش للأعراب، وخاصة لرعايا إمام صنعاء، معاملة غير ودية[٢]. ومع ذلك فقد كان ميناء جيزان هو ميناء تصدير البن الآتي من منطقة حاشد وبكيل إلى جدة، ومنها إلى السويس والقاهرة، وكانت تصدر منه أيضاً أوراق السنا، كما سبقت الإشارة. وكان لتجار جيزان علاقات تجارية مع الموانىء الأفريقية الشرقية[٣].

وأول ميناء هام إلى الجنوب من جيزان هو ميناء اللحية، وهو أول موانىء الإمام من جهة الشمال. وقد سبقت الإشارة إلى أهميته بالنسبة لتصدير البن إلى جدة بشكل خاص. وكان لتجاره أيضاً علاقات مع الموانىء الأفريقية الشرقية[٤]. وقد نزلت البعثة فيه، فرست السفينة التي أقلتها على بعد ¾ الميل (ميل ألماني[*])، أي حوالي ٥,٦٥٠ كلم، من اليابسة وتم إنزال الأفراد والأمتعة بواسطة القوارب الصغيرة[٥].

وكان ميناء الحديدة أفضل حالاً من ميناء اللحية. ومع ذلك لم يكن يستطيع استقبال السفن الكبيرة[٦]. وكانت الحديدة تعتبر ميناء بيت الفقيه. وقد حل ميناؤها محل ميناء غليفقة، الذي ربط نيبور بين أهميته وأهمية مدينة زبيد. فقد أدى تراجع أهمية ميناء غليفقه إلى تراجع أهمية زبيد نفسها. إذ أن

---

(١) Niebuhr, C., RB. BD. 1. S. 291.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 294.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 267.

(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 267.

(٥) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 295, 298.

(٦) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 324.

(*) انظر هامش ص ١٤٩ من هذا البحث.

مهمة كانت تعتبر ميناء زبيد. وهكذا حلت بيت الفقيه محل زبيد في الاهمية، وحل ميناء الحديدة محل ميناء غليفقة. وقد حاول نيبور أن يفسر اندثار ميناء غليفقة، وهو يشاهد مدينة غليفقة، وقد أصبحت مجرد قرية صغيرة مهملة، بقوله: ويبدو أن السبب في ذلك ليس فقط تراجع مياه البحر في السواحل العربية نحو الشعاب المرجانية، وإنما أيضاً بسبب الرمال الناعمة الكثيفة التي تتراكم هنا[١].

وقد أشار نيبور إلى ميناء سماه ميناء موسى، وقال عنه إنه «كان مزدهراً ومشهوراً في التاريخ القديم»[٢]، وأن موضعه ربما كان في قرية موشد(*) Mauschid نفسها، وذلك لتشابه الاسم والموقع الجغرافي[٣].

أما ميناء المخا فهو أهم الموانىء اليمنية على الإطلاق. ومنه اكتسب البن اليمني اسمه العالمي مُكا. ويقع ضمن مملكة الإمام، وله علاقات تجارية مع الموانىء الأفريقية الشرقية[٤]. وقد تضمنت كتابات نيبور أيضاً إشارات متفرقة إلى الموانىء اليمنية الجنوبية التالية: ميناء عدن: وهو ـ كما أشار ـ ميناء ممتاز، إلا أن علاقة حاكم عدن بجيرانه سيئة، مما أدى إلى عدم وجود حركة تجارية نشطة، ومع ذلك فلا يزال البن الآتي من يافع وقعطبة يصدر من هذا الميناء[٥].

موانىء الشحر ومرباط وحاسك وظفار: وأهم نشاط تجاري لهذه الموانىء هو تصدير البخور والصبر، خاصة إلى عمان والهند[٦].

---

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 323.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 358.

(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 358.

(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 267.

(٥) Niebuhr, C., BVA, S. 254-255.

(٦) Niebuhr, C., BVA, S. 282, 287.

(*) في موضع آخر ذكر نيبور أن اسم هذه القرية هو موشد أو موسج ولعله يقصد موشج التي تقع في الموقع نفسه الذي حدده، على الساحل بين المخا وزبيد. ولأنه قد اعتمد كثيراً على السمع في تسجيل أسماء القرى والأماكن فقد التبست عليه بعض الأسماء بسبب تشابه مخارج بعض الحروف. انظر: BVA, S. 225.

وقد ذكر نيبور أن السفن تحتاج إلى مرشدين، أثناء مرورها في المنطقة الواقعة بين ميناتي حمة واللحية، وخاصة السفن الأوروبية، وذلك لكثرة الشعاب المرجانية ولأن الموانيء في هذه المنطقة ليست موانيء بالمعنى المفهوم، على خلاف الموانيء الواقعة بين جدة والسويس[1].

وتحدث نيبور عن نظام هبوب الرياح على السواحل اليمنية وتأثيرها على حركة السفن. فالرياح تهب ستة أشهر من الجنوب وستة أشهر من الشمال وهذا لا يعني - كما لاحظ نيبور - أنها لا تهب رياح من اتجاهات أخرى، ففي الغالب تسيطر الرياح الشمالية. ومع ذلك تهب أحياناً رياح غربية. ومرة هبت كذلك رياح شرقية. إلا أن الرياح الشمالية، والرياح الجنوبية، تبقى هي المسيطرة والمتحكمة في حركة السفن، من الموانيء اليمنية وإليها[2]. فالسفن التي تبحر من الموانيء اليمنية إلى الهند مثلاً لا تبحر قبل شهر مايو[3].

وقد لاحظ نيبور، أن اليمنيين لم يعودوا قادرين على السيطرة على حركة النقل البحرية، بل لم يعودوا قادرين حتى على نقل كل بضائعهم المصدرة على سفنهم، فهم يقومون فقط بنقل جزء من البن، من موانيء المخا والحديدة واللحية وجيزان إلى جدة، وبنقل جزء من البخور والصبر، من الموانيء الجنوبية في حضرموت إلى مسقط. في حين تتولى السفن العمانية نقل الجزء الآخر.

وفي سياق حديث نيبور عن رحلة البعثة من جدة إلى اللحية، أكد تفوق السفن العمانية على السفن اليمنية. فقد نصحت البعثة وهي في جدة أن تبحر على سفينة عمانية، لا على سفينة يمنية، فأشرعة السفن العمانية شبيهة بأشرعة السفن الأوروبية والهندية. في حين أن أشرعة السفن اليمنية مصنوعة من

---

(1) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 287-288.

(2) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 445.

(3) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 309.

بحر، كما أن قادة السفن العمانية أكثر خبرة، ومعرفة بالبحار، من اليمنيين،
وقد ثبت لنيبور أن السفن العمانية أفضل من اليمنية، عندما لحقت السفينة
العمانية التي أقلت البعثة، بعد سبعة أيام من إبحارها من جدة، بسفينة يمنية،
كانت قد غادرت ميناء جدة، قبل إبحار السفينة العمانية بثلاثة أيام. وكان هذا
كما يقول نيبور: «دليلاً على أن سفينتنا العمانية أفضل من السفينة اليمنية، لأن
اليمنية عند هبوب رياح معاكسة خفيفة لا تستطيع، بأشرعتها الحصيرية، حتى
أن تغادر الميناء»[1].

ولعله بسبب هذا التفوق وجد العمانيون مجالاً للاشتغال بنقل البضائع،
من وإلى الموانىء اليمنية، حتى إن كثيراً من العمانيين - كما أشار نيبور -
أصبح يعيش على نقل البن من اليمن إلى موانىء الخليج[2]. وكانت حركة
النقل بين اليمن وعمان تتم عن طريق البحر، لأن طريق البر، كان طريقاً غير
مأمون ومرهق ويمر عبر مناطق كثيرة تتبع مشايخ مستقلين كثيرين[3].

وإذا وضعنا في اعتبارنا ما ذكره نيبور من أن بعض السفن الأجنبية تعود
إلى الهند، بعد بيع حمولتها من بضائع الهند في المخا، غير محملة، وذلك لأن
أهم ما تصدره اليمن هو البن، والهنود لا يحبون البن كثيراً[4]، فإنه يمكن
الاستنتاج، أن حركة السفن المحملة بالبن من اليمن كانت تتركز في اتجاهين:
اتجاه جدة، حيث ينقل البن من هناك إلى السويس في مصر، كما سبقت
الإشارة، واتجاه مسقط وموانىء الخليج، العربية والإيرانية. وقد شاهد نيبور
خلال رحلة البعثة من جدة إلى اللحية سفناً كثيرة، صغيرة الأحجام، محملة
بالبن، ومتجهة من موانىء اليمن إلى ميناء جدة[5].

(1) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 289 - 290.
(2) Niebuhr, C., BVA, S. 35.
(3) Niebuhr, C., BVA, S. 289. U. RB, Bd. 1, S. 286.
(4) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 445 - 446.
(5) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 290.

تماماً بحركة السفن الأجنبية، فيمكن أن نستخلص من إشارات نيبور المقتضبة الآتية:

كانت شركة الهند الشرقية الإنجليزية ترسل من أوروبا إلى المخا، عبر بومبي بالهند، سفينة كل عامين، لجلب البن. وكان عليها في كل مرة تاجر ينزل في المخا، ويتوجه إلى بيت الفقيه، ليقضي فيها بضعة أشهر. وعدا عن هذه السفينة التابعة للشركة، كانت تأتي إلى الموانىء اليمنية سفن إنجليزية أخرى، من قبل تجار من البنغال ومدراس وبومبي وسورات[1]. ورغم أن شركة الهند الشرقية الإنجليزية لم تكن ترسل سوى سفينة واحدة كل عامين، إلا أنها ظلت تحتفظ ببيوت مستأجرة في كل من المخا وبيت الفقيه بصورة دائمة. ويبدو أنها لم تكن تحقق من تجارتها مع الموانىء اليمنية، ما كان يحققه التجار الإنجليز المقيمون في الهند من مكاسب. فقد أرسل هؤلاء عام ١٧٦٣ م إلى ميناء المخا سفينتين من البنغال، وسفينة من بومبي، وسفينتين من سورات. وكان التجار الإنجليز يتركون ـ أحياناً ـ تاجراً منهم في المخا، ليبقى فيها طوال العام. ولكن بعد أن عومل أحدهم معاملة سيئة، أصبح جميع التجار، الذين يأتون على السفن، يحرصون على مغادرة المخا، عائدين على سفنهم في نهاية الموسم، تاركين بضائعهم، التي لم يتمكنوا من بيعها، لدى وكلائهم التجاريين[2].

وأما الفرنسيون فلم يعودوا يرسلون سفناً إلى الموانىء اليمنية منذ سبع سنوات على مجيء نيبور إلى اليمن، وذلك نتيجة لحرب السنين السبع التي كان من أبرز أطرافها فرنسا وبريطانيا(*). ومع ذلك فقد ظلوا يحتفظون بمقرات بيوتهم التجارية في كل من المخا وبيت الفقيه، وكانت إيجاراتها تدفع بواسطة وكيلهم الهندي الجنسية[3].

---

(1) Niebuhr, C., BVA, S. XII - XIII, 222

(2) Niebuhr, C., RB, Bd. I, S. 444

(3) Niebuhr, C., RB, Bd. I, S. 444, U. BVA, S. 222.

(*) نشبت حرب السنين السبع في الفترة من ١٧٥٦ م إلى ١٧٦٣ م وكان من نتائجها أن أصبحت بريطانيا الدولة الاستعمارية الأولى في العالم على حساب فرنسا.

واما الهولنديون فقد كان آخر عهد سفنهم بالموانىء اليمنية قبل عامين من مجيء نيبور، عندما جاءت إلى المخا سفينتان من مستعمرتهم (بتافيا Batavia)(*). ويبدو ان تجارتهم مع الموانىء اليمنية، لم تعد مربحة، لهذا توقفت سفنهم عن المجيء إليها[1].

واما البرتغاليون، الذين كانت لهم تجارة مزدهرة في الماضي مع الموانىء اليمنية، فقد توقفت سفنهم عن المجيء، منذ سنوات طويلة[2].

وقد أكد نيبور أن اليمنيين، بل والعرب عموماً، قد خسروا خسارة كبيرة، عندما اكتشف الأوروبيون طريق رأس الرجاء الصالح(**)، وأصبحوا يكتفون بمد أنفسهم في أوروبا، بواسطة سفنهم، بالبضائع الهندية والصينية، بل ويمدون بها أيضاً عرب المغرب ومصر وتركيا[3].

وفي سياق ملاحظاته عن التجارة الأجنبية مع الموانىء اليمنية، سجل نيبور ملاحظة أشبه ما تكون بتوصية موجهة إلى الدينماركيين. فالسلع الأوروبية لا تهم اليمنيين كثيراً باستثناء الحديد، الذي يتاجر به الإنجليز، يشترونه من الدينمارك، ويجلبونه إلى المخا وجدة، «وهنا من الممكن جداً أن يتولى الدينماركيون أنفسهم جلب الحديد الأوروبي والأقمشة البنجالية وغيرها من البضائع الهندية، وأن يقوموا بنشاط تجاري ممتازل، مع الموانىء

---

(1) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 362, 444. U. BVA, S. 222.
وقارن أيضاً: فان دام، هولندا، ص ٣٠ - ٣١.

(2) Niebuhr, RB, Bd. 1, S. 444, U. BVA, S. 222.

(3) Niebuhr, C., BVA, S. 284, 285.

(*) بتافيا هي جاكرتا عاصمة أندونيسيا. وقد كان هذا هو اسمها حتى عام ١٩٥٠. انظر: NUL, Bd. 1, S. 404.

(**) منذ اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح قضي نهائياً على دور اليمن كوسيط تجاري. ومع ذلك فقد ظلت سوقاً تلتقي فيه تجارة الهند والصين بتجارة الشام ومصر وتركيا وأوروبا. كمثال للسلع التي كانت تأتي من الشرق والغرب إلى المخا في بداية القرن السابع عشر انظر: براور، اليمن، ص ٩٨ - ١٠٠.

شعرية، منطلقين من مستعمرتهم ترنكيلر، مثلما يعمل الإنجليز منطلقين من مستعمراتهم أيضاً»[1].

٨. القوافل التجارية:

أشار نيبور إلى أن القوافل التجارية كانت قديماً تشق (بلاد العرب) من الجنوب إلى الشمال. وبهذا لم تكن الموانىء ، التي تصل إليها بضائع الهند، تحقق وحدها مكاسب مالية، بل كانت المدن الأخرى داخل البلاد تحقق مكاسب أيضاً. وكذا البدو، الذين كانوا يزودون القوافل بالجمال. وذكر أن مثل هذه القوافل كانت لا تزال موجودة عندما كان هاينرش مدليتون Heinrich Midleton (*) في المخا وذلك عام ١٦١١ م، فقد قدمت في ذلك العام قافلة كبيرة إلى المخا ضمت تجاراً من دمشق والسويس ومكة، جاؤوا ليتاجروا مع التجار القادمين إلى المخا من الهند[2].

وإضافة إلى هذه الإشارة، تعرض نيبور مراراً إلى ذكر السفر مع القوافل. إلا أننا لا نستطيع أن نستدل مما ذكره على أن تلك القوافل كانت قوافل تجارية، إلا على سبيل الافتراض. وعلى أي حال فقد كانت تلك القوافل وفقاً لإشاراته، تتحرك ضمن المناطق اليمنية، كما كان بعضها يتجه نحو الحجاز عن طريق صعدة.

وقد تحدث نيبور عن قافلة الحج ، التي ـ كما ذكر ـ كان يرأسها عادة واحدة من وجهاء بيت الكبسي، وكانت رحلتها من صنعاء إلى مكة تستغرق خمسة وأربعين يوماً. مع أن المسافة بين المدينتين حسب تقديره لا تتجاوز مئة ميل

---

(1) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 336-447.

(2) Niebuhr, C., BVA, S. 285.

(*) هو السير هنري ميدلتون ، الذي قاد الرحلة البحرية السادسة لشركة الهند الشرقية الإنجليزية. ورسى في ميناء عدن والمخا، أواخر عام ١٦١٠ م وتم اعتقاله من قبل عامل المخا ومعه حوالي ثلاثين بحاراً من بحارة سفنه وأخذوا جميعاً إلى صنعاء. ثم تمكن من الهروب إلى سفنه الراسية في الميناء. للمزيد انظر: ماكرو، اليمن والغرب، ص ٢٦ ـ ٢٧. وبراوور، اليمن، ص ١١٢ ـ ١١٣.

نقر، وهي مسافة يمكن للمسافر أن يقطعها في ما لا يزيد عن عشرين يوماً يجعل القافلة تتوقف في المدن التي تمر بها لممارسة التجارة[1]، مما كان يجعلها تحتاج إلى اكثر من ضعف الزمن المعتاد للوصول إلى مكة.

٩. إيرادات الإمام:

يمكننا أن نصنف إيرادات الإمام في صنعاء، استناداً إلى كتابات نيبور، في نوعين:

أولهما: إيرادات المناطق الزراعية، **وثانيهما:** إيرادات الجمارك، وخاصة جمرك الموانيء.

ولم يكن الإمام يتسلم إيرادات جميع المناطق الزراعية، فقد كانت هناك مناطق تذهب إيراداتها إلى أفراد من أسرة الإمام، أو إلى أسر اخرى. فعلى سبيل المثال، كانت تذهب إيرادات منطقة وصاب السافل، ومنطقة المخادر، إلى عائلة إسحاق[2]. وإيرادات رماع ابن حميد، وبعض القرى في منطقة سحان، إلى أفراد من أسرة الإمام[3].

أما بالنسبة لإيرادات الموانيء، فقد كانت إيرادات اللحية والحديدة والمخا، تذهب إلى خزينة الإمام، في حين أن جيزان وعدن وموانيء حضرموت جميعها، كانت تقع خارج حدود مملكته. وقد أبرز نيبور اهمية مينائي المخا والحديدة - بصورة خاصة - بالنسبة للإيرادات. فذكر أن الحركة التجارية في المخا كانت مزدهرة جداً، ولذا فإن إيراداتها الجمركية التي كان الإمام يحصل عليها، كانت إيرادات عالية.

وسجل نيبور في يومياته صورة لطريقة التعامل في جمرك المخا،

---

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 285.

(2) Niebuhr, C., BVA, S. 224, 237.

(3) Niebuhr, C., BVA, S. 232, 250, 251.

ومقدار الضرائب المتحصلة. فذكر أن التجار الأتراك والعرب والهنود كانوا يتوجهون ببضائعهم مباشرة إلى جمرك الميناء لمعاينتها من قبل موظفي الجمرك، ودفع الضرائب المستحقة عليها. وكانوا يدفعون عدة ضريبة تتراوح بين ٨٪ إلى ١٠٪ من قيمة السلعة في حين كان الأوروبيون يدفعون على بضائعهم، الآتية من أوروبا والصين والهند، ضريبة مقدارها ٣٪ فقط من قيمة السلعة، وكانوا يتمتعون بامتياز آخر، وهو أنه كان يسمح لهم بنقل بضائعهم مباشرة من السفن إلى مخازنهم في المدينة، حيث تتم معاينتها، من قبل موظفي الجمرك، في المخازن نفسها. وحتى تلك البضائع، التي كان الهنود يجلبونها إلى المخا من الهند ثم أصبح الإنجليز يتولون جلبها بعد أن بسطوا سيطرتهم هناك، أضحت تخضع للضريبة نفسها المقررة على الأوروبيين، أي ٣٪. ويقوم التجار المحليون في المخا بتسديد ضريبة على هذه البضائع مقدارها ٥٪ بعد شرائها من الإنجليز «وهكذا يحافظ اليمنيون على علاقاتهم الطيبة بالأوروبيين، وفي الوقت نفسه لا تلحق بهم خسائر نتيجة لتوسع تجارة الإنجليز في الهند»(١). وكان الأوروبيون يدفعون على البضائع التي يحملونها من المخا ضريبة مقدارها ٣٪ أيضاً(٢).

وأما بالنسبة لميناء الحديدة فقد اكتسب أهمية كبيرة، بفضل تصدير البن، وكان يحقق دخلاً جمركياً عالياً(٣). وكان عامل الحديدة يبدو - كما أشار نيبور - وكأنه لا عمل له سوى قبض الضريبة الجمركية(٤).

وإضافة إلى الإيرادات الجمركية، التي كانت تحققها الموانىء، كانت هناك ضرائب، تدفع على مرور البضائع والمسافرين، في الجمارك التابعة للمناطق الإدارية المختلفة. ففي قرية Oräsch كانت تدفع ضريبة جمركية على

---

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 444.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 444.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 228.

(٤) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 324.

...ـيع الذي كان ينقل إلى يافع، باعتبار أن يافع لم تكن تابعة للإمام[1]. وفي ...ـت الفقيه وزبيد، كما في قرية موشج الواقعة على الساحل بين زبيد والمخا ...بقرية Machna، الواقعة في طريق بيت الفقيه ـ العدين، كان المسافرون يدفعون ...مرتب على أحمال جمالهم[2]. وقد ذكر نيبور أنه وزميله فورسكال قد دفعا ...في قرية Machna ضريبة مرور مقدارها ربع ريال فقط. وعلق على ذلك بقوله: «...إن هذه الضريبة، وكل الضرائب التي تأخذها الحكومة اليمنية من المسافرين، ...ضئيلة جداً، مقارنة بما يجب أن يدفعه المرء في أوروبا»[3].

وكان يتم تسديد ضريبة البن في قرية الحدية Hadie التابعة لمنطقة ...كسمة، قبل أن يتم نقله إلى بيت الفقيه أو إلى الحديدة مباشرة[4]. ولم يوضح نيبور ما إذا كان يتم دفع ضريبة أخرى على هذا البن في ميناء التصدير.

وكان يتوجب على المسافرين المتجهين من مملكة الإمام إلى نجران بمنطقة قحطان ومكة، دفع ضريبة باهظة، في جمرك مدينة صعدة، التي كانت طريق السفر تمر عبرها. وكانت هذه الضريبة تذهب إلى إمام(*) صعدة[5].

وقد حاول نيبور أن يقدم صورة واضحة، عن مقدار إيرادات الإمام المهدي عباس، مع تأكيده، أنه «من الصعب على الرحالة الأجنبي أن يحصل على معلومات دقيقة، عن إيرادات حاكم بلد من البلدان، وخاصة في البلاد العربية. حيث يضطر المرء إلى طرح أسئلته بصورة غير ملحوظة. ونادراً ما يجد فرصة للتحدث مع أناس، تتوفر لديهم، أنفسهم، معرفة كافية بهذه الإيرادات»[6]. وكانت أفضل المعلومات هي تلك التي حصل عليها «من يهودي

---

(1) Niebuhr. C., RB. Bd. 1, S. 374.
(2) Niebuhr. C., RB. Bd. 1, S. 340, 358 U. BVA. 224.
(3) Niebuhr. C., RB. Bd. 1, S. 340.
(4) Niebuhr. C., RB. Bd. 1, S. 336.
(5) Niebuhr. C., BVA. S. 272.
(6) Niebuhr. C., BVA. S. 209.

في صنعاء اسمه عراقي Orakı[1]، كانت له حظوة لدى إمامين متعاقبين. وعدا عن أنه كان واحداً من أهم موظفي البلاط(*)، فإن المرء لا يخشى أن يطرح عليه أسئلته بوضوح. وحسب معلومات العراقي، كانت إيرادات الإمام المهدي محمد تبلغ ٨٣ ألف ريال قيصري شهرياً، أي تسع مئة وستة وتسعين ألف ريال سنوياً. ولكن بعد أن انفصلت قعطبة وعدن وأبو عريش وتعز وأصبحت إيرادات وصاب والمخادر وقسم من بلاد آنس وحراز تذهب إلى بعض الأمراء، انخفضت الإيرادات في عهد الإمام المنصور إلى ثلاثين ألف ريال شهرياً. أي إلى ثلاث مئة وستين ألف ريال سنوياً، ثم ارتفعت في عهد الإمام المهدي عباس، لتبلغ أربعين ألف ريال شهرياً، أي لأربع مئة وثمانين ألف ريال سنوياً، وذلك بعد أن استطاع الإمام المهدي عباس بسط نفوذه على بعض المناطق، التي كانت قد انفصلت عن مملكة الإمام»[2].

وقد استقى نيبور معلومات، من مصادر مختلفة، عن إيرادات المناطق الإدارية التابعة للإمام، كل على حدة. وعبر عن اعتقاده، بأن الأرقام التالية، هي أكثر قرباً إلى الحقيقة[3]:

- إيرادات المخا: في أشهر أبريل ومايو ويونيه ويوليه، أي في أشهر الموسم:	٧٠٠٠ ريال شهرياً
- في الأشهر الأخرى:	٤٠٠٠ ريال شهرياً
- إيرادات اللحية: في أشهر ابريل ومايو ويونيه ويوليه	٣٠٠٠ ريال شهرياً
- في الأشهر الأخرى:	٢٠٠٠ ريال شهرياً.

---

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 209.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 209.

(٣) انظر: Niebuhr, C., BVA, S. 210.

(*) ذكر نيبور أن العراقي هذا كان قبل أن يجرده الإمام المهدي عباس من وظائفه مسؤولاً عن الحمامات جميعها وعن مباني ومزارع الإمام: Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 422 - 423. وقارن: غالب، ابن الأمير، ص ٢٢٧ - ٢٢٩.

- إيرادات بيت الفقيه: ٣٦٠٠ ريال شهرياً(*).
- إيرادات الحديدة: ١٤٠٠ ريال شهرياً.
- إيرادات حراز: ١٥٠٠ ريال شهرياً.
- إيرادات حفاش ١٢٠٠ - ١٤٠٠ ريال شهرياً.
- إيرادات زبيد ١٤٠٠ ريال شهرياً.
- إيرادات الجبي وبرع ٢٤٠٠ ريال شهرياً.
- إيرادات كسمة ٤٠٠٠ ريال شهرياً.
- إيرادات الحيمتين ١٠٠٠٠٠ مئة ألف ريال سنوياً

وهذه الأرقام - كما أشار نيبور - أرقام قريبة من المعلومات التي حصل عليها من العراقي، الذي لم يستطع أن يقابله سوى مرة واحدة، بعد وصول البعثة إلى صنعاء[1].

ويبدو من المستغرب أن تكون إيرادات الحديدة ١٤٠٠ ريال شهرياً فقط أي مساوية لإيرادات زبيد، وأقل من إيرادات اللحية، فهذا الرقم لا يتناسب مع تأكيد نيبور بأن الحديدة تحقق إيراداً عالياً وأن عاملها لا شغل له إلا تحصيل الإيرادات، ولا مع تأكيده بأن أهمية زبيد قد تلاشت وحلت محلها بيت الفقيه كما حلت الحديدة محل ميناء زبيد (غليفقة).

وكانت ضريبة البن هي أهم مصدر من مصادر إيرادات الإمام «إذ يقال أن الإمام يحصل على ربع ثمن البن كضريبة، قبل أن يسمح بشحن الكمية المباعة في السفن»[2] ولم يوضح نيبور ما إذا كان هذا الربع قد حسبت ضمنه الضريبة التي كانت تدفع في جمارك الموانىء، أم أن الضريبة الجمركية في الموانىء كانت تدفع من قبل التجار الأجانب، في حين يكون الإمام قد استحوذ من المزارعين على ربع ما قبضوه ثمناً لما باعوه من محصولهم[3].

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 209.

(2) Niebuhr, C., BVA, S. 209.

(3) قارن، هامش ص ١٧١ من هذا البحث.

(*) لم يميز نيبور بين إيرادات أشهر الموسم والأشهر الأخرى إلا بالنسبة للمخا واللحية.

ال

١. تصنيف

لم يتعرض

استخلاصه من

والمذهبي بالأس

أ.المسلمون:

وينقسمون

المنطقة الممتدة

المناطق غير ال

الزيديين، متساو

أسمع أنهم يك

ب.اليهود:

وهم أقلية

(١)
(٢)
(٣)

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية والدينية والثقافية

١. تصنيف السكان:

لم يتعرض نيبور للتركيب الاجتماعي للسكان، ولذا فإن أقصى ما يمكن استخلاصه من إشاراته، هو تصنيف للسكان، يختلط فيه الأساس الديني والمذهبي بالأساس القومي. وذلك على النحو التالي:

أ. المسلمون:

وينقسمون إلى سنيين، يسكنون تهامة ومنطقة تعز، وزيديين، يسكنون المنطقة الممتدة من إب إلى صنعاء[١]. وهذا التقسيم يهمل، كما هو واضح، المناطق غير الخاضعة للإمام. وقد أكد نيبور أن عدد السنيين، نسبة إلى الزيديين، متساوٍ تقريباً. وأن «اتباع المذهبين يتعايشون بصورة ممتازة. ولم أسمع أنهم يكرهون أتباع الأديان الأخرى»[٢].

ب. اليهود:

وهم أقلية يسكنون في قرى منفصلة خارج المدن[٣]. ففي صنعاء مثلاً،

---

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 183 - 184. U. RB, Bd. 1, S. 396.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 23.

(٣) Niebuhr, BVA, S. 25.

يسكنون في قرية منفصلة عن صنعاء، اسمها (عصر)(*). ولأنه لا يسكنها سوى اليهود، فهي تسمى أيضاً قاع اليهود (وهي عبارة عن قرية كبيرة، أو بالأحرى مدينة صغيرة)[1] تقع قرب بير العزب. ويقدر عدد اليهود فيها بحوالي ألفي نسمة. بينهم أفضل الحرفيين، وأمهر الصناع، في اليمن، يعملون طوال النهار في سوق صنعاء، ويعودون مساءً إلى بيوتهم. ويجد المرء بينهم أناس أغنياء، ومنهم شخص اسمه عراقي (Oraki)(**)، عمل موظفاً كبيراً لدى إمامين متعاقبين فعمل مع الإمام المنصور ثلاثة عشر عاماً. ثم عمل مع الإمام المهدي (***)، خمسة عشر عاماً، كمسؤول عن الجمارك، وعن مباني ومزارع الإمام. ولكن الإمام المهدي زج به في السجن، وغرمه خمسين ألف ريال، وذلك قبل مجيء البعثة الدنماركية إلى اليمن بعامين(****)، ثم أطلق سراحه قبل وصول البعثة إلى صنعاء بأسبوعين. ومنحه خمس مئة ريال. وفي الفترة نفسها التي أوقع فيها الإمام المهدي بالعراقي، أمر بهدم معابد اليهود في قريتهم، فهدم منها اثني عشر معبداً، ولم يبق لهم سوى معبدين. كما قرر عدم السماح لهم بالسكن في منازل يزيد علوها على طابق واحد، فتم تهديم الطوابق الزائدة[2].

ويختلف اليهود في ملابسهم عن المسلمين، فهم لا يضعون على

---

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 232.

(2) Niebuhr, C., BVA, S. 232. U. RB, Bd. 1, S. 422 - 423

(*) هكذا كتب نيبور اسم عصر بالأحرف العربية.

(**) في كتب ابن الأمير وعصره يرد أن زعيم اليهود هو سالم العراقي، وأنه كان يتحكم في حاشية الإمام [illegible] بصدقه [illegible]. ولعل عراقي الذي ذكره نيبور هو سالم العراقي هذا. انظر عنه، ابن الأمير، ص ٢٢٧ - ٢٢٩.

(***) تولى الإمام المنصور الإمامة من عام ١١٣٩ هـ/١٧٢٧ م وحتى وفاته عام ١١٦١ هـ/١٧٤٨ م، وخلفه ابنه الإمام المهدي حتى وفاة الأخير عام ١١٨٩ هـ/١٧٧٥ م. انظر: الجرافي، المقتطف، ص ١٩٣ وما بعدها، وكذا العمري، مئة عام، ص ١١، ١٩، وما بعدها.

(****) وصلت البعثة الدنماركية، إلى اليمن في نهاية ديسمبر ١٧٦٢ م وغادرتها في نهاية أغسطس ١٧٦٣ م.

رؤوسهم أكثر من طاقية صغيرة، تتدلى من تحتها خصلتا شعر طويلتان، على جانبين، تميز اليهود عن غيرهم، وقمصانهم وسراويلهم وأحزمتهم، كلها من لقماش الأزرق اللون. ولا يسمح لهم بحمل أي نوع من أنواع الأسلحة، بما في ذلك الجنبية[1]. ويشير نيبور إلى أن عدد اليهود قد تضاءل عبر السنين، وأن عددهم في مملكة الإمام، حسب تقدير اليهود أنفسهم، يبلغ - أي في عام ١٧٦٣م - خمسة آلاف نسمة. وهم إما تلموديو المذهب أو فريسيون(*). وكانت أهم مناطقهم السكنية هي تلك التي كانت في تنعم، بخولان، ولا زالت توجد هناك أسر يهودية، وبعض المعابد «وهذا يعني أنه إذا كانت هناك مخطوطات قديمة من التلمود في اليمن، فيجب البحث عنها في هذه المنطقة. مع أن اليهود في تعز وصنعاء قد أكدوا لي أنهم لم يسمعوا عن وجود مخطوطات في اليمن، عمرها أكثر من خمس مئة عام. أما الكتب التي رأيتها لديهم فقد كانت جميعها مطبوعة في أمستردام والبندقية»[2].

ومن ضمن القرى اليهودية، التي ذكرها نيبور، قرية بجانب مدينة جبلة وقرية بجانب مدينة ذمار.

جـ.الهنود:

أشار نيبور إلى أن المرء يجد هنوداً في جميع المدن اليمنية الكبيرة، يعملون في التجارة أو كحرفيين أو خدماً لدى أغنيائهم، أي لدى أغنياء اليهود[3]. وهم يمارسون طقوسهم الدينية بحرية، لكنه لا يسمح لهم بحرق موتاهم، كما لا يسمح لهم بجلب نسائهم من الهند[4]، ويمكث بعضهم سنين

(1) Niebuhr. C . BVA. S. 66 - 67. U. RB. Bd. 1. S. 423.
(2) Niebuhr. C . BVA. S. 184.
(3) Niebuhr. RB. Bd. 1. S. 306.
(4) Niebuhr. BVA. S. 25 - 26. U. BD.. S. 319.
(*) من أبرز الفرق الدينية اليهودية. انظر: NUL. Bd. 3, S. 1490. وكذا الموسوعة، ص ١٢٩٩.

خوينة في اليمن. ولكنهم جميعاً يعملون ليكسبوا مالاً ثم يعودون في النهاية إلى بلادهم مهما طال مكثهم في اليمن. وينظر اليمنيون إليهم دائماً كغرباء[1].

وهم، على خلاف اليهود، يسكنون داخل المدن مع المسلمين[2]. وكانوا يلبسون ملابس بيضاء، كما هو الحال في بلادهم، ثم أمروا أن يلبسوا ملابس حمراء. ولما قاموا بتقديم مبلغ كبير من المال للإمام، ألغى الإمام أمره السابق. إلا أنه سرعان ما صدر إليهم أمر جديد بأن يلبسوا عمامات حمراء اللون «ولم تعد لديهم رغبة في تقديم مبلغ آخر للإمام، ولذا فإنهم يُشاهدون الآن وهم يلبسون ملابس بيضاء وعمامات حمراء»[3]. ولا يسمح لهم - تماماً كاليهود - بحمل أسلحة ولا جنابي.

ولورد نيبور تقديرات لأعداد الهنود في بعض المدن اليمنية، على النحو التالي[4]:

- في اللحية حوالي ٤٠ شخصاً.
- في بيت الفقيه أكثر من ١٢٠ شخصاً.
- في المخا حوالي ٦٠٠ - ٧٠٠ شخص.
- في صنعاء حوالي ١٢٥ شخصاً.

د. البدو:

أكد نيبور أنه لا يوجد بدو في مملكة الإمام[5]. ولكنه أشار إلى وجود بدو في شمال أبوعريش يعيشون مستقلين تحت حكم مشايخهم. وهم مسلحون بالحراب، وملابسهم بسيطة، فليس على جسد الواحد منهم سوى

---

(1) Niebuhr. C., RB. Bd. 1. S. 443.

(2) Niebuhr. C., RB. Bd. 1. S. 417.

(3) Niebuhr. C., BVA. S. 67.

(4) انظر على التوالي: Niebuhr. C., RB. Bd. 1. S. 309. 319. 443. 423.

(5) Niebuhr. C., RB. Bd. .1. S. 339.

قطعة قماش، ملفوفة حول خصره، وعلى رأسه رباط بدلاً من العمامة، وبعضهم يلبس طاقيات مصنوعة من سعف النخل الأخضر. وشعورهم مرسلة وهم مسالمون لا يعتدون على أحد ما لم يستخدم معهم القوة[1]. وقد شاهدت البعثة بعض هؤلاء البدو أثناء رحلتها من جدة إلى اللحية. كما أشار نيبور إلى وجود بدو في الجوف، مشهورين بشجاعتهم[2].

هـ. العبيد:

تدل إشارات نيبور على وجود العبيد في اليمن. ونقرأ أول ذكر لهم في سياق وصفه لرحلة البعثة من جدة إلى اللحية. فعلى ظهر السفينة كان الملاحون عبيداً أفريقيين، وعددهم تسعة ملاحين[3]. وفي اللحية كان عاملها (الأمير فرحان) عبداً سابقاً ثم أعتق[4]. كما كان أحد التجار يمتلك العديد من الجواري[5]. وكان الإمام المهدي يمتلك جواري كثيرة. ولكنهن أقل مما كان يمتلكه والده الإمام المنصور «الذي يقال أنه كان يمتلك أكثر من مئتي جارية»[6]. وكانت أم الإمام المهدي عباس نفسه جارية، مما حدا بأحد الأشراف، الذين قابلهم نيبور في زبيد، إلى أن يعبر عن ازدرائه بأصل الإمام الذي «اعتبر أن دمه غير نقي لأن أمه حبشية»[7]. وكان بعض العبيد، الذين يملكهم الحكام، يعتقون ويقلدون مناصب إدارية أو عسكرية، كما حدث بالنسبة للأمير فرحان، وكذا بالنسبة لبعض نقباء الجيش، الذين كانوا عبيداً فيما مضى[8].

---

(1) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 292. U. BVA, S. 269.
(2) Niebuhr, C., BVA, S. 276.
(3) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 285.
(4) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, 295 - 296.
(5) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 303 - 304.
(6) Niebuhr, C., BVA, S. 204.
(7) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 329 - 330.
(8) Niebuhr, C., BVA, S. 207, 211.

٢. معلومات عن الحياة اليومية:

كثرت إشارات نيبور إلى جوانب تمس الحياة اليومية، كالطعام والشراب والنوم والملابس والسفر والسكن والتطبيب والبيع والشراء. كما تضمنت كتاباته بعض الإشارات إلى وسائل التكييف والاستمتاع، كالقات والدخان والكحول والحشيش. وسوف أحاول هنا ان أستعرض ما ذكره من معلومات حول هذه الجوانب، باستثناء البيع والشراء، حيث سبق تناولهما عند حديثنا عن الحياة الاقتصادية.

أ. الطعام والشراب:

لم يلاحظ نيبور تنوعاً في طعام اليمنيين. إذ تشكل الذرة المادة الغذائية الرئيسية، إذا لم تكن الوحيدة، ولا يقدم في المقاهي (المطاعم) غير خبز الذرة مع قهوة القشر، وأحياناً مع حليب النياق[١]. ونادراً ما يحصل المسافرون على خبز مصنوع من القمح[٢]. وأما شراب اليمنيين فلا يتكون من غير الماء وقهوة القشر. ونادراً ما يشربون قهوة البن، لاعتقادهم أنها «تسخن الدم»[٣]. لهذا فإنهم يصنعون قهوتهم من قشور حبوب البن. ومنظر هذه القهوة ونكهتها أشبه ما تكون بنكهة ومنظر ماء الشاي. إنهم يعتبرون هذه القهوة أبرد بالنسبة للجسم، وبالتالي فإنها صحية أكثر من قهوة البن. ويسمونها قهوة أو قشر، ويشربونها في فناجين مصنوعة من الفخار. أما وجهاؤهم فيشربونها في فناجين صينية[٤]. ويشاهد المرء في الطريق من بريم إلى ذمار أناس يبيعون قهوة القشر للمسافرين، ويجلسون بين جدران أربعة دون سقف[٥]. واليمنيون عموماً معتدلون في طعامهم وشرابهم[٦].

---

(١) Niebuhr, RB, Bd. 1. 341.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 314.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 55.

(٤) Niebuhr, RB, Bd. 1, S. 313. U. BVA, S. 55 - 56.

(٥) Niebuhr, RB, Bd. 1, S. 406.

(٦) Niebuhr, C., BVA, S. 51.

ب - الملابس(*):

يلبس وجهاء اليمنيين، شأنهم في ذلك شأن الأتراك والهنود، ملابس طويلة، لكنها تختلف في جزء منها عن ملابس هؤلاء. ففي اليمن تكون ملابس النصف الأسفل واسعة، وفوقها قميص أبيض في تهامة وأبيض أو أزرق في الجبال. مع أكمام طويلة وواسعة أو قصيرة وضيقة. ويلبسون صديرية وجاكيت وشباشب تركية أو حذاء جلدي أصفر اللون. كما يتمنطقون بجنبية ذات حزام جلدي مطرز. وملابسهم العليا تصل إلى تحت الركبة بقليل. ويضعون على أكتافهم قطعة قماش طويلة وأنيقة، ويغطون رؤوسهم بغطاء غال الثمن وغير مريح. إذ يضعون فوق رؤوسهم عدداً من الطاقيات مطرز بعضها بآيات قرآنية. وفوق ذلك كله يلفون هذه الطاقيات بقماش طويل. «وإنه لمن المتعب إبقاء هذا الحمل الثقيل فوق رؤوسهم بصورة دائمة. ولذا فإنهم يخلعون هذا الغطاء عندما يكونون في بيوتهم أو لدى أصدقائهم، ولا يبقون منه إلا طاقية واحدة أو طاقيتين، تغطيان رؤوسهم»[1]. أما عامة الناس فلا يغطون رؤوسهم إلا بطاقيتين ملفوفة عليهما قطعة قماش طويلة، ولدى بعضهم سراويل وقمصان، وبعضهم يلبس قطعة قماش واحدة فقط، يلفها حول خصره، لتغطي الخصر إلى ما تحت الركبة، وما عدا ذلك يبقى عارياً. ويسيرون - أي عامة الناس - حفاة الأقدام. وفي المناطق الجبلية يرتدي عامة الناس جاكيتاً من جلد الماعز[2].

وفي مملكة الإمام يحلق الرجال شعر الرأس(**)، وأما في المناطق الأخرى من اليمن فيرسلون شعورهم. وحتى المشائخ في هذه المناطق يتركون شعورهم مرسلة، شأنهم في ذلك شأن عامة الناس. ولا يرتدون طاقيات ولا عمامة، بل

---

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 62 - 63, 64.

(2) Niebuhr, C., BVA, S. 64.

(*) انظر بعض نماذج من الملابس في الملحق.

(**) لم يتمكن نيبور من التوغل في جميع مناطق مملكة الإمام ونحن نستبعد أن جميع الرجال في مملكة الإمام كانوا يحلقون رؤوسهم.

بكفود بوضع حرقة فوق شعورهم العفوينة. أما البدو في حدود أبو عريش يضعون فوق رؤوسهم طاقيات مصنوعة من سعف النخل الأخضر، كما تقدم ويكد جميع اليمنيين يحملون حروزاً مربوطة إلى سواعدهم، وخواتم فضية في أصابعهم[١]. وتكون ملابس النساء، بشكل عام، من قميص طويل وسروال. ولكن النساء في تهامة يلففن أجسادهن بقطعة من القماش، من الخصر إلى تحت الركبة، ولا يستخدمن السراويل. أما النصف الأعلى من الجسم فيغطيه بصديرية. وفي بعض المناطق كاللحية، تضع النساء قطعة قماش على رؤوسهن، ويعمدن إلى تغطية وجوههن بها، ما عدا العينين، إذا سرن في الطرقات. ولكنهن أحياناً لا يتشددن في تغطية وجوههن، خاصة عندما يعتقدن أن وجوههن جميلة، أو عندما تريد إحداهن أن تري وجهها لشخص ما، بصورة تبدو غير متعمدة[٢]. وفي تعز والمخا وصنعاء تغطي النساء وجوههن، بما في ذلك العينين، بقطعة من القماش. وفي مناطق الجبال تبدو النساء أكثر انطلاقاً من نساء المدن، فلا يسترن وجوههن. ويتحدثن مع الرجال بحرية وثقة. ويلبسن قمصاناً طويلة، وسراويل من القماش، المخطط باللونين الأزرق والأبيض. والقمصان مطرزة عند الرقبة وتحت الركبة بألوان مختلفة، أما السراويل فمطرزة في الأسفل حول الساق[٣]. وتحمل النساء كمية كبيرة من الأسورة والخواتم، وبعض الأسورة مصنوعة من الزجاج. كما يلوّنّ أكفهن وأقدامهن بالحناء ويزينّ عيونهن بالكحل، ووجوههن بالخضاب[٤]. وتكثر النساء من استعمال النيلة الزرقاء، فملابسهن غالباً مصبوغة بها[٥].

وأما ملابس الأقليات، وهم اليهود والهنود، فقد سبق الحديث عنها.

---

(١) Niebuhr, C., BVA. S. 64 - 65.

(٢) Niebuhr, C., RB. Bd. 1, S. 304.

(٣) Niebuhr, C., RB. Bd. 1, S. 335 - 336.

(٤) Niebuhr, C., BVA. S 65 - 66.

(٥) Niebuhr, C., BVA. RB. Bd. 1, S. 315.

جـ. المسكن:

سجل نيبور ما لاحظه من اختلاف في المساكن، بين منطقتي تهامة والجبال. ففي الجبال تبنى البيوت بالحجارة. أما في تهامة فمعظم بيوتها عبارة عن أكواخ، وبناؤها لا يكلف كثيراً، فهي تبنى من أغصان الشجر والأعشاب، وتكسى جدرانها بالطين المخلوط ببراز الأبقار، وتدهن من الداخل بالكلس، وسقوفها مبنية بأعشاب متوفرة بكثرة في تهامة. ونادراً ما تكون هناك نوافذ. أما الأبواب فهي مجرد قطع من الحصير. وفي هذه البيوت وحولها توضع سرر أشبه بكراسي طويلة، منسوج سطحها بخيوط من القماش، يجلس المرء عليها وينام بارتياح. ومثل هذه السرر ـ الكراسي لا توجد في مناطق الجبال. ونادراً ما تكون الأكواخ مقسمة في الداخل إلى أجنحة أو حجرات. فإذا كان حجم الأسرة كبيراً أو كانت هناك حيوانات، فإنه يتم بناء أكثر من كوخ للأسرة الواحدة، ثم تحاط جميعها بسياج واحد، مبني من أغصان الشجر[1].

د. النوم:

لفت نظر نيبور في مناطق الجبال استخدام المواطنين لكيس كبير من القماش، ينامون فيه عراة تماماً، ويحكمون إغلاقه عليهم، ليحموا أنفسهم من الحشرات[2]. ولم يشاهد مثل هذا الكيس في تهامة. ويقول: «لم أحاول أبداً أن أستعمل مثل هذا الكيس. ولكني تعودت سريعاً على تغطية وجهي أثناء النوم، وخاصة في العراء»[3]. وعادة تغطية الوجه أثناء النوم، عادة لا يعرفها الأوروبيون، لكن نيبور وجدها عادة عملية، إذ تجنب المرء أذى الرياح، وما يمكن أن يحمله الهواء من أتربة ومواد دقيقة[4].

(1) Niebuhr, C., RB. Bd. 1. S. 307 - 308. U. BVA. 62.

(2) Niebuhr, C., BVA. S. 64

(3) Niebuhr, C., RB. Bd. 1. S. 341.

(4) Niebuhr, C., RB. Bd. 1. S. 341.

هـ. التطبيب:

لم يتحدث نيبور عن النظام العلاجي أو عن الأمراض السارية. ولكن يمكننا أن نستخلص من إشاراته المتناثرة المعلومات التالية:

تنتشر الملاريا في تهامة، وهو المرض الذي قضى على أفراد البعثة جميعهم، الواحد تلو الآخر، ما عدا نيبور. وقد أظهر المواطنون اهتماماً بطبيب البعثة طوال وجود البعثة في اليمن، فقصدوه في اللحية والمخا وذمار للعلاج، حتى أن أحد المرضى في ذمار رافق البعثة إلى صنعاء، ليبقى قريباً من الطبيب[1].

وفي سوق مدينة يريم شاهد نيبور «بعض الحجامين يخدشون جلود بعض المواطنين بسكاكين رديئة، ويضعون على الجروح محاجم، من قرون الحيوانات، يمصون بواسطتها الدم»[2]. وأثناء مقابلة البعثة للإمام المهدي في صنعاء، أُحضر إلى طبيب البعثة صندوق مملوء بالأدوية الغربية، كان أحد البريطانيين قد أهداها للإمام. وقد طلب الإمام من الطبيب تحديد أسماء تلك الأدوية وشرح دواعي استعمالها. وتم باللغة العربية تسجيل الكثير مما شرحه[3].

و. وسائل التكييف والاستمتاع:

تتكون وسائل التكييف والاستمتاع، بصورة رئيسية، من القات والكحول، وقد سبق الحديث عن القات، في سياق حديثنا عن الحياة الاقتصادية. وكان نيبور قد أتى على ذكره لأول مرة عند وصوله تعز. مما يعني أنه لم يصادفه خلال رحلته في تهامة. ثم شاهده بعد ذلك في المناطق الجبلية، وهو في طريقه إلى صنعاء. وأما الكحول فقد ذكر نيبور أن المسلمين لا يشربونه، نظراً

---

(1) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 300, 367, 407.

(2) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 403.

(3) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 426.

يحريم شربه دينياً. إلا انه يوجد من بينهم أناس «مولعون به أشد الولع»(١).
لكنهم يتكتمون في شربه. ولا يشربونه إلا مساء في بيوتهم(٢).

وقد وجدت البعثة الكحول متوفراً في اللحية، ولكن نوعيته رديئة(٣)، بل لقد وجد طبيب البعثة لدى أحد أغنياء اللحية معدات كاملة لتحضير الكونياك(٤). وفي المخا يتم استيراد العرق الهندي، بواسطة التجار الإنجليز(٥). أما أفضل أنواع النبيذ فيمكن الحصول عليه في صنعاء، حيث يصنعه اليهود من الأعناب بكميات كبيرة، ويبيعونه للمسلمين بحذر شديد، لأن من ضبط منهم وهو يحمل نبيذاً إلى بيت أحد المسلمين، فإنه يعاقب عقاباً صارماً(٦).

ولم يشر نيبور إلى الحشيش سوى مرة واحدة، وذلك في اللحية، حيث دخن أحد القائمين على خدمة البعثة مادة الحشيش، ثم خيل إليه أنه يستطيع أن يتحدى أربعة جنود، صادفهم في الطريق، وأن يغلبهم جميعاً. ولما أصر على معاركتهم قام أحدهم بضربه وإرجاعه إلى البيت(٧). ورغم أن نيبور لم يشر إلى الحشيش سوى مرة واحدة، خلال تجواله في اليمن، فإن إشارته تدل على أن هناك أناس كانوا يستعملونه. فقد قال: «لأن عامة الناس لا تستطيع أن تحصل على المشروبات الكحولية، فإن البعض يلجأ إلى تدخين الحشيش كوسيلة من وسائل المتعة»(٨).

---

(١) Niebuhr. C.. BVA. S. 56.
(٢) Niebuhr. C.. BVA. S. 56.
(٣) Niebuhr. C . RB. Bd. 1. S. 299.
(٤) Niebujr. C.. BVA. S 56.
(٥) Niebuhr. C . RB. Bd 1. S. 261.
(٦) Niebuhr. C.. S 420-421. 298.
(٧) Niebuhr. C.. BVA S 57.
(٨) Niebuhr. C.. BVA. S 57.

وإلى جانب القات والكحول يدخن اليمنيون التبغ بواسطة المشرعة والمداعة(*)[1].

ز. السفر:

يسافر اليمنيون سيراً على الأقدام، أو على ظهور الحمير أو الجمال. وفي تهامة لا يسافر الناس إلا ليلاً، وذلك بسبب الحر الشديد[2]. وتنتشر المقاهي(**) في طرق السفر الرئيسية. كما توجد في تهامة كثير من المضافات، التي تسمى في اليمن (منزلة)، وهي أماكن يستطيع المسافر أن يأكل ويشرب ويبيت فيها مجاناً[3]. ويحصل المسافر عادة في هذه المنازل، كما في المقاهي، على خبز الذرة وقهوة القشر[4]. وإضافة إلى المقاهي والمنازل، فإن المسافر إذا مر بأناس أثناء الطعام، فإنهم عادة يلحون عليه أن يشاركهم طعامهم[5]. وفي المناطق الجبلية، وخاصة في منطقة جبلة والعدين، يجد المسافر في طريقه ما تسمى بالسقايات[6]، التي تملأ بالماء، ليشرب منها المسافرون(***). كما يجد أيضاً مباني صغيرة خالية، يلجأ إليها عند هطول الأمطار[7]. وقد لاحظ نيبور أن بعض الطرق الرئيسية، خاصة في جبلة والعدين، مرصوفة بالحجارة، ولكنها -كما أشار- قد أُهملت، ولم تُعمل لها صيانة منذ سنوات طويلة[8].

---

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 58-59. U. RB, Bd. 1, S. 322.

(2) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 355-356.

(3) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 314. U. BVA, S. 46-47.

(4) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 314.

(5) Niebuhr, C., BVA, S. 46-47.

(6) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 344, 355

(7) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 344, 396.

(8) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 344.

(*) المشرعة هي الاسم اليمني للغليون. أما المداعة فهي ما يعرف بالشيشة أو النارجيلة في بعض البلاد العربية.

(**) يطلق اليمنيون اسم مقهاية وجمعها مقاهي على المكان العام لشرب الشاي والقهوة كما على الأماكن المخصصة لمبيت وإطعام المسافرين.

(***) انظر ص ١٦٠ من هذا البحث.

وإذا كان المسافر العادي يقنع بما يجده في المقاهي والمنازل، من خبز الذرة وقهوة القشر وماء السقايات، فإن الأغنياء والأعيان يسافرون مصطحبين معهم الخدم وكل وسائل الراحة. وقد عاش نيبور حياة المسافر اليمني العادي وتعامل مع كل ما يصادفه هذا المسافر في طريقه، وتخلى عن عاداته الأوروبية، خلال تجواله في اليمن[1].

٢ . بعض العادات والتقاليد:

أشار نيبور إلى أن اليمنيين يميلون إلى الحياة الاجتماعية فيتجمعون في المقاهي والأسواق[2]. ولا يميلون إلى الخصام. لكنهم إذا ما بدؤوا يتخاصمون، فإنهم يصرخون بأصوات عالية، وربما يتطور الأمر إلى أن يمتشق أحدهم جنبيته. إلا أنه سرعان ما يتدخل الحاضرون ويصلحون بينهم في الحال، أو يتفق المتخاصمون على تنصيب حكم بينهم. وليس لدى اليمنيين ألفاظ سباب كثيرة، كما لدى الأوروبيين، ولكنهم حساسون تجاه كلمات السباب، ولا يتراجعون عن الانتقام لكرامتهم[3].

وقد تحدث نيبور عن بعض الصفات الأخلاقية كالخداع والنفاق، واعتبرها صفات غير شائعة، وعادات لا يمارسها اليمنيون[4].

ويحيي اليمنيون من يقابلهم بالتحية المعتادة، وهي (السلام عليكم)، ويرد الآخر التحية بقوله: (وعليكم السلام). ويلقون هذه التحية حتى على المسيحيين، خلافاً لما في مصر. فالمصريون يكتفون تجاه المسيحيين بالقول: (صباح الخير) أو (صاحب سلامات)[5].

---

(١) انظر ص ٥٦-٦٩ من هذا البحث.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 27-28

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 28-32.

(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 28-29.

(٥) Niebuhr, C., BVA, S. 28-29.

ويذكر نيبور أنه في المناطق الجبلية، وخاصة لدى العسكر والمسافرين، يحيي الناس بعضهم بالقول: (يوم النور)، ويرد الآخر: (يوم القبور)(*). ويعلق على هذه التحية بقوله: «لم أفهم معنى هذه التحية، ولكن قيل لي إن الإنسان العاقل لا يقول: يوم القبور، ولكنها عبارة تقال بصورة تهكمية رداً على من يقول: يوم النور»(١).

وقد عاش نيبور أيام عيد الأضحى في مدينة تعز وسجل وصفاً للاستعدادات ومظاهر الاحتفال بالعيد. فقبل العيد بأيام يستقبل العامل والأعيان الهدايا من المواطنين، وهي عبارة عن عدد كبير من الخراف. أما من لا أمل له في الحصول على خراف مجاناً، فإنه يقوم بشراء العدد الذي يحتاجه منها، لأسرته وللتوزيع على الفقراء. ولأن العيد يدوم يومين إلى ثلاثة أيام ولا يأتي الفلاحون أثناءه بمنتوجاتهم إلى أسواق المدينة، فإن كل شخص في المدينة يقوم قبل العيد بتجهيز نفسه بكل ما يحتاجه من مواد غذائية. وفي ليلة العيد أطلقت مدافع باب الشيخ موسى ثلاث طلقات، وأطلقت مدافع حصن القاهرة طلقتين، إعلاناً بقدوم العيد. وفي صباح العيد أطلقت المدافع عدة طلقات، واتجه العامل والمواطنون إلى خارج المدينة، لتأدية صلاة العيد في العراء. وبعد حوالي ساعة واحدة أطلقت المدافع مرة أخرى. وعاد موكب العامل إلى المدينة. وبدأ الجنود والأعيان يقومون بعملية استعراض بخيولهم، شبيهة بعملية الاستعراض، التي تتم عادة بعد صلاة الجمعة. حيث تركض الخيول تباعاً في حين يمسك كل راكب رمحه عالياً، كما لو كان يسدده نحو هدف في الأمام. وبعد الاستعراض ينصرف الجميع إلى بيوتهم، يأكلون ويمضغون القات ويدخنون، متمتعين ببهجة العيد ومسراته(٢).

---

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 49.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 386-387.

(*) هذه تحية غريبة لا يتداولها اليمنيون. إلا إذا كانت تقال على سبيل المزاح.

وفي صنعاء شاهد نيبور موكب الإمام المهدي عباس، وهو عائد من صلاة الجمعة(*)، وهو موكب أصبح يعتبر جزءاً من حياة الناس العامة في صنعاء، وقدم وصفاً له(١). فبعد انتهاء صلاة الجمعة، اتجه الإمام إلى باب اليمن، ثم سلك طريقاً خارج المدينة إلى باب شرارة. وكان يسير أمامه بضع مئات من الجنود، وفوق رأسه ورؤوس أمراء الأسرة الإمامية رفعت المظلات «وهو امتياز لا يتمتع به إلا الأمراء»(٢) أو حكام المناطق المستقلة، كمشايخ يافع ومشايخ حاشد وبكيل وشريف أبو عريش وغيرهم، تعبيراً عن استقلالهم. وعدا عن الأمراء كان هناك حوالي ست مئة رجل «من الأعيان الدينيين والدنيويين والعسكريين»(٣)، بعضهم يمتطي أحصنة مطهمة، وبعضهم يسير على الأقدام. وإلى جانب الإمام كان يرفرف علم مرفوع. لقد كان موكباً ضخماً. ولكن نيبور لاحظ أنه موكب غير منظم «فالجميع يتحرك هنا وهناك دون أدنى نظام»(٤). وفي باب شرارة أخذ الجنود يطلقون عيارات نارية، بطريقة سيئة، قال عنها نيبور إنه لم يشاهد «في أي مكان غير اليمن أسوأ منها»(٥). ولم يستطع نيبور أن يستمر في مشاهدة الموكب، لأنه شعر بالتعب ولم يستطع أن يبقى فترة أطول معرضاً لأشعة الشمس، فعاد إلى بير العزب، حيث مسكن البعثة. إلا أنه أضاف: «إن من المفترض أن يقوم الجنود بعد ذلك ببعض التدريبات أمام قصر الإمام، كما يقوم الأعيان باستعراض مهاراتهم كخيّالة»(٦). وكانت أبواب صنعاء ـ كما لاحظ نيبور ـ جميعها مغلقة أثناء الصلاة(٧).

---

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 423-425.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 424.

(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 424.

(٤) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 424.

(٥) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 424.

(٦) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 425.

(٧) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 425.

(*) لم يتمكن نيبور من مشاهدة الموكب عندما كان متجهاً إلى الصلاة، ولم يستطع أن يستمر في مشاهدته حتى نهايته وهو عائد من الصلاة.

وفي يريم شاهد موكب عريس ذاهب إلى الحمام. كان في مقدمة الموكب عدد من الأطفال، يرقصون على إيقاع الطبل، ووراءهم عدد آخر من الشباب والكبار، بعضهم يرفعون بنادقهم عالياً، ويطلقون عيارات نارية، بصورة متواصلة، والعريس يسير في مؤخرة الموكب، يحيط به بعض أصدقائه. وعاد الموكب من الحمام وقد حل الظلام. وكانت هناك بعض المشاعل مرفوعة على الأيدي لإضاءة الطريق(١).

وتحدث نيبور عن ظاهرة الثأر. ويتضح من ملاحظاته أنها لم تكن ظاهرة عامة في المجتمع اليمني. فقد كان القاتل يخضع للقصاص، بحكم من المحكمة العليا في صنعاء. في حين كان البعض يفضل اللجوء إلى الثأر. وكان الثأر يقود إلى ثأر آخر، من قبل الجهة الأخرى. وهكذا، حتى أن بعض حالات القتل والقتل المضاد قد دامت، حسب ما تلقاه نيبور من معلومات، خمسين عاماً. ويعلق نيبور على ذلك بالقول: «ومع كل ذلك فلا أعتقد أن كل اليمنيين يلجؤون إلى الأخذ بالثأر. وإنما هناك، كما يبدو، أسر محدودة تتمسك بهذه العادة، وإلا لما سادت هذه الحالة من الأمن في تهامة، وهي حالة يلمسها المسافرون ويعيشونها عملياً»(٢).

ومن العادات الغريبة، التي لفتت انتباه نيبور، أن الأجانب يترجلون عند مداخل المدن، ويسيرون على الأقدام إلى البيوت التي سيقيمون فيها. وقد تكررت هذه العملية، بالنسبة لأعضاء البعثة، في اللحية وفي صنعاء. ولاحظ نيبور، في صنعاء، أن مستقبلي البعثة ومرافقيها، من اليمنيين، ظلوا راكبين، في حين كان على أعضاء البعثة أن يسيروا راجلين(٣).

٤ ـ من حكايات المقاهي: بار بروشام والأميرة نُجيمة:

تحدث نيبور عن حاشد وبكيل كقبيلة واحدة، تتكون من عشائر عديدة،

---

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 402-403.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 357, 358. U. BVA, S. 29-35.

(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 359-360, 411.

ولكل عشيرة مشائخها، وقد اتحدت حاشد وبكيل عسكرياً تحت اسم (اتحاد حاشد وبكيل)(*). ومن الحكايات الطريفة التي سمعها، أثناء تجواله في اليمن، حكاية تروي أصل حاشد وبكيل، فحاشد وبكيل هما ابنا باربروشام، الفارس الذي كان يعمل في بلاط الملك والد الأميرة نجيمة. وقد أحب باربروشام الأميرة نجيمة، وعاشا قصة حب مضنية، توجت بفرارهما من قبضة الملك، من الأناضول إلى دمشق، ومنها انضما إلى قافلة، متجهة إلى مكة، ومن مكة إلى اليمن، حيث استقرا وأنجبا. وتنتمي كل عشائر حاشد وبكيل إلى هذين المحبين الأسيويين الخياليين. وقد علق نيبور على هذه الحكاية بأنها «لاتعدو أن تكون مجرد حدوثة ألفها أحدهم، ليحصل من وراء روايتها، على مبلغ زهيد من المال، من رواد المقاهي»(1). ويحمل هذا التعليق إشارة ضمنية إلى أنها كانت تحكى حكايات في المقاهي. ولكنه لم يدون لا في يومياته ولا في إجاباته على أسئلة العلماء، التي وجهت إلى البعثة، ما يدل على أنه قد شاهد مثل هذه الظاهرة، أو استمع إلى حكايات مماثلة. كما أنه لم يشر إلى مصدر هذه الحكاية، ولا إلى المكان الذي سمعها فيه.

٥ . الفرق الدينية:

حاول نيبور أن يقدم صورة عن الفرق الدينية الإسلامية، معتمداً في ذلك على ما تلقاه من معلومات من أتباع هذه الفرق. وقد جاء تصنيفه لها متأثراً إلى حد كبير بأنظمة الحكم القائمة في بعض البلدان الإسلامية. فالفرق التي أتى على ذكرها هي: السنة ـ الشيعة ـ الزيدية(**) ـ الأباضية ـ المصاليخ، ثم فرقتان جديدتان، أسس أحدهما الشيخ المكرمي، والآخر الشيخ محمد بن عبد الوهاب. كما أشار إلى وجود بعض الفرق في إيران، تنتمي إلى الخوارج،

---

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 260-261.

(*) انظر: ص ١١٢، ١٢١ - ١٢٣ من هذا البحث.

(**) لم يتنبه نيبور إلى أن الزيدية هي إحدى فرق الشيعة.

والى أن السنة تحكم في تركيا، والشيعة في إيران، والزيدية في اليمن، والأباضية في عمان، وأما المصاليخ فهي فرقة تتكون من البدو الذين يسكنون في الحدود بين اليمن والحجاز[١].

ويتضح من تصنيف نيبور للفرق الإسلامية، ومن استعراضه لتعاليمها، عدم إلمامه بها. ولذا فإن ما كتبه بهذا الصدد لا يستحق أن نقف عنده.

وقد أُعجب نيبور بالتسامح الديني السائد في اليمن. وأكد أن أتباع المذهبين الدينيين الرئيسيين، السنة والزيدية، يعيشون مع بعضهم بوئام وانسجام، وأنهم من ناحية اخرى لا يكرهون أتباع الأديان الأخرى[٢]، وإذا دخل في الإسلام مسيحي أو غيره ممن يأتون على السفن إلى الموانىء اليمنية، فإنه يتم صرف مبلغ شهري له، قدره ريال وربع الريال، ليتدبر به أمر معيشته، ريثما يستطيع أن يجد له عملاً يعيش منه. ويبرز تسامح اليمنيين المسلمين في عدم منعهم من أسلم، من الاستمرار في التعامل والاحتكاك بأتباع دينه السابق. كما أنهم لا يحولون بينه وبين مغادرة اليمن، متى أراد ذلك. ولو كان في صحبة أتباع دينه السابق[٣]. وإذا تزوج مسلم من مسيحية أو يهودية، فإنه يحترم عقيدتها، ولا يحاول أن يجبرها على التنكر لدينها[٤]. ويمارس اليهود حياتهم وطقوسهم الدينية ويشيدون معابدهم بكل حرية. كما يمارس الهنود أيضاً طقوسهم الدينية، ولكن لا يسمح لهم بحرق موتاهم[٥].

ولم يسمع نيبور عن وجود مسيحيين في اليمن، ولكنه يفترض أنه ربما يوجد بعض الأحباش المسيحيين في المدن الساحلية أو الجزر التابعة لليمن[٦].

---

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 18-27.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 23.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 24.

(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 25.

(٥) Niebuhr, C., BVA, S. 26. U. RB, Bd. I, S. 319.

(٦) Niebuhr, C., BVA, S. 184.

٦. الأولياء:

تقديس الأولياء جزء من حياة المجتمع الدينية. وقد أشار نيبور إلى أن تقديس الأولياء ظاهرة ملموسة في اليمن، وخاصة في منطقة تهامة، كما ذكر أن السنيين في تهامة يؤكدون أن الزيديين لا يقدسون الأولياء. وتتضح مكانة الأولياء، لدى أهالي تهامة، من خلال الربط بين نشوء المدن التهامية وبين الأولياء. وكذا من خلال ترويج الأساطير التي تحكي قدرات الأولياء ومعجزاتهم الخارقة.

ويبدو لي أن نيبور، في كل مرة كان يشير فيها إلى الأولياء، قد أقحم بصورة لا شعورية رؤيته الأوروبية الخاصة. فأدى ذلك إلى عملية مزج بين إطارين ثقافيين مختلفين، بحيث عكس حديثه عن الأولياء صورة قد لا تكون هي الصورة السائدة فعلاً في المجتمع اليمني. بل لقد استخدم عند حديثه عن دور الأولياء في إنشاء المدن مصطلح (شوتس هايلجر Schutzheiliger)، وترجمته الحرفية (القديس الحامي). وهو مصطلح منبثق من إطار اجتماعي وثقافي أوروبي. ففي أوروبا هناك قديسون وقديسات حماة، فهذا القديس، مثلاً، حامي مدينة كذا، وإليه يتوجه المواطنون في هذه المدينة لطلب العون والبركة والحماية، وروحه تحوم دائماً في سماء المدينة، تعين المحتاج وتواسي الضعيف وتمسح دموع المصابين وتسهر على حماية المدينة في وجه المتربصين بها. هذه الصورة الأوروبية للقديس دمجت لدى نيبور بصورة الولي في اليمن. فإذا الولي اليمني قد أصبح حامي مدينة بعينها أو ولياً لحرفة أو صنعة معينة[1].

لقد وجدت أن التنبيه إلى عملية الدمج هذه بين صورتين مختلفتين للولي، أمر ضروري لفهم الصورة التي قدمها نيبور في كتاباته للأولياء في

---

(1) انظر مثلاً:

Niebuhr, C., RB. Bd. 1, S. 440-441.

اليمن، وذلك قبل أن استطرد في عرض هذه الصورة. وسوف أحاول في ما يلي أن اتتبع مظهري التقديس في اليمن، كما رسمهما نيبور وهما: ربط نشوء بعض المدن بالأولياء، وترويج الأساطير حول قدراتهم ومعجزاتهم، متدرجاً في عرضي بحسب خط الرحلة، الذي سلكته البعثة، من مدينة اللحية وحتى مدينة تعز:

مدينة اللحية[1]:

أنشئت مدينة اللحية منذ حوالي ٣٠٠ عام بالنسبة للزمن الذي زار فيه نيبور اليمن. وقد أنشأها ولي يعتبره المواطنون حامي هذه المدينة. فقد بنى هذا الولي كوخاً على الشاطىء، وأقام فيه. ولما توفي أقيمت على قبره قبة. ولما كان المسلمون السنيون يتبركون بالأولياء، فقد أخذ الناس شيئاً فشيئاً يبنون مساكن لهم حول قبره. وهكذا أنشئت مدينة اللحية. وكان مقر العامل، قبل نشوء مدينة اللحية، في مدينة مرابية Marâbea . التي تبعد عن اللحية بمقدار ميل واحد(*)، نحو الشمال، ولكن ميناء هذه المدينة ساءت حالته مع الزمن، في الوقت نفسه الذي كانت تتسع فيه اللحية. ولذا أصبحت اللحية مقراً للعامل.

وقد قبر أحد أبناء حامي اللحية في Bahâs والآخر في مور ويعتبر كل واحد منهما حامياً للمنطقة التي قبر فيها.

مدينة بيت الفقيه[2]:

ليست مدينة بيت الفقيه من المدن القديمة، فإنشاؤها يرجع إلى بضع مئات من السنين فقط. وقد أنشئت حول قبر أحد الأولياء وسميت باسمه بيت الفقيه. والفقيه المقصود بهذه التسمية هو الفقيه أحمد بن موسى. ويوجد قبره

---

(1) Niebuhr, RB. Bd. 1, 304 - 305.

(2) Niebuhr, RB. Bd. 1, S. 319 - 320.

(*) الميل الألماني القديم يساوي ٧٥٣٢ متراً.

في مسجد بقع خارج المدينة. وتقام حول هذا القبر زيارة في شهر ربيع الأول من كل عام. ويرتبط ازدهار مدينة بيت الفقيه بتضاؤل أهمية مدينة غليفقة ومدينة زبيد. ومع تزايد أهمية بيت الفقيه بنى حاكمها قلعة في مكان مختار قريب من الماء، وأخذ الأهالي يبنون بيوتهم حول القلعة «فقد أصبحوا يرجون الحماية، كما يبدو، من العامل وقلعته أكثر مما يرجونها من وليهم»[1]. وهكذا تزاحموا حول القلعة، حتى أصبح لا يُرى بجانب مسجد الولي الفقيه أحمد بن موسى سوى بضعة أكواخ.

ومن معجزات الفقيه أحمد، يروي الناس الحكاية التالية:

سُجن أحد الباشوات الأتراك في أسبانيا مدة عشرين عاماً، وقُيد بقيود ثقيلة، ورُبط إلى صخرتين ضخمتين. وقد استمر يهتف مستغيثاً بالعديد من الأولياء، دون جدوى، حتى تذكر الولي أحمد بن موسى. فما أن هتف باسمه حتى مد الولي أحمد يده من القبر، وفي لمح البصر جاء الباشا بقيوده مع الصخرتين أيضاً. وقد حدثت هذه المعجزة في ليلة أصبحت موعداً لإقامة زيارة سنوية حول قبر هذا الولي.

مدينة المخا[2]:

مدينة المخا، كمدينة بيت الفقيه، ليست من المدن القديمة، إذ لا يزيد عمرها عن ٤٠٠ سنة بالنسبة للزمن الذي زار فيه نيبور اليمن.

وينسب إنشاؤها إلى ولي مشهور هو علي بن عمر الشاذلي[3]. وقد عرف هذا الولي أثناء حياته بالزهد والورع، فأخذ الناس يقصدونه من أماكن بعيدة، ليستمعوا إلى تعاليمه ومواعظه. ولا يرجع إلى علي بن عمر الفضل في إنشاء

---

(١) Niebuhr. RB. Bd. 1. S. 319.

(٢) Niebuhr. C., RB. Bd. 1. S. 439 - 440.

(٣) Niebuhr. BVA. 222

فيمن، وذلك قبل أن استطرد في عرض هذه الصورة. وسوف أحاول في ما يلي أن أتبع مفهومي التقديس في اليمن، كما رسمهما نيبور وهما: ربط نشوء بعض المدن بالأولياء، وترويج الأساطير حول قدراتهم ومعجزاتهم، متدرجاً في عرضي بحسب خط الرحلة، الذي سلكته البعثة، من مدينة اللحية وحتى مدينة تعز.

مدينة اللحية[1]:

أنشئت مدينة اللحية منذ حوالي ٣٠٠ عام بالنسبة للزمن الذي زار فيه نيبور اليمن. وقد أنشأها ولي يعتبره المواطنون حامي هذه المدينة. فقد بنى هذا الولي كوخاً على الشاطىء، وأقام فيه. ولما توفي أقيمت على قبره قبة. ولما كان المسلمون السنيون يتبركون بالأولياء، فقد أخذ الناس شيئاً فشيئاً يبنون مساكن لهم حول قبره. وهكذا أنشئت مدينة اللحية. وكان مقر العامل، قبل نشوء مدينة اللحية، في مدينة مرابية Maràbea، التي تبعد عن اللحية بمقدار ميل واحد(*)، نحو الشمال، ولكن ميناء هذه المدينة ساءت حالته مع الزمن، في الوقت نفسه الذي كانت تتسع فيه اللحية. ولذا أصبحت اللحية مقراً للعامل.

وقد قبر أحد أبناء حامي اللحية في Bahâs والآخر في مور ويعتبر كل واحد منهما حامياً للمنطقة التي قبر فيها.

مدينة بيت الفقيه[2]:

ليست مدينة بيت الفقيه من المدن القديمة، فإنشاؤها يرجع إلى بضع مئات من السنين فقط. وقد أنشئت حول قبر أحد الأولياء وسميت باسمه بيت الفقيه. والفقيه المقصود بهذه التسمية هو الفقيه أحمد بن موسى. ويوجد قبره

(1) Niebuhr, RB. Bd. 1, 304 - 305.

(2) Niebuhr, RB. Bd. 1. S. 319 - 320.

(*) الميل الألماني القديم يساوي ٧٥٣٢ متراً.

في مسجد يقع خارج المدينة. وتقام حول هذا القبر زيارة في شهر ربيع الأول من كل عام. ويرتبط ازدهار مدينة بيت الفقيه بتضاؤل أهمية مدينة غليفقة ومدينة زبيد. ومع تزايد أهمية بيت الفقيه بنى حاكمها قلعة في مكان مختار قريب من الماء، وأخذ الأهالي يبنون بيوتهم حول القلعة «فقد أصبحوا يرجون الحماية، كما يبدو، من العامل وقلعته أكثر مما يرجونها من وليهم»(١). وهكذا تزاحموا حول القلعة، حتى أصبح لا يُرى بجانب مسجد الولي الفقيه أحمد بن موسى سوى بضعة أكواخ.

ومن معجزات الفقيه أحمد، يروي الناس الحكاية التالية:

سُجن أحد الباشوات الأتراك في أسبانيا مدة عشرين عاماً، وقُيد بقيود ثقيلة، ورُبط إلى صخرتين ضخمتين. وقد استمر يهتف مستغيثاً بالعديد من الأولياء، دون جدوى، حتى تذكر الولي أحمد بن موسى. فما أن هتف باسمه حتى مد الولي أحمد يده من القبر، وفي لمح البصر جاء الباشا بقيوده مع الصخرتين أيضاً. وقد حدثت هذه المعجزة في ليلة أصبحت موعداً لإقامة زيارة سنوية حول قبر هذا الولي.

مدينة المخا(٢):

مدينة المخا، كمدينة بيت الفقيه، ليست من المدن القديمة، إذ لا يزيد عمرها عن ٤٠٠ سنة بالنسبة للزمن الذي زار فيه نيبور اليمن.

وينسب إنشاؤها إلى ولي مشهور هو علي بن عمر الشاذلي(٣). وقد عرف هذا الولي أثناء حياته بالزهد والورع، فأخذ الناس يقصدونه من أماكن بعيدة، ليستمعوا إلى تعاليمه ومواعظه. ولا يرجع إلى علي بن عمر الفضل في إنشاء

(١) Niebuhr, RB, Bd. 1, S. 319

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 439 - 440.

(٣) Niebuhr, BVA, 222.

المدينة فحسب، بل يرجع إليه الفضل أيضاً، وفي الوقت نفسه، في نشر استعمال البن، وتأسيس تجارته، وإبراز قيمته، داخل اليمن وخارجها، الأمر الذي أدى إلى اعتباره حامي المقاهي، كما سنرى.

ففي يوم من الأيام ألقت إحدى السفن، المتجهة من الهند إلى جدة، مراسيها أمام شاطىء المخا. وعندما شاهد ركاب السفينة الهنود كوخاً وحيداً منتصباً في الخلاء تملكهم الفضول، وأرادوا معرفة أمره، فنزلوا إلى البر واتجهوا نحو الكوخ، الذي كان يسكنه الشيخ علي بن عمر الشاذلي. وقد استقبلهم الشاذلي استقبالاً طيباً، وقدم لهم شراب البن، وهو شراب كان يحبه كثيراً. وظن الهنود، الذين لم يكونوا قد عرفوا البن من قبل، أنه نوع من أنواع الدواء، واعتقدوا أنهم إذا سقوه لتاجر، زميل لهم، كان مريضاً على ظهر السفينة، فإنه سيشفى. وقد أكد لهم الشاذلي، أنه بفضل دعواته وبفضل شراب البن، لن يشفى مريضهم فحسب، بل وسيجني أرباحاً طائلة. إذا هو أنزل بضاعته إلى البر وباعها في هذه المنطقة. وأنه (أي الشاذلي) قد تنبأ بأن هذه المنطقة ستكون مركزاً تجارياً كبيراً. وأن الهنود سيبيعون مستقبلاً الجزء الأكبر من بضائعهم فيها.

أثار الشاذلي بحديثه فضول الهنود أكثر فأكثر، وأنزلوا مريضهم إلى البر ليسمع ويرى بنفسه ذلك الرجل غير العادي. وفي اليوم نفسه أمَّ المكان أناس كثيرون. جاؤوا إليه من مناطق مختلفة ليستمعوا إلى مواعظ الشيخ الشاذلي.

شرب التاجر الهندي المريض البن، الذي غلاه له الشيخ الشاذلي بنفسه، وشعر بالتحسن. وكان بين من أمَّ المكان تجار كثيرون، قاموا بشراء جميع البضائع المحملة على السفينة. وعاد التجار الهنود مسرورين إلى الهند. وأشاعوا هناك خبر هذا الولي، الذي أصبح، شيئاً فشيئاً، مشهوراً في الهند. وبدأت البيوت تبنى حول كوخ الشاذلي، وأخذ عدد السفن القادمة من الهند

إلى المخا بالتزايد. وتحول الكوخ إلى قرية ثم إلى مدينة مزدهرة، هي مدينة المخا الحالية.

وعندما مات الولي علي بن عمر الشاذلي شيد على قبره مسجد معروف باسمه. وهو يقع خارج المدينة. وهناك بئر تعرف باسمه أيضاً. كما سمي باسمه واحد من أبواب المدينة. ولا زال واحد من أنساله يسكن المخا، ويحظى باحترام الناس، الذين يخاطبونه (بالشيخ). ويقسم الناس باسم الشاذلي دائماً «ولا يعتبر الشاذلي حامي مدينة المخا فحسب، بل وحامي كل المقاهي في تهامة، فيذكره الناس في تلك المقهى كل صباح، عندما يقرؤون الفاتحة... ويحمدون الله أنه عرفهم بواسطة الشاذلي على استعمال البن ويطلبون له ولذريته الرحمة»[1].

مدينة تعز[2]:

كانت مدينة عدينة، التي تقع أطلالها فوق مدينة تعز، في جبل صبر، هي مقر حكام هذه المنطقة. ولما مات أحد الحكام. وهو الملك إسماعيل مالك Ismael Mülk ، تم دفنه تحت جبل القاهرة، بناءً على وصيته. وأخذ أهالي مدينة عدينة وغيرهم يبنون لهم بيوتاً حول قبر هذا الملك الولي. وبهذه الصورة نشأت مدينة جديدة، هي مدينة تعز. «وهكذا فإن الفضل في إنشاء مدينة تعز يرجع إلى الأولياء المسلمين، تماماً كما هو الحال بالنسبة لنشأة كل من اللحية وبيت الفقيه والمخا»[3].

ويعتبر الولي إسماعيل حامي مدينة تعز. وقد بُني مسجد عند قبره، يعرف باسمه، ولا يسمح بالاقتراب منه. ولمنع الاقتراب منه سبب توضحه الحكاية التالية:

---

(1) Nebuhr, C., RB. Bd 1, S. 440.

(2) Niebuhr, C., RB Bd 1, S. 379 - 381.

(3) Niebuhr, C., RB. Bd. 1, S. 381.

جاء متسولان إلى حاكم مدينة تعز يطلبان الإحسان. فمنح الحاكم أحدهما دون الآخر. وهرع المتسول الذي لم يمنح إلى قبر الملك الولي إسماعيل، وهتف باسمه يطلب الإنصاف. وكان الولي اسماعيل معروفاً في حياته بالسخاء والجود. ولم يرد ـ في مماته ـ أن يرجع المستول خائباً. ففتح قبره وسلم للمتسول رسالة موجهة إلى الحاكم، يأمره فيها أن يدفع للمتسول مئة ريال. وأمر الحاكم بفحص الرسالة فحصاً دقيقاً فثبت أنها بخط إسماعيل، وأنها قد مُهرت بتوقيعه. فلم يجرؤ الحاكم على الرفض. واضطر إلى دفع المبلغ للمتسول على مضض. لكنه أمر بعد ذلك ببناء حاجز يحول بين الناس وبين الوصول إلى قبر إسماعيل، حتى لا يتكرر ما حدث، ويذهب المتسولون إلى القبر لطلب الإحسان.

وإلى جانب هؤلاء الأولياء الذين ينسب إليهم ـ أحياءً أو أمواتاً ـ تأسيس مدن اللحية وبيت الفقيه والمخا وتعز، تكررت إشارات نيبور إلى أولياء آخرين، أمثال حامي مدينة جيزان، الشيخ حسن بن صادق بن الولي الشاذلي[1]. وأحمد بن علوان، «والولي المشهور المقبور في يفرس»[2]، الذي علم مريديه كثيراً من فنون «السحر الطبيعي»[3]، كأن يعرضوا أنفسهم لقرص الأفاعي السامة، أو يطعنوا أجسادهم العارية بالسيف، دون أن يلحقهم أي ضرر. والشيخ موسى المقبور في مسجده المعروف الواقع في خارج سور مدينة تعز، في الجهة الغربية منه، وقد سمي باسمه باب مدينة تعز المؤدي إلى مسجده، ويعرف اليوم باسم باب موسى [4].

وفي حضرموت تقام زيارة سنوية حول قبر النبي هود . وعدا عن المعنى الديني لهذه الزيارة، فإنها تمثل موسماً تجارياً هاماً[5].

---

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 267.

(2) Niebuhr, C., BVA, S. 243.

(3) Niebuhr, C., BVA, 243.

(4) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 380.

(5) Niebuhr, BVA, S. 288.

٧. العلم والعلماء:

رغم أن مدينة زبيد كانت قد فقدت أهميتها، كمدينة أولى في تهامة، وكمقر لحاكم المنطقة، وحلت محلها في الأهمية مدينة بيت الفقيه، فإن نيبور قد أشار عند زيارته لها إلى أن اهم ما فيها هو أكاديميتها، التي كانت لا تزال تمارس دورها في خدمة العلم(*)، وتنتفع بها تهامة كلها وجزء من الهند. وهي أكاديمية معروفة «منذ سنوات طويلة»(١)، ولا زال طلاب العلم يدرسون فيها العلوم الإسلامية(٢). وقد وجد نيبور في مدينة مسقط عالماً هندياً، قضى سنوات من عمره في أكاديمية زبيد، وذكر أن ذلك العالم قد شرح له معنى «أهل الكساء»(٣). كما وجد عالماً آخر في الهند، قضى أيضاً سنوات في الأكاديمية، وقد شرح له ـ أي لنيبور ـ نظام القضاء في اليمن(٤).

هذه الإشارات تفصح عن مدى أهمية أكاديمية زبيد، ليس في داخل اليمن فحسب، بل جاوزت أهميتها حدود اليمن، حتى أصبح يقصدها طلاب العلم من بلدان إسلامية بعيدة كالهند.

وكانت هذه الأكاديمية أحد مركزي العلم الرئيسيين في اليمن. أما المركز الثاني فقد كان في ذمار. وقد أشار نيبور، عند مروره بذمار ومشاهدته لأعداد كبيرة من الطلاب، إلى أن أكاديمية ذمار أكاديمية مشهورة، تدرس فيها العلوم الإسلامية. وأنها تضم حوالي خمس مئة طالب(٥). وكانت هاتان الأكاديميتان تخرجان علماء متفقهين على المذهبين، الزيدي في ذمار والسني في زبيد.

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 328.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 328.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 10 - 11, 270.

(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 205.

(٥) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 407.

(*) عرفت زبيد خلال تاريخها الإسلامي اكثر من مدرسة. وقد أورد القاضي إسماعيل الأكوع اسماء ٤٧ مدرسة، كان معظم مشائخها من أتباع المذهبين الشافعي والحنفي.
انظر: الأكوع، المدارس الإسلامية، ص ١٨ ـ ٢٨١.

وبكي وضع نفسه، كما يستشف من بعض الإشارات، لم يكن وضعاً كريماً. فقد تكررت إشارات نيبور إلى العلماء الفقراء، ولم يشر مرة واحدة إلى عالم غني، مستثناً الحكام منهم. ففي سياق حديثه عن إقامة البعثة في مدينة اللحية قال: «ومن بين العرب الذين زارونا في هذه المدينة عالمان فقيران، حصلت منهما على الكثير من المعلومات الجغرافية والأخبار، التي ضمنتها كتابي وصف بلاد العرب»[1]. وفي رحلته من بيت الفقيه إلى زبيد رافقه عالم فقير قال عنه: «ولقد استمتعت بصحبته كثيراً»[2].

وأكد نيبور أنه يوجد بين اليمنيين علماء يعرفون الحسابات الفلكية ويستطيعون وضع تقويم تاريخي، وأن لديهم طريقة خاصة لحساب الزمن، ولكنه لم يتمكن من التعرف على تلك الطريقة[3].

٨. الفنون:

أكد نيبور أن الفنون في اليمن «في وضع سيء للغاية[4]. فالمسلمون بشكل عام لا يقبلون التماثيل والرسوم. ولهذا لا يوجد في اليمن رسامون ولا نحاتون[5].

ولئن كان المرء في تركيا، رغم أنها بلد مسلم، يلمس اهتماماً بالموسيقى، تحت تأثير الصوفية المولوية(*)، فإن هذا الفن في اليمن مهمل تماماً «فلم نسمع في هذا البلد صوت آلة موسيقية أخرى غير الطبل والمزمار»[6]. وينظر اليمنيون إلى الموسيقيين نظرة تخلو من الاحترام، ومع

---

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 311.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 326.

(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 386.

(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 215.

(٥) Niebuhr, C., BVA, S. 216.

(٦) Niebuhr, C., BVA, S. 216.

(*) المولوية طريقة صوفية أسسها جلال الدين الرومي (١٢٠٧ م - ١٢٧٣ م). نظر: LIW, Bd. 1, S. 147 - 148.

ذلك فإنهم يستمتعون بالموسيقى ويطربون لها. فقد كان أهالي اللحية يتحلقون حول أفراد البعثة، حينما كانوا يعزفون في المساء بآلاتهم الغربية. ورغم غرابة الأنغام، فقد كان يلاحظ عليهم الانسجام والاستمتاع[1].

ولعل الفن الوحيد الذي كان موجوداً في اليمن هو الشعر، فقد أشار نيبور إليه إشارة واحدة ذات دلالة، حيث قال: «يقال أن في الجوف أفضل شعراء اليمن»[2].

٩. النقوش والآثار:

لم يشاهد نيبور نقوشاً يمنية قديمة، ولكنه أشار مراراً إلى وجود نقوش في بعض الأماكن، حكي له أنها ليست عربية ولا عبرية. وقد استنتج أنها نقوش يمنية قديمة. وأهاب بالعلماء الأوروبيين أن يزوروا مواقعها وأن يحاولوا دراستها[3]. وقد استفاد العلماء الرحالة، الذين جاؤوا إلى اليمن فيما بعد، من إشارات نيبور وقصدوا المناطق التي تحدث عن احتمال وجود النقوش فيها. كمنطقة ظفار التي استطاع (سيتسزن Seetzen)، استناداً إلى إشارات نيبور، أن يصل إليها ويعثر على نقوش حميرية فيها، وذلك عام ١٨٠٩ م[4].

وقد تحدث نيبور عن مأرب، ووصف سدها، كما تقدم معنا، ولكنه أخطأ في حكمه على قيمة آثارها، فقد قال إنها توجد في آثار مأرب «بقايا قصر بلقيس، ولكن لا توجد هناك نقوش، ولهذا ربما لا تستحق هذه الآثار أن يشاهدها المرء»[5]. وحكمه هذا يستند إلى ما سمعه من وصف لمأرب وآثارها، إذ أنه لم يزرها بنفسه.

وفي بعض الأماكن كبيت الفقيه وغليفقة عثر نيبور على كتابات

---

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 302.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 272.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 234, U. RB, Bd. 1, S. 400 - 401.

(٤) Dawani, Yemen, S. 61.

(٥) Niebuhr, C., BVA, S. 277.

كوفية(١)، قام بنقلها ونشرها فيما بعد في كتابه (وصف بلاد العرب). ويروي في يومياته، كيف استطاع أن ينقل كتابة كوفية في عبيعدة(*). فقد وجد حجرين مكتوب عليهما بالخط الكوفي، واستطاع أن ينقل ما كتب على أحدهما، وفي اليوم التالي عاد إلى مكان الحجرين، لينقل ما كتب على الحجر الآخر، ولكنه لم يجده في مكانه. فتوجه إلى الحاكم وأخبره بالأمر ووعده بهدية إذا هو ساعده في العثور على ذلك الحجر. فأخذه الحاكم، وسار به عبر أزقة ملتوية، حتى وصلا إلى كوخ، تحته قبر أحد الأولياء، واسمه الشيخ صالح، وهناك كان الحجر الآخر. وقد أكد الحاكم لنيبور بأن الحجر لم ينقله إلى هناك أحد من الأهالي، بل أتى به الشيخ صالح نفسه، ليبقيه تحت حمايته»(٢).

وذكر نيبور أن اليمنيين يكتبون عادة أسماء المدن، دون وضع نقط على الحروف(٣). كما لاحظ وهو في مدينة مسقط أن أهالي عمان لا يزالون يطلقون على أبنائهم أسماء قديمة، كتبع وحمير(٤).

---

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 320, 324.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 324.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 282.

(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 186.

(*) انظر الملحق.

الفصل الرابع

وصف المدن والطرق

سجل نيبور، في ما سجله، وصفاً للمدن اليمنية، التي مر بها. كما أورد أسماء كثير من القرى المنتشرة على طول خط الرحلة. وتكررت إشاراته، إلى جانب ذلك، إلى حالة الطرق، التي سلكها. كما ضمن كتابيه (وصف رحلة إلى بلاد العرب والبلدان المجاورة) و(وصف بلاد العرب) رسوماً لبعض المدن، إضافة إلى رسوم الملابس والأدوات الزراعية والحقول... إلخ،(*) بعضها قام برسمه رسام البعثة باورنفايند، والبعض الآخر قام برسمه نيبور نفسه.

ويمثل ما قدمه نيبور، من وصف ومن رسوم، توثيقاً تاريخياً لوضع المدن والقرى والطرق والملابس والأدوات... إلخ، في يمن القرن الثامن عشر.

وسوف نستعرض هنا وصف نيبور للمدن والطرق، وفقاً للتسلسل الذي وردت فيه في كتاباته، أي وفقاً لمسار رحلته من اللحية وحتى صنعاء.

١. **مدينة اللحية**(١):

تقع اللحية في منطقة قاحلة، غير صالحة للزراعة. تغمر مياه البحر جانبها

(*) انظر الملحق.

(١) Niebuhr, C., RB. Bd. 1. S. 304 - 308.

الشمالي المنخفض، إذا استمر هبوب الرياح الجنوبية فترة طويلة، فتبدو اللحية عند ذلك كما لو أنها تقع على جزيرة. واللحية هي الميناء الشمالي لمملكة الإمام، ولكنها ميناء رديء، إذ تضطر السفن إلى الرسو بعيداً عن الشط، ويتم نقل البضائع والركاب، من السفن إلى البر أو العكس، بواسطة القوارب. وعندما يكون مستوى الجزر منخفضاً، فإن القوارب نفسها تعجز عن الوصول إلى الشاطىء.

ومدينة اللحية مدينة غير مسورة، ومع ذلك فإنها ليست مفتوحة بشكل كامل إذ إنها محاطة باثني عشرة قلعة، كل قلعة منها تبعد عن الأخرى مسافة مئة وعشرين خطوة مزدوجة (حوالي ٢٠٠ إلى ٢٥٠ متر)، ولكل منها باب مرتفع لا يمكن الوصول إليه إلا بواسطة سلم متحرك. أما بيوت المدينة فبعضها مبني بالحجارة، ولكن معظمها عبارة عن أكواخ كتلك الأكواخ المنتشرة في تهامة. وبما أن هذه الأكواخ غير مقسمة في الداخل إلى غرف، فإن الأسرة الواحدة تضطر - إذا كان عددها كبيراً - إلى بناء عدة أكواخ متجاورة. مما يجعل المدينة تحتل رقعة من الأرض واسعة، رغم أن عدد سكانها ليس كبيراً(*). وفي خارج المدينة توجد عدة محارق في العراء، تستخدم لحرق الأحجار المرجانية. والماء في اللحية سيء للغاية. ولهذا فإن مياه الشرب تجلب من بئر في وادي نعمان Naamân ، الذي يبعد عن اللحية بمسافة $\frac{3}{4}$ الميل (حوالي د كلم)(**)، نحو الجنوب الشرقي، أو من بئر Kandie ، التي تبعد عن اللحية بمسافة $2\frac{1}{3}$ ميل (حوالي ١٨ كلم)، أو من بئر فتيته Ftite ، التي تبعد عن اللحية بمسافة $2\frac{1}{2}$ ميل (حوالي ١٩ كلم)، نحو الشمال الشرقي، والماء المجلوب من بئر فتيتة هو أفضل ماء للشرب يمكن الحصول عليه في اللحية.

(*) لم يحدد نيبور عدد السكان.

(**) استخدم نيبور في قياس المسافات الميل الألماني القديم، وهو يساوي ٧٥٣٢ متراً.

١. مدينة بيت الفقيه(1):

تقع مدينة بيت الفقيه على سهل فسيح، تنتشر الزراعة فيه على الرغم من انه يبدو سهلاً غير خصب. وهي مدينة غير مسورة، تنتشر مبانيها على رقعة واسعة من الأرض. ومعظم بيوتها عبارة عن أكواخ، مبنية بالطريقة التهامية المعتادة. وتوجد فيها قلعة، بداخلها بئر عميقة. وليس في المدينة منارات، سوى منارة واحدة، هي منارة المسجد الكبير. وبفضل موقع بيت الفقيه أصبحت أهم سوق للبن في اليمن، بل في العالم كله، فهي لا تبعد عن مناطق البن الجبلية بأكثر من مسافة يوم ونصف اليوم، وعن ميناء الحديدة بمسافة أربعة أيام، وعن ميناء المخا، بمسافة أربعة أيام ونصف اليوم، وعن صنعاء بمسافة ستة أيام(*). ويسكن فيها عدد كبير من الهنود الوثنيين، وخاصة من منطقة ديو Diu. وتعتبر بيت الفقيه مدينة حديثة نسبياً. إذ إن عمرها لا يتجاوز بضع مئات من السنين.

٢. مدينة غليفقة(2):

كانت مدينة غليفقة مدينة مشهورة، عندما كانت ميناءً لزبيد، ولكنها اصبحت غير صالحة لرسو السفن، وتلاشت أهميتها، ولم تعد تتكون سوى من ثلاثين كوخاً على الأكثر، مبعثرة بين أشجار النخيل. وسكانها فقراء، يعتمدون في معيشتهم على التمر وتربية الماعز وصيد السمك. وليست غليفقة غنية إلا بملح الطعام. حيث يتوفر فيها بكميات كبيرة. ولا يشاهد المرء من بقايا المدينة القديمة سوى جدران متهاوية لمسجد كبير، هو مسجد السيد علي. والسيد علي هذا مقبور في قرية موشج، ويعتقد سكان غليفقة أنه بفضل دعواته سخر الله لهم نبع ماء عذب، كانوا لا يزالون يشربون منه (أي عند زيارة نيبور لهذه المدينة).

---

(1) Niebuhr, C., RB. Bd. 1. S. 317 - 320. U. BVA, S. 226.

(2) Niebuhr, C., RB. Bd. 1, S. 323.

(*) يبدو هذا التقدير غير دقيق إذا قارنا المسافات بين بيت الفقيه والمخا، وبينها وبين صنعاء.

٤. مدينة الحديدة[١]:

تعتبر مدينة الحديدة ميناء بيت الفقيه. وبعض بيوتها مبنية بالحجارة، كمقر العامل، ومبنى الجمارك، وبيوت أغنياء التجار. أما الغالبية العظمى من البيوت فهي عبارة عن أكواخ، مبنية على الطريقة التهامية. وفي الحديدة قلعة مطلة على البحر. ويعتبر الشيخ صادق، الذي يقع قبره خارج المدينة، حامي مدينة الحديدة.

٥. مدينة زبيد[٢]:

تقع مدينة زبيد في أكبر وديان تهامة وأكثرها خصوبة. وقد كانت في الماضي مقر حكام المنطقة، وأهم مركز تجاري فيها. ولكن بعد أن ضعفت أهمية غليفقة كميناء، وانتقل الثقل التجـاري إلى المخا والحديدة واللحية وبيت الفقيه، «لم يبق لزبيد سوى ظلال باهتة من ماضيها الزاهر»[٣]. ومع ذلك فلا زالت تبدو أكثر جلالاً وجمالاً من أي مدينة أخرى في تهامة، ويرجع ذلك إلى مكانتها الدينية الرفيعة. وقد ترتب على مكانتها الدينية أن أصبحت المؤسسة الدينية فيها أكثر ثراءً من سواها. حيث لا تقل حصة المؤسسة الدينية والمساجد عن $\frac{3}{5}$ دخل مدينة زبيد والمناطق المحيطة بها. في حين لا تزيد حصة الحكام عن $\frac{1}{5}$ والسكان عن $\frac{1}{5}$ أيضاً. وتضم المدينة عدداً كبيراً من المساجد، والقباب المبنية على قبور الأولياء، ويتم تجديد طلائها كل عام بمناسبة قدوم شهر رمضان. ومن بين مساجدها: مسجد ابن عمر، ومسجد الأشعري، الذي شيده الصحابي أبو موسى، ومسجد باشا، الواقع عند باب الشبارق، والمسجد الواقع عند باب القرتب، وعدد آخر بناه الباشوات الأتراك، الذين حكموا زبيد. ويضيف نيبور، خطأ، «وأما مسجد الإسكندرية الواقع في القلعة ومسجد

---

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 324 - 325.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd.1, S. 327 - 328.

(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 327.

الكمالية القريب منه، فيرجع الفضل في تشييدهما إلى سيدات(*) تركيات»[1].

ويشاهد المرء، إضافة إلى المساجد المذكورة، مساجد أخرى كثيرة، شيدت وفقاً للطابع المحلي المهيب. كما توجد آثار قنوات لتنظيم المياه القادمة من الجبال إلى المدينة. ولكن هذه القنوات لم تعد صالحة. ولذا فإن السكان يحصلون على مياه الشرب من الآبار، التي هي غير عميقة في هذه المنطقة. ويشاهد المرء في المدينة، وحولها أيضاً، حدائق جميلة.

وعن أبواب المدينة ذكر أبو الفداء أنه كان للمدينة ثمانية أبواب. ويعلق نيبور على ما ذكره أبو الفداء بقوله: «ولكني لم أسمع سوى عن أربعة أبواب»[2]، وهي: باب النخل، في الجنوب الغربي، وقد جرفته المياه قبل زمن قصير. وباب القرتب، الذي لا يزال قائماً، ولكنه ربما يُجرف قريباً، لكونه يقع في مجرى مياه الوادي. وباب الشبارق، الواقع في الجهة الشمالية الشرقية. وباب سهام، في الجهة الشمالية. والبابان الأخيران باب الشبارق وباب سهام لم تبق منهما سوى الجدران، أما عقودهما فقد انهارت.

وأما سور المدينة فقد انهار جميعه تقريباً. ويقوم المواطنون الفقراء بجمع ما تبقى من حجاراته، الملقاة على الأرض، لبيعها. ورغم ذلك ـ أي رغم انهيار السور ـ فإنه يمكن الوقوف على نطاق المدينةالقديم، بشكل دقيق. فلا يزال يوجد في معظم الأماكن، التي كان السور مقاماً عليها، ارتفاع واضح عن سطح الأرض «وقد سرت حول المدينة متتبعاً آثار سورها القديم وأبوابها، وتمكنت من الطواف حولها في مدة ساعة واحدة وبضع دقائق»[3]. ولا تشغل المساكن

---

(1) Niebuhr, C., RB, Bd.1, S. 327.

(2) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 328.

(3) Niebuhr, C., RB, Bd.1, S. 328.

(*) مسجد (ومدرسة) الكمالية شيده كمال الرومي، الذي حكم زبيد من عام ٩٢٧/ ١٥٢١ م، وحتى عام ٩٣٠ هـ/١٥٢٤ م. وأما مسجد ومدرسة الإسكندرية فقد شيده إسكندر بن سولي المشهور بإسكندرموز. الذي توفي عام ٩٤٣ هـ/١٥٣٧ م، بعد أن حكم في اليمن ستة أعوام ونصف: انظر: النهراولي، البرق، ص ٣٥ ـ ٣٦، ٥٦٥ ـ ٥٩.

القائمة أكثر من نصف المساحة الواقعة داخل إطار السور القديم. وتوجد حول المدينة بقايا من ضواحيهاالقديمة، ولا تزال قائمة، وفيها بعض المساجد.

وأهم ما يوجد في زبيد هو أكاديميتها المشهورة، والتي لا تزال محتفظة بمكانتها واهميتها، (أي حتى الزمن الذي زار فيه نيبور اليمن).

٦. مدينة العدين[1]:

مدينة العدين، مدينة صغيرة ومسورة، تتكون من حوالي مئتين وخمسين، إلى ثلاث مئة بيت، مبنية جميعها بالحجارة. ويجري بجانب المدينة مسيل (سائلة) صغير يصب في وادي زبيد. وفي خارج المدينة وعلى جبل مرتفع ينتصب قصر شيخ العدين وحاكمها، حيث يسكن هو وعائلته.

٧. مدينة جبلة[2]:

تقع مدينة جبلة على واد ضيق وعميق، متخذة شكلاً نصف دائري، بمحاذاة الوادي. ويصل امتدادها في الطول إلى حوالي خمس مئة خطوة مزدوجة(*). وأما عرضها فيبدو ضيقاً. ويعلق نيبور على ذلك بقوله: «ولذا فإني أشك في أن يبلغ عدد منازلها إلى ست مئة منزل»[3]. وطرق المدينة مرصوفة، وبيوتها عالية ومبنية بالحجارة، كما هو الحال بالنسبة لجميع البيوت في المناطق الجبلية. ويبدو منظرها جميلاً. وبالقرب من المدينة يسكن اليهود في قرية منفصلة.

وقد ذكر نيبور في يومياته، أنه لم يشاهد سوراً حول المدينة كما لم يشاهد فيها أية قلعة. إلا انه في كتابه (وصف بلاد العرب) أشار إلى أن عامل جبلة يسكن في قلعة[4].

---

(1) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 343.

(2) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 346. U. BVA, S. 238 - 239.

(3) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 346.

(4) انظر Niebuhr, C., RB. Bd. 1, S. 346. U. BVA, 238 - 239.

(*) حوالي ٩٠٠ متر تقريباً.

٨. **مدينة حيس**(١):

تقع مدينة حيس في تهامة، وهي مدينة صغيرة غير مسورة. وفيها قلعة يسكنها العامل. وليس في حيس سوى بيوت قليلة مبنية بالحجارة.

٩. **مدينة المخا**(٢):

تقع مدينة المخا في منطقة قاحلة، بسبب ندرة الأمطار. وهي مدينة ماهولة بالسكان ومسورة. وبالإضافة إلى السور، توجد أبراج للحراسة على طريق موزع، منتشرة بين المدينة وبئر البليلي Beleile . وعلى البحر تطل قلعتان مزودتان بمدافع. وهما قلعة طيار Teiâr وقلعة عبد الرب ابن الشيخ الشاذلي. وبعض البيوت داخل سور المدينة مبنية بالحجارة وبطريقة جميلة، مشابهة لطريقة بناء بيوت بئر العزب في صنعاء. أما أكثر البيوت، سواءً داخل السور أو خارجه، فإنها ليست أفضل من الأكواخ المنتشرة في تهامة.

وفي خارج المدينة تنتشر أشجار النخيل بكثرة. وبين هذه الأشجار توجد حدائق جميلة.

ولسور المدينة خمسة أبواب وهي:

١ - باب العمودي.
٢ - باب الشاذلي.
٣ - باب فجير.
٤ - باب صندل.
٥ - باب الساحل.

وقد ضمن نيبور يومياته المنشورة رسماً توضيحياً(٣) حمل عليه الأبواب الآنفة الذكر وفقاً للتسلسل الرقمي المذكور كما حمل عليه، إضافة إلى ذلك، بعض المواقع الهامة، وفقاً للتسلسل التالي:

---

(١) Niebuhr, C., RB. Bd. 1. S. 352

(٢) Niebuhr, C., RB. Bd. 1. S. 438 - 440. U. BVA. S. 222.

(٣) انظر الملحق.

٦ ـ مقر العامل.

٧ ـ المقبرة التي يقبر فيها الأوروبيون، وقد قبر فيها أول المتوفين من أعضاء البعثة الهولندية، وهو فون هافن.

٨ ـ أبراج على طريق موزع.

٩ ـ الطريق إلى بيت الفقيه.

ولم يتمكن نيبور من معرفة تاريخ إنشاء مدينة المخا بصورة أكيدة. إلا أنه أشار إلى أن المدينة تعتبر من المدن الجديدة. إذ لا يتجاوز عمرها أربع مئة عام. ويرتبط إنشاؤها باسم الولي الشيخ الشاذلي(*)، الذي يقع قبره خارج المدينة. وقد بُني فوقه مسجد كبير سمي باسمه. ويطلق اسم الشاذلي أيضاً على بئر ماء عذب يشرب منها سكان المخا.

ويسكن في المخا حوالي سبع مئة هندي. كما يسكن بعض اليهود منعزلين خارج المدينة[1].

١٠ ـ مدينة الدريبات وسجن ابن عقلان[2]:

مدينة الدريبات هي عاصمة منطقة ابن عقلان، وهي مدينة صغيرة، تقع على جبل، وتحتها، على الطريق يقع سوق، وفيه عدد من البيوت. وأهم ما يوجد في الدريبات هو السجن المخيف المشهور في كل اليمن. ويقع هذا السجن في سوق الدريبات وهو منحوت في الصخر، ولا يدخله نور النهار، ولا يدخله الهواء بحرية إلا إذا فُتح بابه.

وقد شاهد نيبور من خلال باب السجن وهو مفتوح عدداً كبيراً من السجناء، وقد قيدوا وربطوا جميعاً إلى سلسلة حديدية طويلة.

---

(1) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 443.

(2) Niebuhr, C. RB, Bd. 1, S. 375 - 376.

(*) هو علي بن عمر بن إبراهيم. عاش في الفترة من ١٣٥٤ م وحتى ١٤٢٥ م. انظر: الزركلي، الاعلام، مج ٤، ص ٣١٦.

١١. مدينة تعز[١]:

تقع مدينة تعز عند أقدام جبل صبر الخصب من جهة الشمال. وهي محاطة بسور يتراوح سمكه بين ستة عشر إلى أربعة وعشرين قدماً، وعليه عدد من الأبراج الصغيرة. وقد بني السور، كما بنيت الأبراج، من الجهة الخارجية بطبقة رقيقة من الياجور المحرق، ومن الجهة الداخلية باللّبن. وفي الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة، وضمن سورها، ينتصب مرتفع صخري حاد، يصل ارتفاعه، حسب تقدير العين المجردة، إلى أكثر من أربع مئة قدم. وعلى قمة هذا المرتفع يقع حصن القاهرة.

وقد أحيط الحصن بسورين: سور خارجي، هو امتداد سور المدينة، وسور داخلي.

ولمدينة تعز بابان: باب الشيخ موسى، والباب الكبير، وكلاهما يقعان على طريق المخا ـ صنعاء، وليسا بعيدين عن بعضهما، وهما مبنيان بالطريقة اليمنية. كما يوجد باب صغير في حصن القاهرة، باتجاه جبل صبر. وكان هناك باب صغير آخر، بين حصن القاهرة والباب الكبير، تم سده قبل سنوات قليلة.

وفي حصن القاهرة، كما على بابي المدينة: باب الشيخ موسى والباب الكبير، توجد بعض المدافع «وفي السنة التي زرنا فيها تعز كان هناك برج لا يزال في حالة التشييد، ويمكن أن توضع عليه بعض المدافع»[٢]. ويوجد في المدينة حوالي ست مئة جندي، يتمركز ستون جندياً منهم في حصن القاهرة، والباقون موزعون على البابين والأبراج وفي داخل المدينة.

وقد ضمن نيبور كتابه رسماً توضيحياً[٣]، للمدينة، بين فيه المواقع التالية:

---

(١) Niebuhr, C., RB. Bd. 1, S. 377 - 381. U. BVA, S. 241.

(٢) Niebuhr, C., RB., Bd. 1, S. 378.

(٣) انظر الملحق.

١ ـ باب الشيخ موسى.
٢ ـ الباب الكبير.
٣ ـ البرج الجديد.
٤ ـ قصر السيد أحمد.
٥ ـ قصر السيد عبد الله.
٦ ـ مسجد الأشرفية، وتستخدم أقبيته كمخازن للحبوب.
٧ ـ مسجد إسماعيل، وهو مسجد كبير، ويجدد باستمرار، ولكنه ليس جميلاً، وتستخدم أقبيته كمخازن للبارود.
٨ ـ قبة حسين، وهي عبارة عن مبنى كبير وجميل يقف وسط مكان خال لا تحيط به أية مبان. وقد شيدت القبة على قبر أحد الباشوات الأتراك.
٩ ـ مسجد قصر Kasr.
١٠ ـ السوق، أو شارع السوق.
١١ ـ مساجد كبيرة خارج المدينة وقد تهدمت بعض أجزائها.
١٢ ـ المصلى، حيث تقام صلاة العيد. وهو محاط بسور، وفيه جناح للوضوء.
١٣ ـ الطريق إلى صنعاء.
١٤ ـ الطريق إلى المخا.

وفي خارج المدينة، في الجهة الغربية منها، يوجد مسجد الولي المشهور، الشيخ موسى، الذي سمي باسمه أحد بابي المدينة. وفي الجهة الشرقية من المدينة يوجد مسجد ضخم يقع على مرتفع، وبجانبه مبنى، لا يقل ضخامة عنه، يضم قبور الأفضل وأسرته. ويبدو طراز بناء المسجد والمبنى الآخر شبيهاً بالطراز التركي. مما يجعلني أظن أن الأفضل(*) هذا كان باشا في

(*) الأفضل العباس بن داود أحد ملوك الدولة الرسولية، تولى الحكم بعد وفاة الملك المجاهد عام ٧٦٤ هـ/١٣٦٣ م، وتوفي عام ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٥ م. انظر: الخزرجي، العقود، جـ ٢، ص ١١١ وما بعدها.

تعز[1]، وفي هذا المسجد، كما في المساجد الأخرى بالمدينة، توجد كتابات عربية، مكتوبة بشكل متداخل، تصعب قراءتها. وللمسجد منارتان، دمرت أجزاء منهما أثناء حرب تعز الأخيرة(*). ويوجد عدد آخر من المساجد داخل المدينة وخارجها، ولكن معظمها لم يعد يستخدم. ولهذا فقد أخذت تتهدم شيئاً فشيئاً.

وقد اهتم حكام تعز المتأخرون ببناء القصور أكثر من اهتمام أسلافهم، وبدلاً من بناء المساجد اكتفى كل منهم ببناء مبنى صغير، عليه قبة، بجانب بيته ليؤدي فيه الصلاة ويقبر فيه بعد موته. وتعتبر قصور السيد أحـمد(**) وأبنائه من أجمل قصور تعز. وقد توقف التوسع في البناء في مدينة تعز بشكل عام. وتشاهد في أماكن كثيرة في المدينة آثار الدمار التي خلفتها الحرب الأخيرة. وفي القرب من تعز تشاهد بقايا مدينتين قديمتين، هما: عُدينة Oddene، وتقع على سفح جبل صبر، فوق مدينة تعز مباشرة، ولم يبق منها سوى مساجد مهدمة، «ويقول العرب أنها كانت مقر حكام المنطقة»[2]. والأخرى ثعبات Tobâd، وتقع على بعد نصف ميل ألماني تقريباً، جنوب شرقي تعز، على جبل صبر، ولا تزال تشاهد بقايا من سورها ومن مسجد كبير فيها، لم تبق منه سوى قبة صغيرة. كما لا تزال تشاهد فيها جدران مسجد الأحمر، وهي مبنية بحجارة حمراء «وأغرب ما فيها خط طويل كتب في أعلى الجدار، ليس كوفياً ولا عربياً حديثاً»[3].

---

(1) Niebuhr, C., RB, Bd.1, S. 380.

(2) Niebuhr, C., RB, Bd.1 S. 381.

(3) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 381.

(*) شهدت تعز حرباً طاحنة بين الإمام المنصور حسين بن المتوكل قاسم وبين أخيه أحمد عامل تعز ولم تحسم هذه الحرب إلا بعد وفاة المنصور وذلك على يد ابنه الإمام المهدي عباس. انظر: الحداد، تاريخ اليمن، ص٣٣٧ومابعدها. وكذا: الجرافي، المقتطف، ص ١٩٥ وما بعدها. وزبارة، نشر العرف، ص ٥٩٥ وما بعدها، والشماحي، اليمن، ص ١٤٨.

(**) لعل المقصود هنا هو عامل تعز السيد أحمد بن المتوكل قاسم أخو الإمام المنصور، الآنف الذكر.

١٢. مدينة إب[١]:

تقع مدينة إب في قمة مرتفع، يحيط بها سور وأبراج، وبيوتها مبنية بالحجر، وطرقها مرصوفة. ويقدر عدد بيوتها عادة بثلاثة أرباع بيوت مدينة حلة «وبحسب تقديري لا يزيد عدد بيوتها عن خمس مئة بيت. أما العرب فيقدرون عددها بثمان مئة بيت، وبيوت حلة بألف ومئتي بيت»[٢].

وهناك، في مدينة إب، عدد من المساجد الصغيرة، ولكن ليس من بينها سوى مسجدين لهما منارات. وفي شرق المدينة ينتصب جبل مرتفع جداً، وهو جبل بعدان، الذي تنحدر منه المياه، التي يشرب منها السكان.

١٣. مدينة يريم[٣]:

يريم مجرد مدينة صغيرة، أو بالأحرى قرية كبيرة. فيها قلعة تقع على مرتفع صخري حاد، يسكن بداخلها عامل المنطقة. وبيوت المدينة مبنية إما بالحجارة أو بالياجور أو باللِّبْن المغطى بطبقة من الطين المخلوط ببراز الأبقار.

ولم يستطع نيبور أن يتعرف على المدينة بصورة جيدة بسبب مرضه. ولكنه استطاع، من نافذة المنزل الذي نزلت فيه البعثة، أن يرسم القلعة وجزءً من المدينة[٤].

١٤. مدينة ذمار[٥]:

تقع مدينة ذمار في منطقة سهلية. وهي مدينة كثيرة المباني وغير مسورة. وتوجد بالقرب منها قلعة كبيرة. وأشهر ما في ذمار أكاديميتها «والتي تضم، كما قيل لي، حوالي خمس مئة طالب»[٦]. ويسكن في المدينة عدد من الهنود. أما

(١)
(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 396. U BVA, S. 239.
(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 396.
(٤) انظر الملحق. Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 400.
(٥)
(٦) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 407.
Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 407.

اليهود فيسكنون في قرية خاصة بهم خارج المدينة. وفي مكان غير بعيد من ذمار يجري سيل صغير، تنتهي مياهه في رمال الجوف.

وقد أشار نيبور إلى أن أحد أعيان ذمار قد ذكر له أن ذمار تضم خمسة آلاف بيت، إلا أنه، أي نيبور، يشك في صحة هذا الرقم(١).

١٥. مدينة صنعاء(٢):

تقع مدينة صنعاء عند أقدام جبل نقم، الذي لا زالت توجد عند سفحه بقايا قصر قديم، يقول اليمنيون إنه كان قد بناه سام بن نوح. وفي الجانب الغربي من المدينة يوجد نهر صغير. وعلى ضفافه يقع بستان المتوكل، الذي أنشأه الإمام المتوكل(*)، وقد بنى فيه الإمام المهدي عباس قصراً جميلاً. وبستان المتوكل محاط بسور ترابي، يتصل طرفاه بسور المدينة(**)، وعليه أبراج كثيرة، يبعد الواحد منها عن الآخر بمقدار ثلاثين خطوة مزدوجة(***). وفي جانب المدينة المواجه لجبل نقم توجد قلعة، يؤكد اليمنيون أنها بنيت على تل غمدان، ولها سور متصل طرفاه أيضاً بسور المدينة.

ويحيط بمدينة صنعاء سور يفصلها عن القلعة، كما يفصلها عن بستان المتوكل. ويبلغ طول سور المدينة بما فيه سور القلعة مسافة يمكن قطعها في مدة ساعة وثمان دقائق بالسير المريح. ولا يدخل ضمن هذه المسافة سور بستان المتوكل.

---

(١) Niebuhr, C. RB. Bd. 1. S. 407.

(٢) Niebuhr, C.. RB. Bd. 1. S. 418 - 422. U. BVA. S. 231 - 232.

(*) الإمام المتوكل إسماعيل بن القاسم تولى الإمامة بعد وفاة أخيه محمد بن القاسم عام ١٠٥٤ هـ/١٦٤٤ م، واستمر فيها حتى وفاته عام ١٠٨٧ هـ/١٦٧٦ م. انظر: الزركلي، الأعلام مج ١، ص ٣٢٢.

(**) انظر الملحق.

(***) حوالي خمسين متراً.

ولمدينة صنعاء أربعة أبواب كبيرة، وهي:

١ ـ باب اليمن.
٢ ـ باب السبح.
٣ ـ باب شعوب
٤ ـ باب إستران Bab Esa'trân. وهذا الأخير ينفذ إلى القلعة، ولكنه لم يعد يفتح منذ سنوات عديدة.

وبالإضافة إلى الأربعة أبواب الكبيرة هناك ثلاثة أبواب صغيرة، وهي:

١ ـ باب شرارة.
٢ ـ باب حديد Hadid.
٣ ـ باب فجير Fogarr(*).

وتبدو مدينة صنعاء مدينة مأهولة بالسكان بشكل كبير، ولكنها مع ذلك ليست مزدحمة المباني، إذ تتخللها كثير من الحدائق. وقد أحصى نيبور عدد المنارات فوجدها تسع إلى عشر منارات(**). ويقع الجامع الكبير في منتصف المدينة وله منارتان، وأما المساجد الأخرى فقد قيل لنيبور أن أسماءها هي: المدرسة، صلاح الدين، الطواشي، البكيرية، ومسجد آخر داخل القلعة. ولكل من هذه المساجد منارة واحدة (***). وقد بُني بعض هذه المساجد من قبل الأتراك. وبنى الإمام المهدي عباس مسجداً فخماً غني بالمياه، التي ينتفع بها الإنسان والحيوان. وشيد بجانب المسجد مبنى صغير جهز فيه قبراً له.

(*) ذكر نيبور اسمين آخرين للبابين الصغيرين الأخيرين باب حديد وباب فجير وهما: Bab Hâlar و Baab Iatata. انظر: الهامش Niebuhr, C., RB, Bd. I, S. 418.

(**) هذه الطريقة في التقدير تكررت لدى نيبور أكثر من مرة، وليس لها سوى تفسير واحد، وهو أن نيبور قد سها في بعض الأحيان عن تسجيل العدد في حينه، ثم حاول تسجيله لاحقاً في وقت لم يعد متأكداً فيه مما إذا كان العدد مثلاً تسعة أم عشرة.

(***) لم يذكر نيبور مساجد أخرى غير ما ذكره أعلاه، ومع ذلك فإن عدد المنارات التي ذكرها تدل على وجود مساجد أخرى.

ويوجد في مدينة صنعاء حوالي اثني عشر حماماً عاماً. كما تنتصب مجموعة من القصور الفخمة، كقصر بستان السلطان ودار النصر ودار فتح Dar Fatch، وقد بنيت جميعها من قبل الإمام، المهدي عباس. إضافة إلى قصر الإمام المنصور وإلى العديد من البيوت الكبيرة، التابعة لأفراد أسرة الإمام. ولأعيان صنعاء. وهذه الدور والقصور مبنية بالحجارة المنحوتة أو بالياجور. وهناك بيوت كثيرة مبنية باللبِّن. ولنوافذ البيوت مصاريع، تظل مفتوحة في الطقس الجيد، وتغلق عندما يكون الطقس رديئاً، وعند ذلك ينفذ الضوء عبر كوة صغيرة مدورة، تقع فوق النافذة، وقد سدت بقطعة سميكة من زجاج ماريا Marienglas (*)، ينفذ الضوء من خلالها، وفي بعض بيوت الأعيان وضع زجاج، بعضه ملون جلب من البندقية، بدلاً عن زجاج ماريا. ولم يتمكن نيبور من رسم أي بيت من بيوت صنعاء، ولكنه عثر بين أوراق زميل رحلته، رسام البعثة، باور نفايند، على رسم لأحد بيوت بئر العزب، وجده كافياً لإعطاء صورة عن فن البناء اليمني.

وفي مدينة صنعاء ـ كما في مدن الشرق التجارية الكبيرة ـ محطات للقوافل ومبان مخصصة لمبيت التجار والمسافرين، يسمى الواحد منها سمسرة. كما توجد في صنعاء أسواق لمختلف أنواع السلع[1].

وتقع قلعة صنعاء على تل غمدان الشهير وبداخلها قصران: أحدهما يسمى دار الذهب Dar eddàhhb، والآخر دار أمير Dar Amer. وقد شاهد نيبور في قلعة صنعاء أطلالاً لمبان قديمة. ويسكن في القلعة عدد من أفراد أسرة الإمام. كما يوجد فيها دار لسك النقود، وسجون، ذات حجرات مختلفة الأحجام. وفي أعلى موقع في القلعة توجد جربة المدافع، أي حظيرة

---

(1) انظر ص ١٦٤ - ١٦٦ من هذا البحث.

(*) لعله يقصد القمريات المنحوتة من الرخام الأبيض الشفاف والتي لا زالت تعلو نوافذ بعض البيوت اليمنية حتى اليوم.

المدافع، وفيها عدد من المدافع. كما يوجد عدد آخر من المدافع موزع على ثلاثة أبواب من أبواب المدينة، وهي: باب اليمن وباب السبح وباب شعوب.

وفي غرب مدينة صنعاء توجد قرية، أو ضاحية بئر العزب، وفيها جامع كبير وله منارة. وتقع بيوت بئر العزب متناثرة على مسيل صغير. وبالقرب من بئر العزب توجد قرية كبيرة، تسمى قاع اليهود، يسكنها اليهود. وإلى الشمال من صنعاء تقع منطقة الروضة على مسيل، وتبعد عن صنعاء بمسافة ساعة ونصف إلى ساعتين، وتكثر فيها الحدائق. وعادة ما يشبهها العرب بمنطقة دمشق.

١٦. وصف الطرق:

تكررت إشارات نيبور إلى وجود طرق مرصوفة، سواءً في المدن، كمدينة جبلة ومدينة إب أو في مناطق الجبال كما في الجبال بين العدين وجبلة وفي جبل سمارة وجبل كوكبان. لكن هذه الطرق المرصوفة قد أهملت صيانتها ـ كما ذكر ـ منذ سنوات طويلة[1].

وإضافة إلى هذه الطرق صادف نيبور، بعد مغادرته القاعدة، متجهاً مع أفراد البعثة إلى إب، جسراً قائماً فوق عقد ضخم مبني بالحجارة وذلك قرب سمسرة Mhàrras [2]. ويستطيع المسافر أن يمر على ذلك الجسر، متجنباً مجرى الماء، المنحدر بقوة من الجبال. ويبدو من خلال أسماء القرى التي ذكرها نيبور مثل قرية ذوشرق Duschruk وقرية دمنة Dimne ، أن ذلك الجسر يقع على سائلة السياني.

---

(١) انظر: Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 344, 395, 396, 397, 398. U. BVA. S. 237, 257.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 394 - 395.

الفصل الخامس
الأحداث التاريخية

تناول نيبور تاريخ اليمن على وجهين: الوجه الأول كان عبارة عن عرض عام للتاريخ اليمني، أما الوجه الثاني فقد كان تسجيلاً لروايات متفرقة عن أحداث تاريخية معاصرة.

١. العرض التاريخي العام:

لم يعثر نيبور على كتب أو معلومات تمكنه من تسجيل صورة واضحة عن تاريخ اليمن القديم. ولذا فقد اكتفى بإيراد ما سمعه من بعض اليمنيين من تفسيرات لأصل اسم تبع [١]. ثم حاول أن يقدم عرضاً عاماً لتاريخ اليمن الإسلامي، معتمداً في ذلك على نصوص من كتاب (قرة العيون)، كان قد نقلها زميله فورسكال قبل وفاته، وعلى رواية مواطن هولندي، كان قد أسلم وقضى سنوات، في مدينة المخا وفي مناطق حاشد وبكيل، حاول خلالها أن يقرأ في التاريخ وفي العلوم الدينية. وقد قدم ذلك الهولندي روايته لنيبور شفوياً، وسجل جزءاً منها كتابة. وتغطي روايته تاريخ اليمن منذ عهد الإمام القاسم بن محمد وحتى عهد الإمام المهدي عباس، أي حتى زيارة نيبور لليمن. ولا يخرج عرض نيبور لتاريخ اليمن الإسلامي، وهو عرض موجز على أي حال، ولا يتجاوز

(١) نظر: Niebuhr, C., BVA. S. 185 - 186.

أربع صفحات وبعض من صفحات كتابه (وصف بلاد العرب)(*)، لا يخرج في مضمونه عما نجده في الكتب التاريخية التقليدية. ولذا فإن سرده هنا لن يكون أكثر من تكرار لا لزوم له.

وقد استهل نيبور عرضه التاريخي العام للحديث عن المصاعب، التي يواجهها الرحالة الأجنبي، عند محاولته التعرف على تاريخ بلد ما. ويعكس حديثه هذا بعض الفوارق القائمة حينذاك بين الوضع العلمي في كل من أوروبا والبلاد العربية. كما نورد أسماء بعض المراجع التاريخية، التي كانت متداولة في اليمن. ولعله من المفيد أن نقتطف بعض فقرات من حديثه هذا: «إذا كان من الصعب على الرحالة أن يحصل على معلومات موثوقة عن حاضر بلد من البلدان، فإن الأمر يغدو أكثر صعوبة بالنسبة لتاريخ ذلك البلد. وقد يشعر الرحالة الأوروبي، وهو يتجول في أوروبا بالسعادة، إذا تعرف على عالم ملم بتاريخ بلده. إلا أن مثل هذا العالم، نادراً ما يكون لديه الصبر والوقت، للتحدث مع شخص غريب، عن دقائق وتفاصيل تاريخ بلده. فإذا كان هذا هو الحال في أوروبا، فإن ما يتوقع الرحالة الحصول عليه في البلاد العربية هو أقل بكثير، حيث يندر وجود العلماء، ونحن لا نحسن لغتهم، الأمر الذي يتطلب منهم بذل جهد، قد لا يجدون في أنفسهم الرغبة في بذله معنا، بنفس القدر الذي يمكن أن يبذلوه مع أبناء دينهم. وفي جميع البلدان الأوروبية لا توجد فقط مكتبات عامة، بل يوجد أيضاً علماء يشتغلون بالتاريخ، مما يسهل على الرحالة جمع معلومات تاريخية، عن البلد الذي ينوي زيارته، حتى وهو لا يزال في بلده. أما العرب فلا يهتمون كثيراً بالتاريخ الحديث، ولا يهتمون مطلقاً بالتاريخ القديم، السابق على عصر محمد. ولا توجد لديهم مكتبات عامة في أي مكان. وحتى علماؤهم الكبار، لا يتوفر لديهم من الكتب، إلا ما هو ضروري جداً لهم»(1).

(*) من ص ١٧٨ إلى ص ١٩١.

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 185.

ثم يستطرد نيبور في الحديث عن الجهد الذي بذله للحصول على كتب تاريخية، وكيف ان البعض قد اطلعه على كتب، لكنه لم يجد وقتاً لنقلها، ولم يستطع ان يقنع اصحابها ببيعها. وينتهي إلى القول: «ولهذا فإنني سأذكر أسماء هذه الكتب، التي كان يشار إليها، كلما سألت عن تاريخ اليمن. فلربما وجد التجار الأوروبيون، الذين سيزورون المخا في المستقبل، فرصة لشرائها، أو ربما يتمكن المرء، بقليل من الجهد، من شرائها في القسطنطينية أو القاهرة. حيث توجد محلات لبيع الكتب. وهذه الكتب هي: البرق اليماني، نفايس العرايس، تاريخ الأولين والآخرين، جمهرة العرب، روح الروح، تاريخ الخزرجي»[1].

٢. روايات عن أحداث تاريخية معاصرة:

تلقى نيبور معلومات عن أحداث تاريخية معاصرة، لم يكن قد مضى على حدوثها زمن طويل. وكانت تفاصيلها لا تزال حية في ذاكرة المواطنين. بل لقد شاهد آثار بعضها بنفسه. مما يجعل روايته لها، بعد أن توثق من صحتها مستخدماً منهجه، الذي أشرنا إليه في فصل سابق[2]، تكتسب قيمة تاريخية، لقرب الحدث من الراوي والمتلقي. وسوف نسرد هنا هذه المعلومات كما رواها وبحسب تسلسلها الزمني.

أ. قصف مدينة المخا من قبل الفرنسيين[3]:

كان عامل الإمام في المخا يأخذ أحياناً بضائع هندية للإمام من التجار الفرنسيين، التابعين لشركة الهند الشرقية الفرنسية، دون أن يسدد ثمنها. وتراكمت الديون على العامل، أو بالأصح على الإمام، حتى بلغت اثنين وثمانين ألف ريال. وأخذ الفرنسيون يطالبون بتسديد المبلغ. وظل العامل

---

(١) Niebuhr, S., BVA, S. 186 - 187.

(٢) انظر ص ٥٦ـ٦٢ من هذا البحث.

(٣) انظر: Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 44 - 443. U. BVA, S. 222.

يسوف ويزجل. ووفق حوالي خمسة وعشرين عاماً، أي في عام ١٧٣٨ م،[1] أرسلت الشركة إلى المخا سفينة حربية، مرافقة لسفنها التجارية. وقام قائد السفينة الفرنسي، فور وصوله إلى ميناء المخا، بإبلاغ عامل الإمام، بأن الفرنسيين لن ينزلوا بضائعهم إلى البر، إلا بعد أن تسدد الحكومة اليمنية ما عليها من ديون.

وحاول العامل إقناع الفرنسيين بإنزال بضائعهم أولاً، ثم يمكن بعد ذلك التحدث في موضوع الديون. إلا أن الفرنسيين أرادوا أن يؤكدوا جديتهم وتصميمهم على تحصيل ديونهم، وذلك بعملية استعراض للقوة، فقصفوا القلعة الشمالية للمدينة ودمروها. وبعد ذلك جرت مفاوضات، أوضح العامل فيهاأنه لا يستطيع أن يدفع شيئاً، دون أمر من الإمام، وطلب مهلة مدتها خمسة عشر يوماً، ليتصل بالإمام، ويستمد منه التعليمات. ولما انقضت المهلة المحددة، ولم يتلق الفرنسيون أي رد، قاموا بقصف بيت العامل نفسه. وقتل نتيجة للقصف أحد المواطنين. ولما لم يؤد ذلك إلى نتيجة قاموا، أثناء صلاة الجمعة بقصف المسجد، الذي كان يصلي فيه العامل، وقتل نتيجة لذلك عدد من المواطنين.

وبدأ المواطنون، الذين سقط منهم عدد من القتلى، بسبب دين الحكومة، يوجهون لومهم إلى العامل، ويطالبونه بمعالجة الموقف وإرضاء الفرنسيين.

وقد تمت معالجة الموقف فعلاً. وذلك بأن قام أحد التجار اليمنيين في المخا بتسديد دين الإمام، وعادت المياه إلى مجاريها، وأنزل الفرنسيون بضائعهم إلى المدينة.

ويؤكد نيبور أنه عند وصول البعثة العلمية الدينماركية إلى المخا عام

---

(1) Niebuhr, C., RB. Bd. 1, 442

١٧١٢ م لم يكن التاجر، الذي سدد عن الإمام دينه للفرنسيين قد استرد نقوده من الإمام حتى ذلك الوقت.

ولم تنته عملية قصف المخا من قبل الفرنسيين دون رد فعل من قبل المواطنين، فقد أقدم احدهم على قتل احد الفرنسيين، بعد نزولهم إلى البر، انتقاماً لمقتل قريب له، كان قد قتل أثناء القصف.

ب. حرب تعز[1]:

كان الإمام المنصور حسين(*) قد عين أخاه الأمير أحمد عاملاً على تعز. وقد اظهر هذا رغبة في الاستقلال بحكم تعز عن سلطة أخيه الإمام، وضرب عملة باسمه، مما دفع الإمام المنصور إلى إرسال قوات إلى تعز لإخضاع أخيه. إلا ان اخاه استطاع أن يدافع عن المدينة بقواته المكونة من ألفي رجل. وظل مستقلاً بحكم تعز مدة اثني عشر عاماً. وقام بوضع حواجز جمركية، مما أجبر رعايا الإمام، المسافرين من المخا إلى صنعاء، أن يتجنبوا السفر عبر تعز، ويسلكوا طريق العدين.

وخلف الأمير أحمد بعد موته ستة أبناء، وهم: عبد الله وعلي ويحيى ومحسن ويعقوب وحسين. وتولى ابنه الأكبر عبد الله شؤون الحكم. وقد ساد السلام بينه وبين إمام صنعاء معظم فترة حكمه. وتوفي عبد الله عام ١٧٥٩ م، وكان له ابن اسمه عبد الكريم، ولم يكن قد تجاوز الثالثة عشرة من العمر، حال أعمامه بينه وبين أن يخلف والده في حكم تعز. وتنازع ثلاثة منهم الحكم، وهم: علي ويحيى ومحسن. وحاول كل واحد منهم أن يجمع حوله الأتباع. واستطاع أحدهم أن يسيطر على قلعة القاهرة، المطلة على مدينة تعز،

---

(1) انظر:

Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 381 - 384. U. BVA, S. 240.

(*) الإمام المنصور حسين بن القاسم تولى الإمامة في الفترة من ١١٣٩ - ١١٦١ هـ/١٧٢٧ - ١٧٤٨ م، انظر: العمري، مئة عام، ص ٤٤ - ٤٥. الجرافي المقتطف، ص ١٩٣. الحداد، تاريخ اليمن، ص ٣٣٦.

والآخر على باب الشيخ موسى، والثالث على الباب الكبير(*). ولكن لم يكن أيّ منهم يملك من الإيرادات المالية ما يمكنه من حشد أتباع كافين للتغلب على أخويه المنافسين. وعندما كانت تتوفر لهم بعض الذخائر، كانوا يتبادلون التراشق بها حتى تنفد. وظل الموقف بهذه الصورة، فلم يحل السلام بين الإخوة، ولم يستطع أحدهم أن يحسم الموقف لصالحه.

وإزاء هذا الوضع لجأ الأمير الصغير عبد الكريم إلى الاستعانة بابن عمه إمام صنعاء، المهدي عباس، الذي كان قد أصبح إماماً بعد وفاة والده الإمام المنصور عام ١١٦١ هـ /١٧٤٨ م. فكتب إليه يطلب نصرته ويرجو دعمه، حتى يتمكن من السيطرة على الموقف في تعز، والقضاء على أطماع أعمامه.

وانتهز الإمام المهدي الفرصة، وبعث بجيش إلى تعز، بقيادة النقيب الماس، مكلفاً بإخضاع المدينة، والقبض على المتمردين، وإيصالهم إلى صنعاء. ولما كان النقيب الماس غير مجهز بمدافع، فإنه لم يستطع اقتحام المدينة، واكتفى بمحاصرتها من الخارج، وإطلاق نيران البنادق باتجاه التحصينات، من مسجد الأفضل، الواقع خارج سور المدينة. ولم يستخدم المحاصرون (بفتح الصاد) مدافعهم ضد جيش الإمام، خشية أن يدفع ذلك الإمام إلى نقل بعض المدافع الضخمة، من المخا، لقصف تحصيناتهم. وبينما كان جيش الإمام يحاصر تعز، تقدم الشيخ عبد الرب، الذي كان قد استقل بحكم الحجرية عن مملكة الإمام ـ كما سيأتي معنا ـ ليساعد جيش الإمام في فتح المدينة. وقد نجح الشيخ عبد الرب، باستخدام الحيلة، في اقتحام المدينة. وذلك عن طريق رشوة بعض الجنود المدافعين. فقد وعد اثني عشر جندياً، كانوا يدافعون عن أحد الأبراج، في الجهة الشرقية من السور، بإعطائهم ألف ريال مقابل تعاونهم معه، وحفر ثغرة في برجهم إلى الخارج، تستطيع بعض القوات المحاصرة للمدينة أن تنفذ منها. وقد تم ذلك فعلاً، واقتحمت

(*) هذه الأبواب الرئيسية لمدينة تعز.

القوات الإمامية، وقوات الشيخ عبد الرب، مدينة تعز، ونهبتها وألقت القبض على الأمراء المتنافسين، وذلك عام ١٧٦٠ م. وأمر الإمام بقدوم الأمراء ومعهم عبد الرب إلى صنعاء، وزج بالأميرين يحيى ومحسن في السجن. وأما الأمير علي، الذي كان والد زوجة الإمام، فقد احتفظ بحريته، وظل يعيش في البلاط بصنعاء مع إخوته الآخرين وابن أخيهم، الأمير عبد الكريم، الذي شاهده نيبور يسير مع أعمامه في موكب الإمام، عند عودة الإمام من صلاة الجمعة. وأما الشيخ عبد الرب فقد كان له مصير آخر، كما سنرى في الفقرة التالية.

ج . الإمام المهدي عباس والشيخ عبد الرب بن أحمد[1]:

توفي الإمام المنصور في صنعاء عام ١٧٤٨ م، بعد حكم دام واحداً وعشرين عاماً، مخلفاً وراءه «خمسة عشر إلى عشرين ولداً»[2]. وكان يفترض أن يتولى الإمامة بعده ابنه علي، وهو الابن الأكبر، من الزوجة الأولى، ابنة السيد محمد بن حسين، حاكم كوكبان. ولكن هذه الزوجة، التي كانت عام ١٧٦٣م لا تزال تسكن في صنعاء في قصر يسمى دارسنان، لم تكن بذكاء زوجة الإمام الثانية، أم ولده عباس، التي كانت جارية للإمام قبل أن يتزوجها. فقد كتمت أم عباس خبر موت زوجها، الإمام المنصور، إلى أن تمكن وزير الإمام، القاضي يحيى بن صالح، أن يحشد حوله الأنصار، للوقوف مع الأمير عباس، وتمكن من اعتقال الأمير علي وزج به في السجن. وقد بقي في السجن حتى توفي عام ١٧٥٩م. وبعد أن تمكن عباس من الأمر وأعلن إمامته ولقب بالمهدي، أمر بالقبض على نصيره، القاضي يحيى وأودعه السجن، ولم يطلق سراحه إلا قبل فترة وجيزة من وصول البعثة الدينماركية إلى صنعاء.

خاض الإمام المهدي حروباً عديدة ضد منافسيه، وضد بعض القبائل، التي انتفضت عليه. فقد أعلن أمير كوكبان، أحمد بن محمد بن حسين،

---

(1) انظر: Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 383-384, 307, U. BVA, S. 197-204.

(2) Niebuhr, C., BVA, S. 204.

إمامته، ودخل في حرب مع الإمام المهدي عباس، انتهت بعقد اتفاقية سلام بينهما. وتخلى أحمد بن محمد عن الإمامة، لكنه ظل يحكم منطقة كوكبان، مستقلاً عن سلطة الإمام.

وفي عام ١٧٥٠م دخل الإمام في حرب ضد قبائل نهم وذيبان(*)، التي تحركت بحوالي ثلاثة آلاف مقاتل، حتى كادت تصل صنعاء. وقد تمكن من إلحاق الهزيمة بها.

وفي عام ١٧٥٧م هاجمت قبائل حاشد وبكيل قوات الإمام، التي كانت تتجمع في ذمار استعداداً لمهاجمتها. وقد استطاع الإمام أن ينتصر عليها. وفي العام نفسه، أي عام ١٧٥٧ م نشبت حرب بين الإمام المهدي وبين أحمد بن محمد بن إسحاق، أمير منطقة وصاب، الذي أعلن إمامته، وسك عملة باسمه. وقد هُزم أحمد بن محمد، وأُخذ إلى صنعاء، وأجبر على الإقامة فيها. كما دخل الإمام في حرب ضد أبناء عمه، الذين كانوا يحكمون منطقة تعز، مستقلين عن سلطة الإمام، كما تقدم معنا.

ورغم الحروب المتواصلة وكثرة المنافسين والأعداء، إلا أنه لم يكن بين أعداء الإمام المهدي من هو أكثر خطورة وأشد مراساً من الشيخ عبد الرب بن أحمد، أمير منطقة الحجرية. كان عبد الرب ابناً لعامل الإمام على يفرس. ولما توفي والده عينه الإمام خلفاً لوالده، تقديراً لخدمات الوالد. وبعد سنوات استدعاه الإمام إلى صنعاء لتقديم حساباته. وتعبيراً عن رضى الإمام عن سير أعماله كلفه بمهمة هدم بعض الحصون والقلاع، التي يسيطر عليها بعض المشايخ(**)، ثم عينه عاملاً على قعطبة، وهي منطقة أكثر أهمية من يفرس. وكان عبد الرب قد كثر أعداؤه، وخاصة بسبب تهديمه للقلاع والحصون. وكان

(*) نهم وذيبان هما من قبائل بكيل. انظر، الحجري، مجموع، مج ١، ص ٦٤، ٣٥١، مج ٢، ص ٧٤٦.

(**) لم يورد نيبور أسماء المشايخ، ولا أسماء المناطق التي تقع فيها تلك الحصون والقلاع.

من أبرز أعدائه النقيب محمد بن عبد الله الوادعي، الذي كان له حصن في Robo el Haüa، قرب المخادر. عمل محمد بن عبد الله على الكيد لعبد الرب لدى الإمام بواسطة أصدقائه في صنعاء، الذين استطاعوا أن يوغروا صدر الإمام عليه. فاستدعاه الإمام للمثول بين يديه، إلا أن أصدقاء لعبد الرب في صنعاء ابلغوه بحقيقة مشاعر الإمام نحوه، مما جعله يخشى السفر إلى صنعاء. وبدلاً عن ذلك أخذ يستعد للدفاع عن نفسه، تجاه أي محاولة، قد يقدم عليها الإمام، لأخذه إلى صنعاء بالقوة. وساعد امتناعه عن القدوم إلى صنعاء أعداءه في إقناع الإمام، باستخدام القوة ضده. وهكذا تم تجهيز قوة عسكرية لإخضاعه، قوامها ثلاثة آلاف مقاتل، يقودهم النقيب محمد بن عبد الله الوادعي، الذي وجد في ذلك فرصة لتصفية حساباته مع عبد الرب. حاصر جيش الإمام الشيخ عبد الرب في قعطبة، ولما ضاق بالحصار غادر قعطبة ليلاً مع رجاله، الذين كان عددهم يتراوح بين خمس مئة إلى ست مئة مقاتل، والتجأ إلى حصني الدملوة والمنصورة، في الحجرية، ليقاوم الإمام هناك، بين أهله وأنصاره.

وعاد النقيب محمد بن عبد الله إلى صنعاء خائباً، فأرسل الإمام جيشاً آخر إلى الحجرية، ولكنه هزم. وبعد أن استأنس عبد الرب في نفسه القوة، انتقل من موقف الدفاع إلى الهجوم، وأخذ يغير على مناطق الإمام، حتى وصل مدينة جبلة واحتلها، ثم انسحب منها، بسبب عدم توفر التحصينات فيها، فهي مدينة غير مسورة، واكتفى بأخذ مبلغ من المال من أهالي المدينة، وعاد إلى الحجرية.

وعندما عجز الإمام عن إخضاع عبد الرب، حاول أن ينسق مع السلطان عبدالكريم، سلطان عدن، الذي كان بدوره قد بدأ يخشى تعاظم شأن عبدالرب. وتم الاتفاق بين الإمام والسلطان عام ١٧٥٧م على مهاجمة عبد الرب بجيشين، يطبقان عليه من الجانبين. ولما علم عبد الرب بفحوى الاتفاق، لم ينتظر تحرك الجيشين، بل توجه من فوره باتجاه عدن، واستطاع أن يحتل لحج، وأن يضرب

حصار على المستعمد في عدن، دام حوالي خمسة أشهر، مما اضطر السلطان إلى طلب الصلح، وقام بدفع مبلغ من المال لعبد الرب، مقابل رفع الحصار والانسحاب من منطقته. وقد كان موقف الإمام أثناء ذلك كله، موقفاً سلبياً، فلم يحاول أن يمد يد المساعدة إلى حليفه سلطان عدن.

وفي عام ١٧٦٠م كانت قوات الإمام تحاصر مدينة تعز، كما تقدم معنا، وكان عبد الرب قد تعزز موقفه واستطاع أن يستولي على قلعة موزع، وكاد أن يستولي على المخا، لولا أنه تلقى تهديداً من عامل المخا بأنه ـ أي العامل ـ قد اتفق مع الإنجليز، الذين كانوا يتمركزون في Rehde، بأن يقوموا بقصف قوات عبد الرب الزاحفة، بمدافعهم، إذا هي أقدمت على مهاجمة المدينة. مما أجبر عبد الرب على إيقاف زحفه. ووجد الإمام نفسه أمام موقفين صعبين. فمن ناحية كانت قواته تقف أمام أسوار مدينة تعز عاجزة عن اقتحامها. ومن ناحية أخرى كان شأن عبد الرب يزداد تعاظماً، إلى درجة أنه أخذ يضم بعض مناطق الإمام إليه. وأمام هذين الموقفين لجأ الإمام إلى مناورة هدف من ورائها ضرب أعدائه بعضهم بالبعض الآخر. فعمل على الاستعانة بعبد الرب لاحتلال تعز «ولكن عبد الرب، الذي كان يعرف طريقة تفكير الإمام، لم يطمئن إلى كل عهود الإمام ووعوده»[1]، إلا أن قائدين كبيرين من قادة جيوش الإمام، وهما النقيب الماس والنقيب أحمد الأحمر، استطاعا أن يقنعا عبد الرب، ويضمنا له عدم غدر الإمام به. فتم الصلح بين الإمام وعبد الرب، على أن يساعد عبد الرب قوات الإمام في احتلال تعز، وأن لا يهاجم بعد ذلك أي منطقة من مناطق الإمام. وبالمقابل وافق الإمام على الاعتراف بسيادة عبد الرب على الحجرية، وعدم المطالبة مستقبلاً بأية حقوق له ــ أي للإمام ــ على هذه المنطقة، وأن يعتبر عبد الرب صديقاً وحليفاً له. وأكد الإمام موافقته بسبعة أيمان. ويعلق نيبور على ذلك بقوله: «ولكن لماذا سبعة أيمان، ولماذا

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 200-201.

لا يكفي بمين واحد. هذه احجية بالنسبة لي لم أستطع فهمها»(١). وكان شاهدا هذا الصلح هما النقيبان المذكوران آنفاً. وما أن أبرم الصلح حتى توجه عبد الرب لتعزيز جيش الإمام، المحاصر لتعز.

وبعد أن تم احتلال تعز طلب الإمام حضور أبناء عمه أمراء الأسرة الحاكمة في تعز، ومعهم الشيخ عبد الرب. وتوجس عبد الرب خيفة من طلب الإمام هذا، ولكن النقيبين، الماس والأحمر، ضمنا له أن الإمام لن يمسه بمكروه. وهكذا توجه عبد الرب في موكب مهيب إلى صنعاء، وسط تحيات وترحاب المواطنين، في كل المناطق التي مر بها. فقد كان ينظر إليه كبطل استطاع أن يتحدى سطوة الإمام وأن يرغمه على احترامه. وخرج سكان صنعاء لاستقباله، ودخل صنعاء دخول المنتصرين. ولكن الإمام سرعان ما أوقع به وجرده من سلاحه وأمر بصبغ وجهه ويديه باللون الأحمر، وبوضعه عارياً مقيداً فوق جمل، ووجهه إلى الخلف، والطواف به في شوارع مدينة صنعاء، مصحوباً بدقات الطبول. وكانت واحدة من أخوات عبد الرب تعيش في صنعاء، ولما شاهدت أخاها في هذا الوضع المهين قذفت بنفسها من سطح الدار، وارتطم جسمها في الشارع، أمام موكب أخيها، وفارقت الحياة. وقد ظل عبد الرب يضرب ويعذب ويلقى به وسط القاذورات ثلاثة أيام، ثم أمر الإمام بإعدامه. وكانت هذه ـ كما يقول نيبور ـ «هي نهاية ثائر وبطل عربي كبير، كانت له شهرته في اليمن في السنوات الأخيرة»(٢). ولم تنته الأحداث المرتبطة بعبد الرب بموته «فقد ولدت الطريقة المخزية، التي خرق بها الإمام وعوده وعهوده، كراهية في نفوس رعاياه، وخاصة في نفسي النقيبين الماس والأحمر، اللذين ضمنا لعبد الرب سلامته»(٣). ولما كان النقيبان يشعران بأنهما من القوة بحيث لا يستطيع الإمام أن يلحق بهما أذى، فقد بادر أولاً النقيب أحمد الأحمر

---

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 201.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 202.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 203.

إلى مقابلة الإمام، وعبر له عن سخطه، فزج به الإمام في السجن. وهنا بدأ النقيب الماس يعبئ نفسه لتحرك عسكرياً ضد الإمام، وعندما علم الإمام بذلك احتال عليه، واستدعاه بلطف إلى قصره، واستقبله استقبالاً بشوشاً، وقدم له القهوة، كما هي العادة، ولم تكن قهوة عادية، إذ إن النقيب الماس فارق الحياة، قبل أن يعود إلى داره.

وفي حاشد، بعد أن وصلت أنباء سجن النقيب أحمد، جهز أخوه، الشيخ قاسم الأحمر مقاتلي اتحاد حاشد وبكيل وزحف بهم إلى عمران. ووجه الإمام قواته لملاقاة الشيخ قاسم. وفي أول اشتباك بين الطرفين سقط أحد أبناء الشيخ قاسم، واسمه مرشد، قتيلاً، وانسحبت قوات حاشد وبكيل «وخشي الإمام إذا هو أبقى النقيب أحمد سجيناً أن تتحرك حاشد وبكيل من جديد في محاولة لإطلاق سراحه، ولذا أمر بإعدامه وتم قطع رأسه في مدينة الروضة»[1]. وقد قامت حاشد وبكيل بعدة عمليات عسكرية انتقامية ضد بعض مناطق الإمام، فهاجمت اللحية، وبعض القرى التهامية، وأحرقتها وذلك قبل مجيء البعثة الدنيماركية إلى اليمن بفترة وجيزة، ثم زحفت مرة أخرى إلى قرب اللحية، أثناء وجود البعثة في المخا. «ويقال إن الإمام قد التزم بدفع خمس مئة ريال شهرياً لأسرة أحمد الأحمر»[2].

د. الشيخ المكرمي يستقل بحكم نجران[3]:

اشتهر الشيخ المكرمي في السنوات الأخيرة في أنحاء اليمن بشجاعته وجرأته، وهو لا ينتمي إلى أسرة حاكمة. وقد طاف في شبابه المبكر في أنحاء الجزيرة العربية، وزار الهند وإيران. وبعد عودته إلى اليمن عينه إمام صعدة عاملاً على نجران، ولكنه سرعان ما استقل بها، وأصبح الآن يخافه جيرانه

---

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 203.

(2) Niebuhr, C., BVA, S. 204.

(3) انظر: Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 295, 297.U.BVA. S. 272-274, 267, 250

القريبون والبعيدون، ويخشون دهاءه وشجاعته. وقد توغل في بلاد حاشد وبكيل وفي مملكة الإمام، قبل سنوات قليلة، حتى وصل منطقة حراز واستطاع الاستيلاء على احد الحصون هناك. ولم يستطع الإمام استرجاع ذلك الحصن حتى الآن. وفي شتاء ١٧٦٢ ـ ١٧٦٣م هاجم منطقة ابو عريش(*) والحق الهزيمة بحاكمها الشريف محمد، في معركة دارت في الغرب من عاصمته، كما سنرى في الفقرة التالية، وفي نهاية عام ١٧٦٣ وبداية عام ١٧٦٤ م زحف الشيخ المكرمي بجيشه حتى وصل منطقة الأحساء(**). «وهكذا تحرك بجيشه على امتداد الجزيرة العربية، من السواحل العربية وحتى الخليج الفارسي(***)، ماراً عبر العديد من المناطق الأجنبية، وهو أمر يبدو بالمقاييس الحربية الأوروبية غير ممكن، إلا أن الجيوش العربية لا تثقل نفسها باصطحاب المدافع ولا باصطحاب خيام كثيرة. بل تحمل معها كميات قليلة من المواد الغذائية. ويتحرك الجندي غير مثقل، إذ لا يحمل سوى سيفه، ويسير شبه عار»[1].

والشيخ المكرمي ليس مشهوراً في بلاد العرب بقدراته وشجاعته كقائد عسكري فقط، بل هو مشهور أيضاً كشخصية دينية.

هـ ـ شريف أبو عريش والشيخ المكرمي[2]:

كانت منطقة أبو عريش جزءاً من مملكة الإمام، إلى وقت قريب. وقد

---

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 273.

(٢) انظر: Niebuhr, C., BVA, S. 266-267.

(*) نفضل الاحتفاظ بأسماء الاماكن على صورتها المتداولة بين الناس دون أي تغيير قد تتطلبه قواعد اللغة.

(**) كان نيبور في هذا التاريخ قد غادر اليمن، ويبدو أنه قد تلقى هذه المعلومة وهو في طريق عودته إلى الدينمارك.

(***) الكتابات الغربية تسمى الخليج العربي عادة الخليج الفارسي وقد أوردنا التسمية نفسها كما وردت عند نيبور لاننا هنا ننقل نصاً حرفياً. أما السواحل العربية فيقصد بها سواحل البحر الأحمر الشرقية، ويسميها نيبور بهذه التسمية في كل كتاباته.

عين الإمام، منذ سنوات، عاملاً على هذه المنطقة، اسمه الشريف أحمد. فاستقل الشريف أحمد بحكم المنطقة، وفصلها عن مملكة الإمام. ولما توفي تولى الحكم من بعده ابنه محمد، الذي دافع عن استقلال أبو عريش في وجه أطماع جيرانه. وقد حاول الإمام استرجاع المنطقة، وهاجمها عدة مرات بقوات مكونة من أبناء حاشد وبكيل، إلا أن هؤلاء لم يكونوا يقاتلون بعزيمة صادقة. وفي شتاء ١٧٦٢ م - ١٧٦٣ م هاجم منطقة أبو عريش الشيخ المكرمي حاكم نجران، وتصدى له الشريف محمد بن أحمد بقوة قوامها خمس مئة إلى ست مئة مقاتل، معظمهم من حاشد وبكيل والجوف. ودارت معركة بين الجانبين، خارج مدينة أبو عريش، العاصمة، واستطاع المكرمي أن يهزم الشريف محمد، الذي انسحب وتحصن خلف أسوار المدينة. وضرب الشيخ المكرمي الحصار على أبو عريش، إلا أنه سرعان ما انسحب باتجاه نجران، إذ وصلته أخبار بأن شيخ قبيلة قحطان قد هاجم نجران.

وكان نيبور قد سمع أثناء رحلته من جدة إلى اللحية أن الإمام قد أمر بتحصين اللحية، عندما كان الشيخ المكرمي يشن هجومه على أبو عريش، وذلك خوفاً من أن يزحف المكرمي إليها - أي إلى اللحية[1].

«حريق بيت الفقيه[2]:

وقع حريق في بيت الفقيه، أثناء وجود البعثة الدينماركية فيها. وقدم نيبور وصفاً له على النحو التالي:

«في يوم ١٧ أبريل ١٧٦٣ م شاهدت كيف يواجه اليمنيون المصائب بثبات. ففي هذا اليوم اشتعلت النار في أحد البيوت، في الجهة الجنوبية من المدينة، ولأن الرياح كانت تهب بقوة من الجهة الجنوبية الغربية، فقد امتدت

---

(1) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 295.

(2) انظر: Niebuhr, C., RB Bd. 1, S. 354-355.

النيران إلى جزء كبير من المدينة، واشتعلت البيوت سريعاً، إذ كانت محاطة بأغصان وفروع الأشجار الجافة، وأسطحها مغطاة بالأعشاب اليابسة. وأثناء ذلك كان العرب يتصرفون بهدوء وإتزان، فلم يسمع لهم صراخ ولا عويل. وإذا عبر لهم المرء عن حزنه، لما أصابهم، أجابوا: إنها إرادة الله. وكنا نسكن في منزل مبني بالحجارة، في أحد أطراف المدينة، لا تصل إليه النار. وكنا على ثقة من أنها لو حرقت كل الأكواخ المحيطة به فلن يصاب بأذى. صعدنا إلى سطح المنزل وشاهدنا الناس فوق أسطح جميع المنازل المبنية بالحجارة، يراقبون الحريق بهدوء. وقد جاء إلينا عالم فقير، اعتاد أن يزورنا، ووقف معنا، بعد أن استطاع أن ينقل بعض متاعه من بيته إلى مكان مأمون، وأشار ببرود عجيب إلى بيته، الذي كان قد بدأ يشتعل. إن ما يفقده العربي في مثل هذه الكوارث لا قيمة له، إذا قيس بما يمكن أن يفقده الأوروبي. فاليمني يحمل أدواته المنزلية على ظهره، ويتجه إلى جانب آخر من المدينة، أو إلى العراء. إنه لا يفقد عادة سوى كوخه، الذي يستطيع، بقليل من الجهد والمال، أن يبنيه من جديد. ولكن مع ذلك فإن ما يفقده يمثل، بالنسبة لرجل فقير، خسارة جسيمة»[١].

وعندما عادت البعثة في شهر أغسطس من العام نفسه، ١٧٦٣م، من صنعاء ومرت ببيت الفقيه، في طريقها إلى المخا، تحدث نيبور مرة أخرى عن حريق بيت الفقيه بالعبارات التالية:

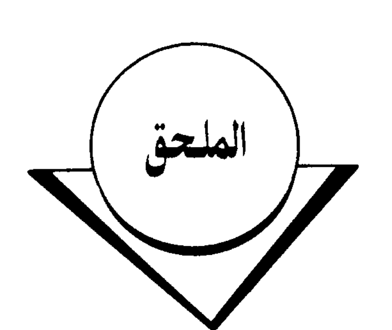
«لأن الجزء الأكبر من بيت الفقيه كان قد التهمته النيران، في ١٧ يناير، فقد اعتقدنا أننا سنجدها لا زالت مدينة مدمرة. ولكننا وجدنا أن معظم البيوت، أو بالأصح الأكواخ، قد أعيد بناؤها. وقد تم بناء منازل كثيرة بالحجارة، وذلك حتى لا تلتهمها النيران مستقبلاً»[٢].

---

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 354-355.

(٢) ... S. 436.




الملحق



Kleidung der vornehmen Araber in Iemen.

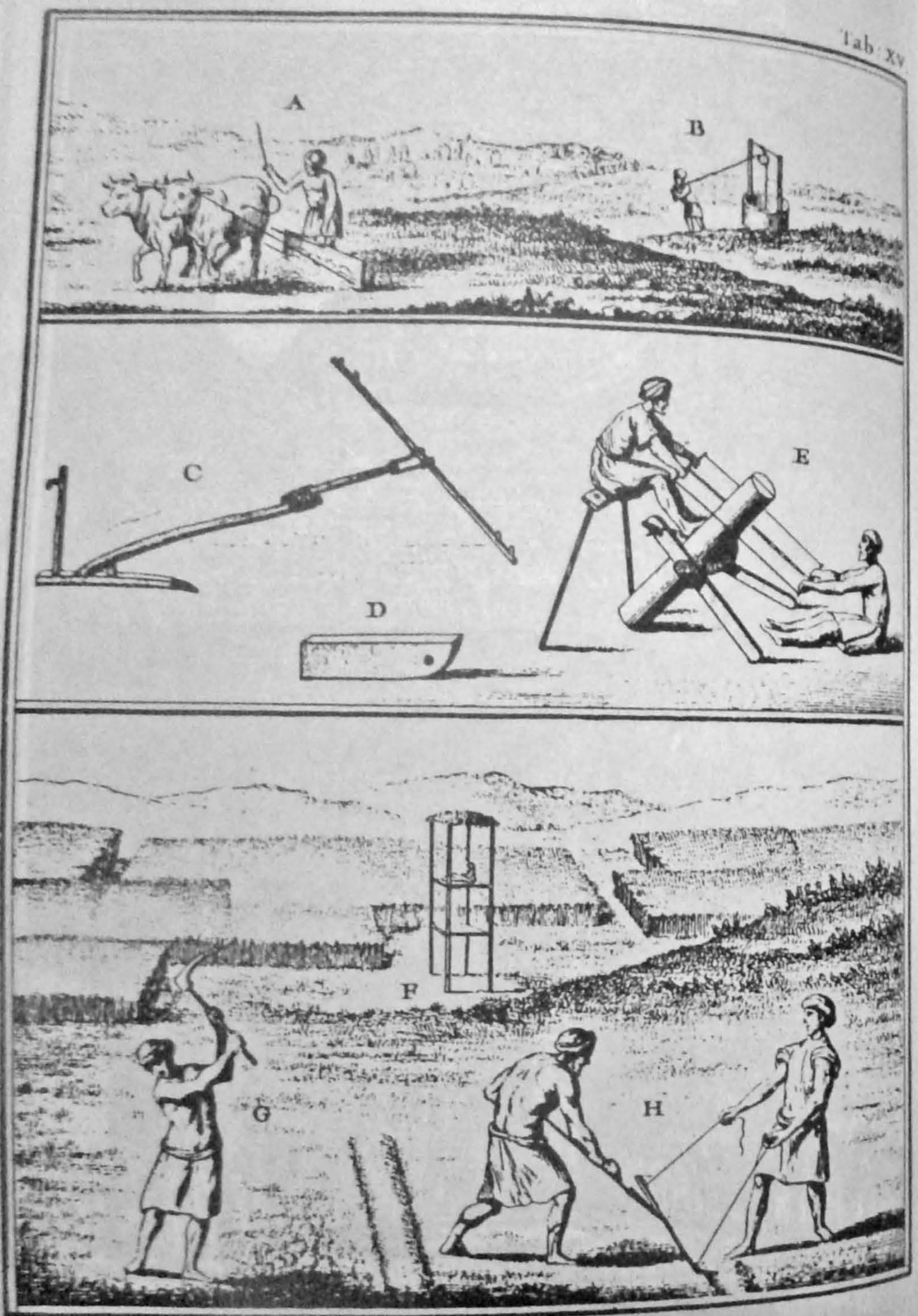


Baurenfeind del.

Abbildung einer Araberin auf dem Caffegebürge.



Abbildung einer Araberin in Tehâma.



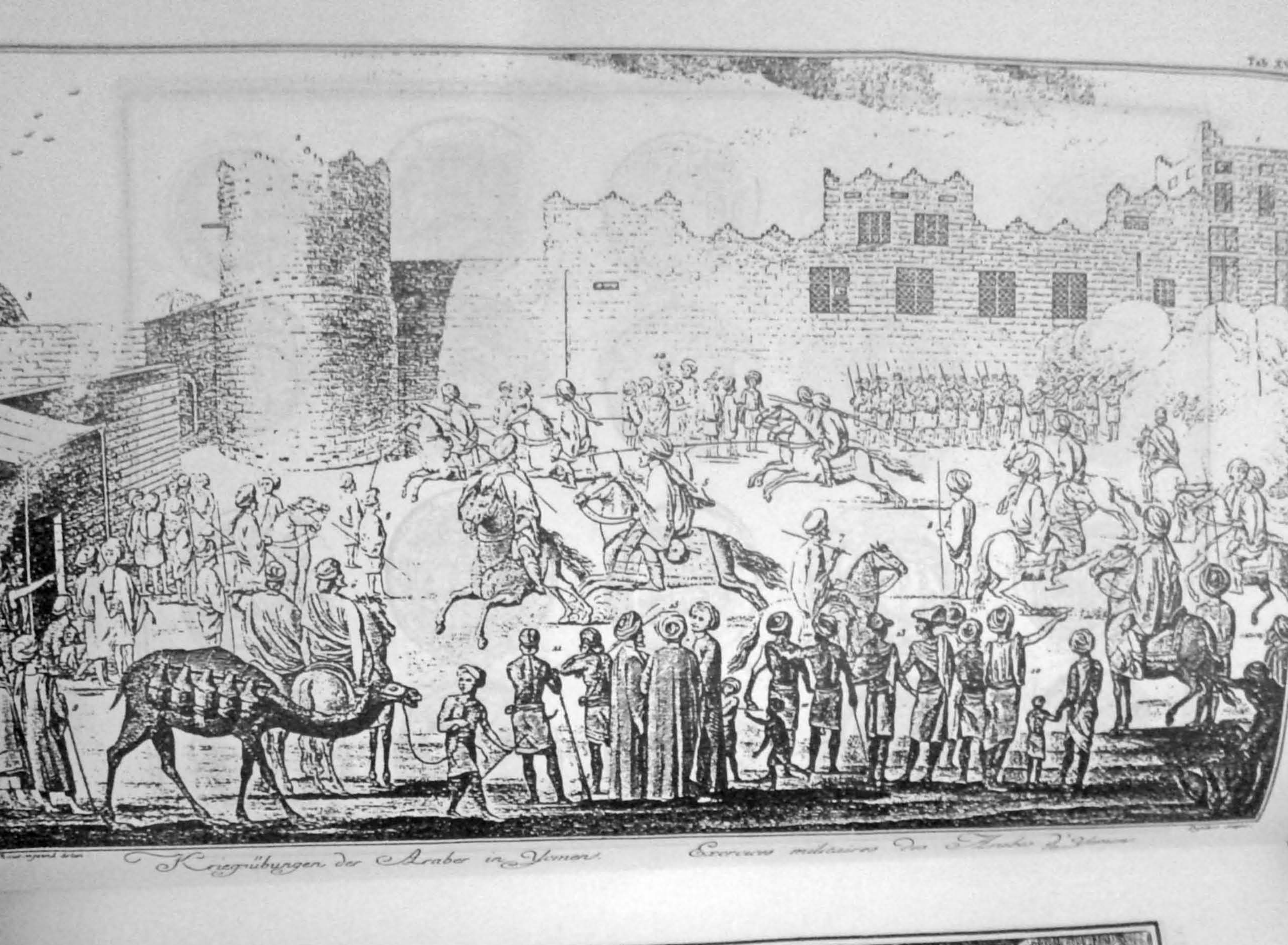
Dsschrt Sc:

Tab. III.

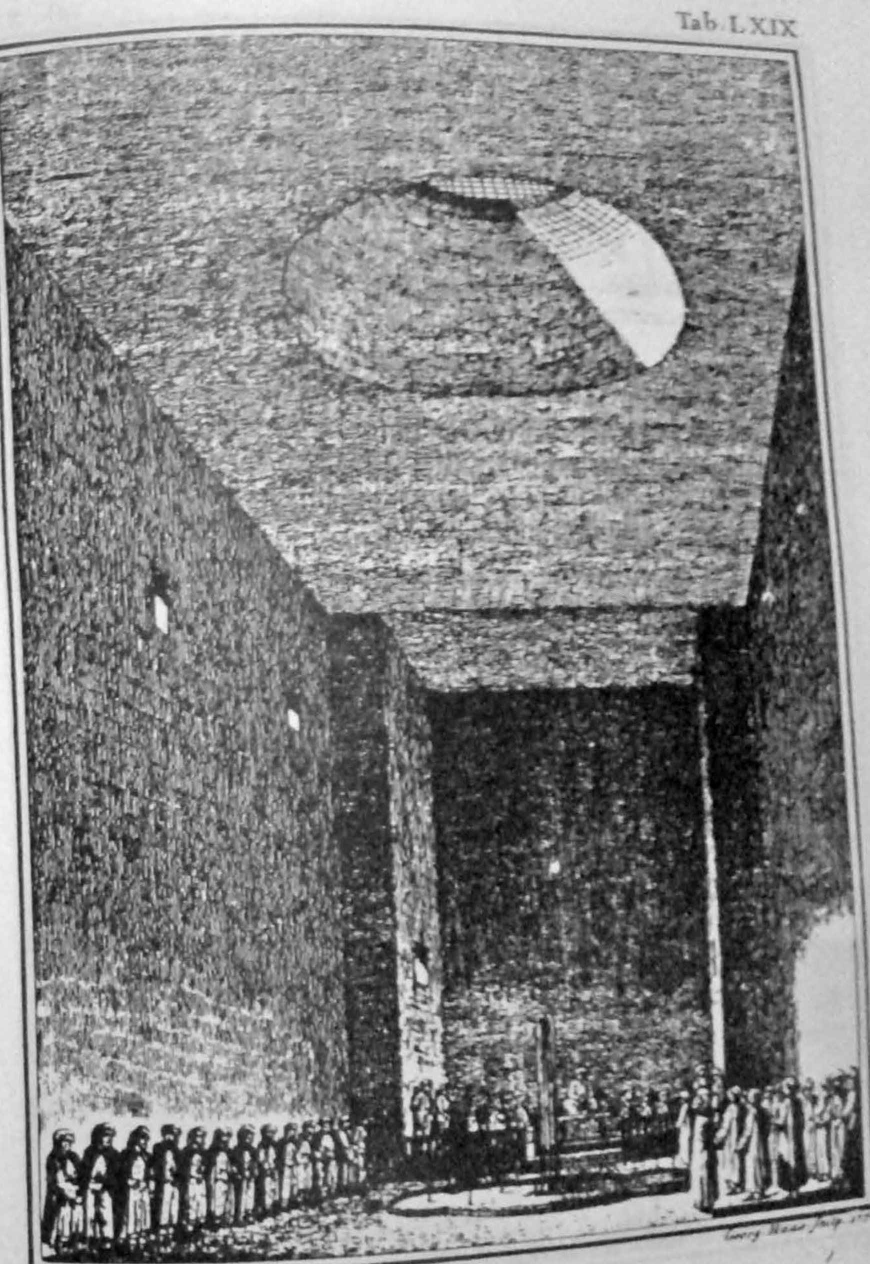


Bauernfeind del.

Kleidung der Banianen zu Mochha.



Kriegübungen der Araber in Yemen. Exercices militaires des Arabes de Yemen



Vorstellung der Audienz beÿ dem Imam zu Saná


11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21


Tab: XI.
Tab: X.
1
2
3
4
5
6
7
8
9
10

A

C

C

B


22
23
24
25
26
27
28
29
30
31



Martin Sc.

Inschrift auf einem Leichenstein zu Galeſca



Martin Sc:

Inſchrift *auf einem Leichen Stein zu* Beit-el-Fakih.

Tab: IX.

Inschrift *an einer Mosqué zu* Thôbâd *nahe bey* Ta-âs.

Martin Sc.



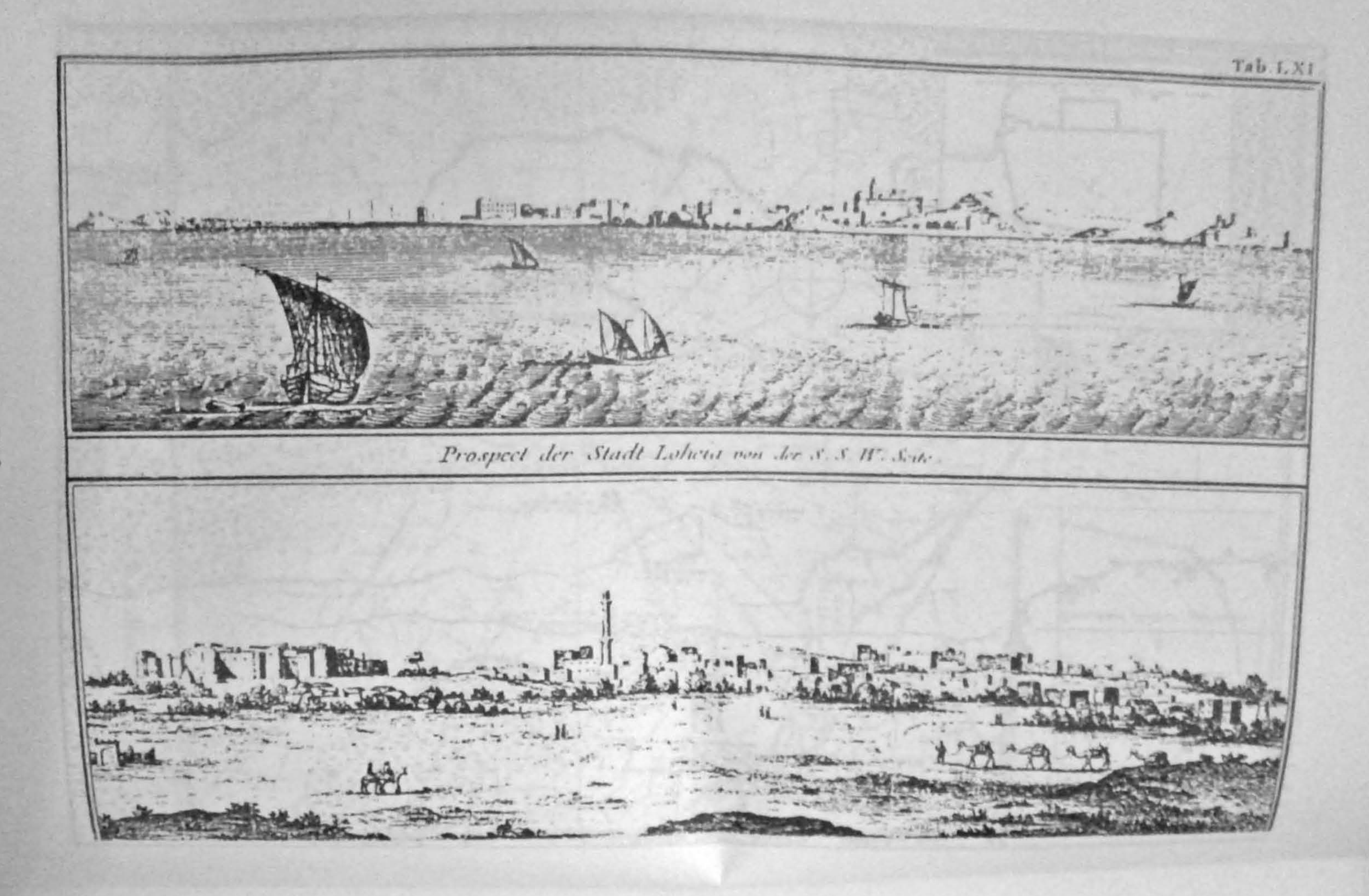
Martin Sc.

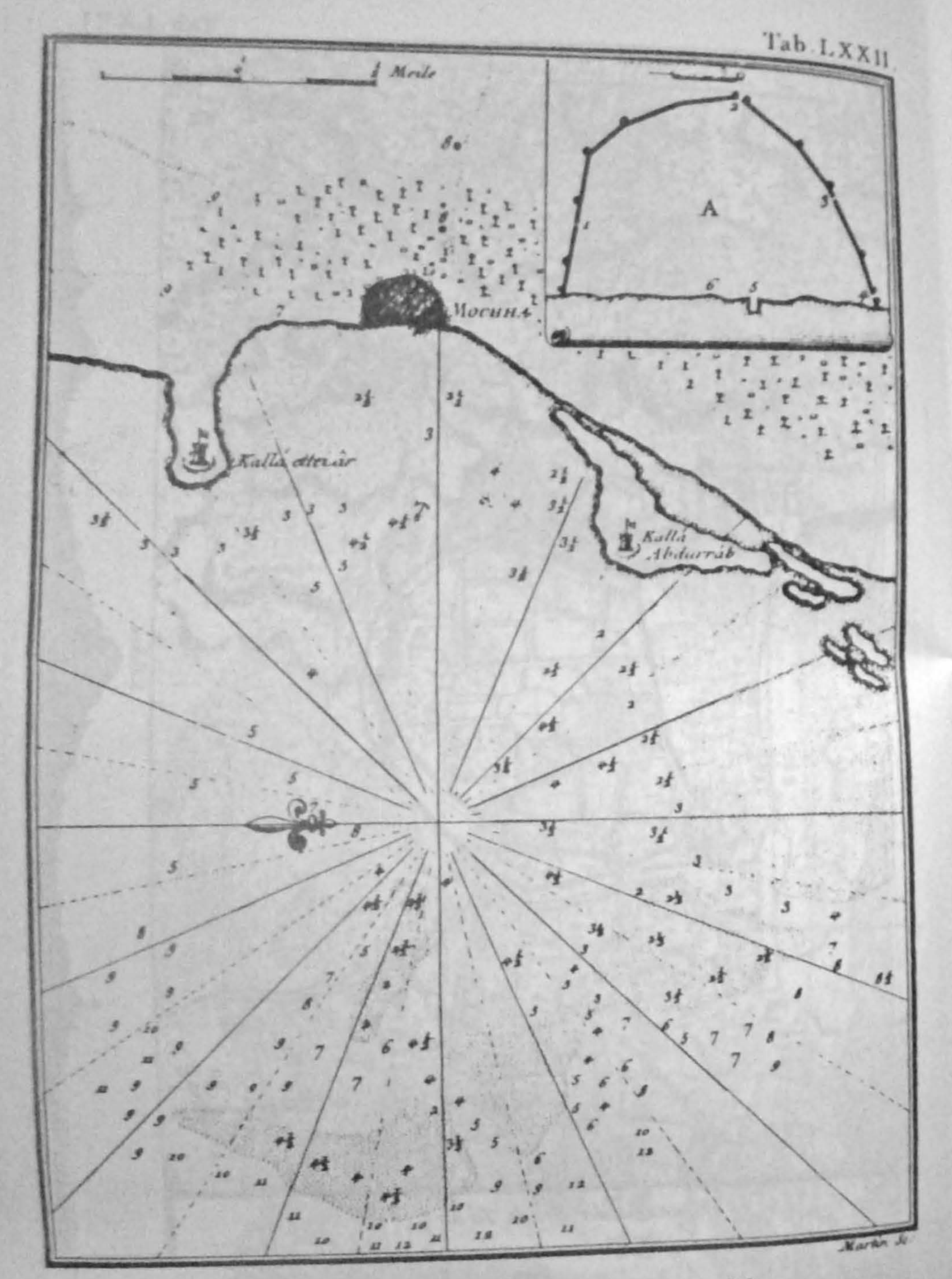
Inschrift auf einem Leichenstein zu Galeŝca

Tab LX

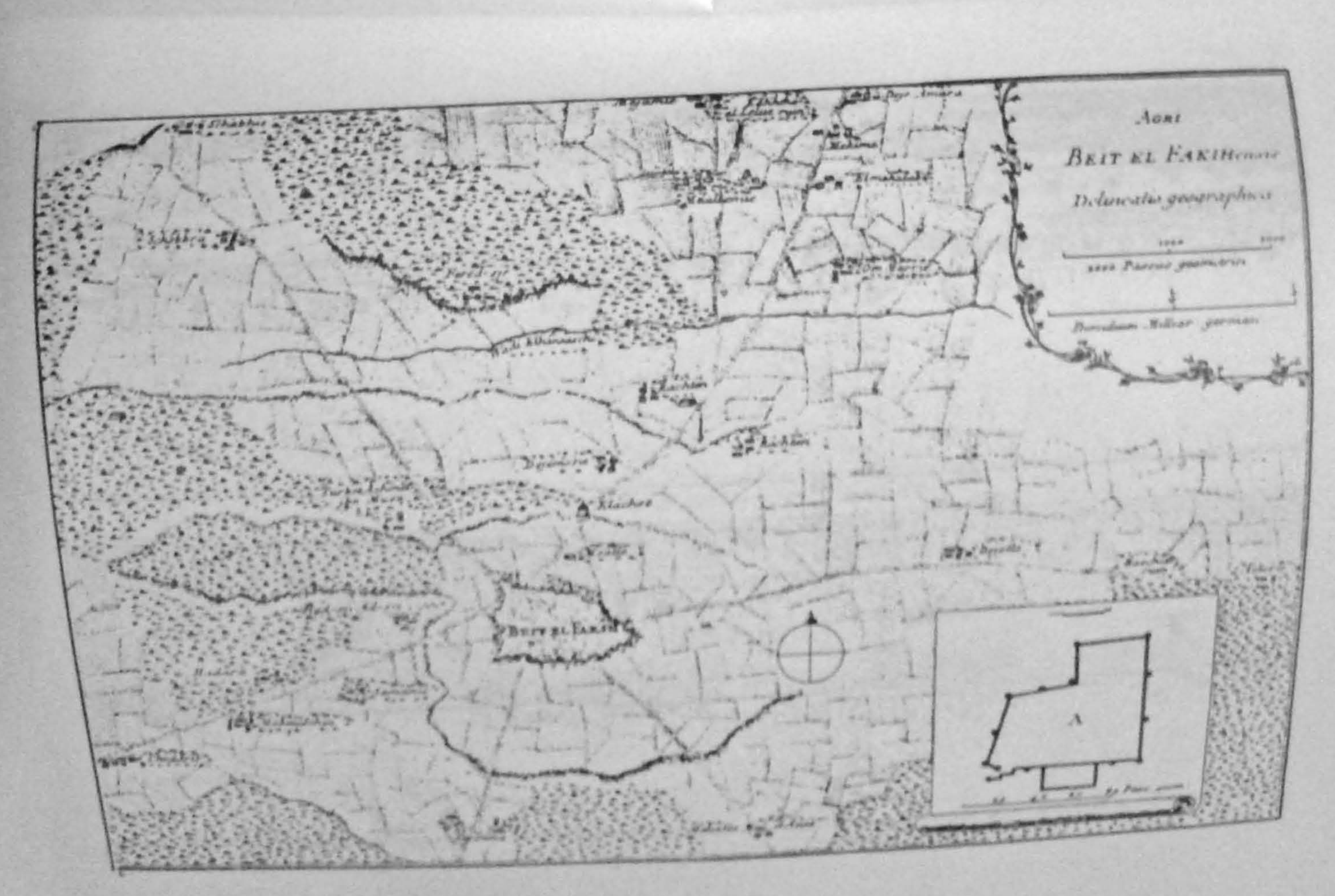
100 200 300 400 500 600 700 800 Passus geom.

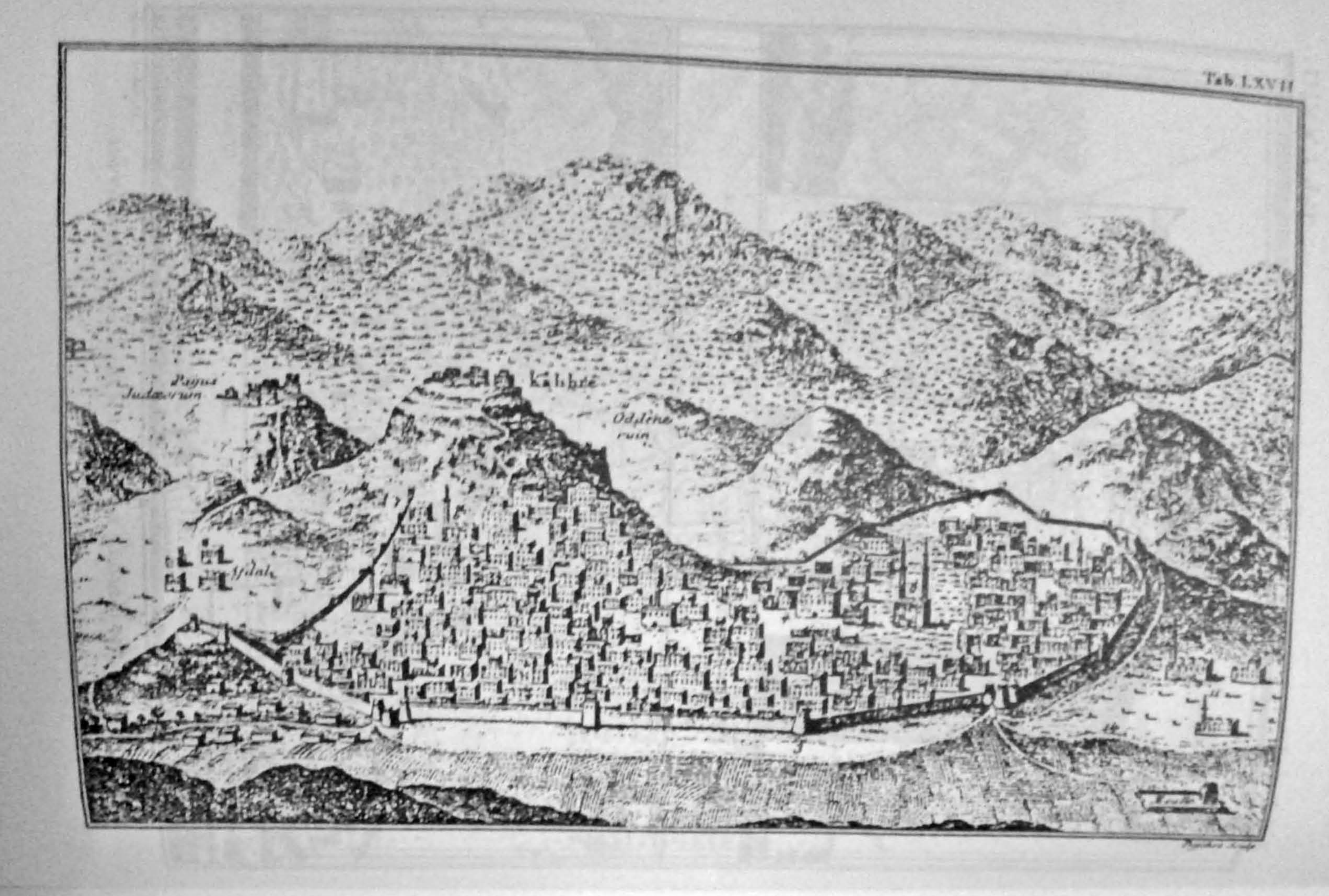
Grundris der Stadt und der umliegenden Gegend von Loheia.

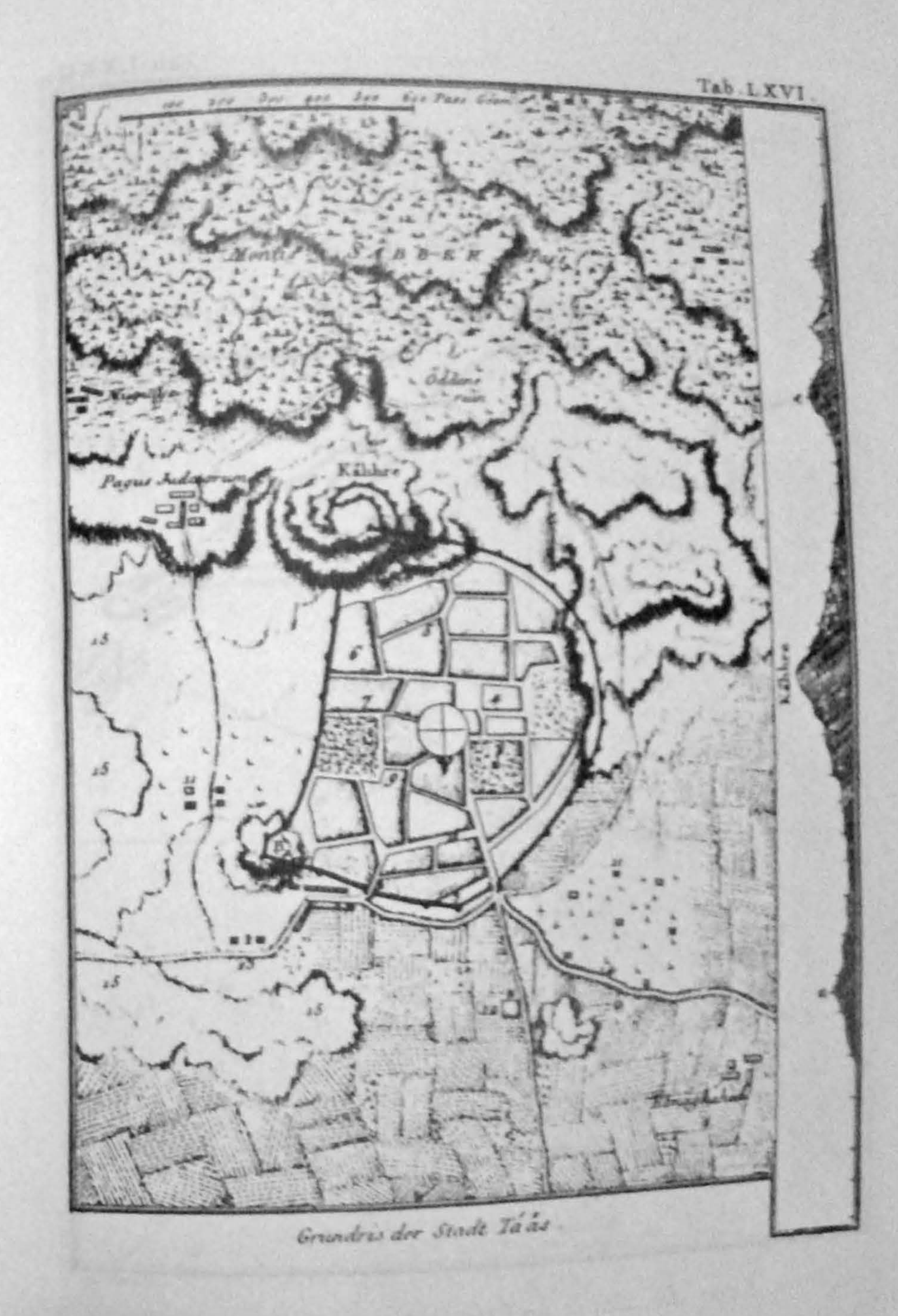

Tab. LXI
Prospect der Stadt Loheia von der S. S. W. Seite.
Tab. LX



Lage der Stadt und des Hafens Mochha.


Agri
BEIT EL FAKIHensis
Delineatio geographica
Passus geometrici
BEIT EL FAKIH
A

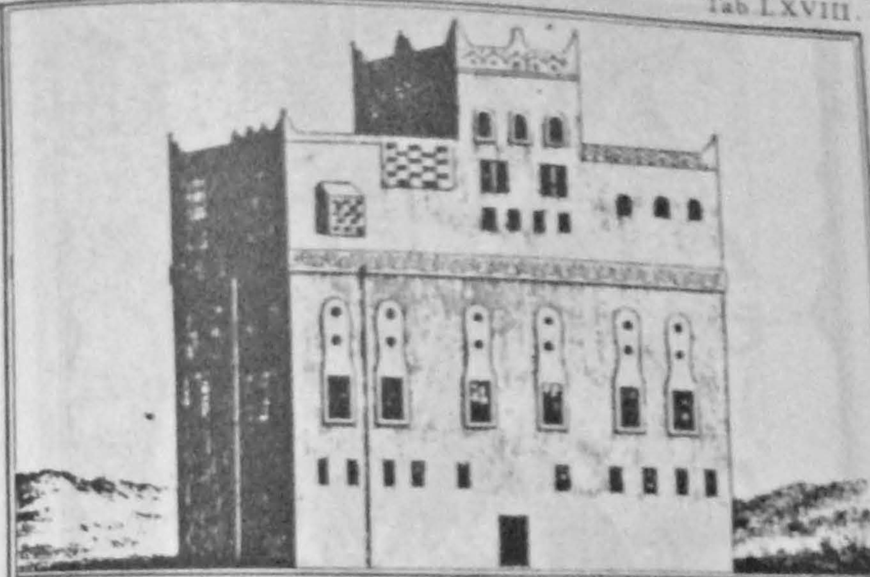

Tab. LXVII
Pagus Judæorum
Kalibie
Odiline ruin
Afdale



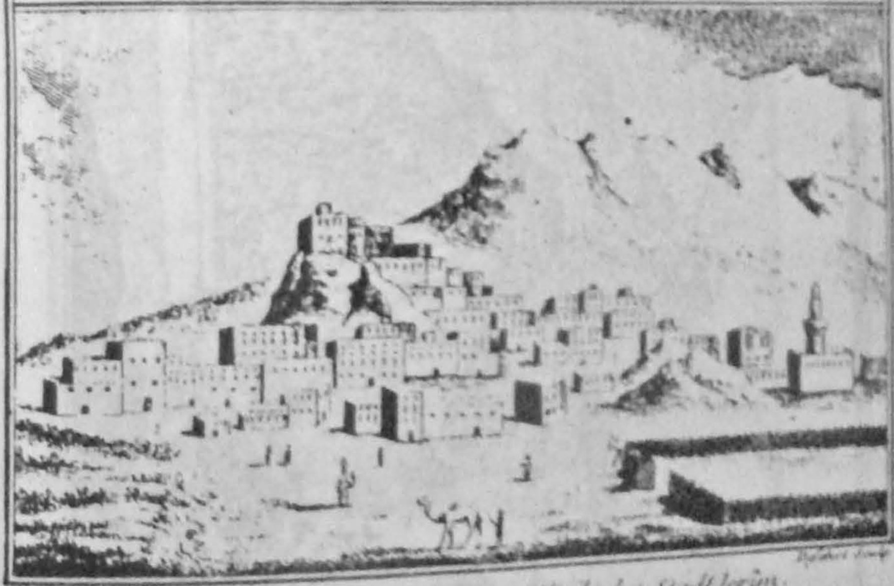
Grundris der Stadt Ta'ås



Grundrisz der Stadt Saná



Prospect eines Hauses zu Bîr el Aasab bey Sanâ.



Prospect des Castels und eines Theils der Stadt Ierîm.



أ. باللغة العربية:

١ ـ أباظة، فاروق عثمان:

عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر، القاهرة، ١٩٧٦ م.

٢ ـ الأكوع، إسماعيل علي:

المدارس الإسلامية في اليمن، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٠ م.

٣ ـ براور، ك. خ. وكبلانيات، أ.:

اليمن في أوائل القرن السابع عشر، ليدن، ١٩٨٨ م.

٤ ـ البطريق، عبد الحميد:

تاريخ أوروبا الحديث. من عصر النهضة إلى مؤتمر فينـا، مطابع جامعة الرياض، ١٩٨٨ م.

٥ ـ الجرافي، عبد الله عبد الكريم:

المقتطف من تاريخ اليمن، ط ٢، مؤسسة دار الكتاب الحديث، بيروت، ١٩٨٤ م.

٦ ـ الحجري، محمد أحمد:

مجموع بلدان اليمن وقبائلها، مج ١ ـ ٢، تحقيق إسماعيل الأكوع، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٤ م.

٧ - الحداد، محمد يحيى:
تاريخ اليمن السياسي، ط ٣، دار الهنا، القاهرة، ١٩٨٦ م.
٨ - الحموي، ياقوت:
معجم البلدان، ١ - ٥، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٤ م.
٩ - الخزرجي، علي بن حسن:
العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، ط ٢، تحقيق محمد بن علي الأكوع، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٣ م.
١٠ - زبارة، محمد بن محمد:
نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف، مج ١ - ٣، من مطبوعات مركز الدراسات والبحوث اليمني.
١١ - الزركلي، خير الدين:
الأعلام، مج ١ - ٨، ط ٦، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤ م.
١٢ - سالم، سيد مصطفى:
الفتح العثماني الأول لليمن، ط ٣، مطبعة الجبلاوي، شبرا، ١٩٧٨ م.
١٣ - سزكين، فؤاد:
محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، ١٩٨٤ م.
١٤ - الشماحي، عبد الله عبد الوهاب:
اليمن الإنسان والحضارة، مكان وتاريخ الطبع(؟).
١٥ - صبحي، حسن:
التاريخ الأوروبي الحديث، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٢ م.
١٦ - العمري، حسين عبد الله:
مئة عام من تاريخ اليمن الحديث، دمشق، ١٩٨٤ م.
١٧ - العوا، عادل:
التجربة الفلسفية، ط ٢، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٤ م.

١٨ ـ غالب، قاسم وآخرون:
ابن الأمير وعصره، مكان وتاريخ الطبع (؟)
١٩ ـ القرآن الكريم.
٢٠ ـ الكتاب المقدس.
٢١ ـ لقمان، حمزة علي:
تاريخ الجزر اليمنية، بيروت، ١٩٨٢ م.
٢٢ ـ الموسوعة العربية الميسرة، ط ٣، دار الشعب ومؤسسة فرانلكين للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٢ م.
٢٣ ـ النهروالي، قطب الدين:
البرق اليماني في الفتح العثماني، ط ٢، دار التنوير، بيروت، ١٩٨٦ م.
الويسي، حسين علي:
اليمن الكبرى، مطبعة النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٢ م.
٢٤ ـ اليافي، عبد الكريم:
تمهيد في علم الاجتماع، ط ٤، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٤ م.
٢٥ ـ يحيى، جلال:
تاريخ العلاقات الدولية في العصور الحديثة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢ م.
٢٦ ـ اليمني، عمارة بن أبي الحسن:
تاريخ اليمن، تحقيق حسن سليمان محمود، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٥٧ م.

ب. مترجمة إلى اللغة العربية:

١ ـ توشار، جان وآخرون:
تاريخ الفكر السياسي، ترجمة علي مقلد، الدار العالمية، بيروت، ١٩٨٧ م.

٢ ـ ديورانت، ول وايريل:
قصة الحضارة، ط ٣، ترجمة زكي نجيب محمود وغيره، جامعة الدول العربية، القاهرة.

٣ ـ فان دام، نيقولاس وآخرون:
هولندا والعالم العربي، ترجمة سعد جابر، لاهاي، هولندا، تاريخ ومكان الطبع (؟).

٤ ـ كولنجوود، ر. ج.:
فكرة التاريخ، ط ٢، ترجمة محمد بكير خليل، وزارة التربية والتعليم، القاهرة، ١٩٦٨ م.

٥ ـ ماكرو، إريك:
اليمن والغرب منذ عام ١٥٧١ م إلى عام ١٩٦٢ م، ترجمة حسين عبد الله العمري، فكان الطبع (؟)، ١٩٧٨م.

٦ ـ هانس، ثوركلد:
من كوبنهاجن إلى صنعاء، ترجمة محمد أحمد الرعدي، دار العودة، بيروت، ١٩٨٣ م.

٧ ـ ويدجيري، البان ج..:
المذاهب الكبرى في التاريخ، ط ٢، ترجمة ذوقان قرقوط، دار القلم، بيروت، ١٩٧٩ م.

جـ باللغة الألمانية:

١ - **Baumhauer, Otto (Hrsg.):**
Arabien. Henry Goverts Verlag, Stuttgart, 1965.

٢ - **Dawani, Tawfiq:**
Jemen Zwischen Reisebeschreibng und Feldforschung (Dessertation). Balbak Verlag, Berlin, 1987.

٣ - EW = Enzyklopadie der weltgeschichte. 2 Bände,
Hrsg. Uwe K. Paschke, Holle Verlag, Baden Baden, O. D..

٤ - **Hansen, Thorkild:**
Reise nach Arabien. Die Geschichte der Königlich dänischen

- ١٧
er.

- ١٨
für

der - ١٩

jemen Expedition. 1761 - 1767. Hoffmann und Campe Verl., Hamburg [illegible]

٥ - KEW = Kleine Enzyklopädie Weltgeschichte. 2 Bände. VEB Bibliographisches Institut. Leipzig [illegible]

٦ - LIW = Lexikon der Islamischen Welt. 3 Bände. Hrsg. von K. Kreiser u. a. Verl. W. Kohlhammer Stuttgart 1974

٧ - Lohmeier, Dieter (Hrsg.):
Schriften der Schleswig - Holsteinischen Landesbibliothek. Band 1. Carsten Niebuhr und die Arabische Reise 1761 - 1767. Heide in Holstein, 1986

٨ - Michaelis, David Johann:
Fragen an eine Gesellschaft Gelehrter Männer, die auf Befehl Ihro Majestät des Königes von dannemark nach Arabien reisen. Frankfurt am Main, 1762

٩ - NUL = Das neue Universal - Lexikon. 3 Bände. Lingen Verlag, Köln 1979

١٠ - Niebuhr, B. G.:
Carsten Niebuhrs Leben. Kiel, 1817.

١١ - Niebuhr, Carsten:
BVA = Beschreibung von Arabien. Aus eigenen Beobachtungen und im Lande selbst gesammelt Nachrichten. Kopenhagen 1772. Nachdruck 1969.

١٢ - EBD.:
RB = Reisebeschreibung nach Arabien und anderen Ländern.
Bd. 1, Kopenhagen, 1774. nachdruck Graz 1968
Bd. 2, Kopenhagen, 1778. nachdruck Graz 1968
Bd. 3, Hamburg, 1837. nachdruck Graz 1968

١٣ - Rittmann, Herbert (Hrsg):
Deutsches Münzsammlerslexikon. München 1977

١٤ - Schlobies, Hans:
Die Wissenschaftliche Erschliessung Südarabiens. in «Der Orient in deutscher Forschung». Leipzig, 1944

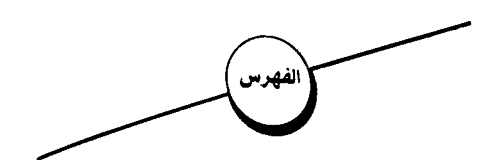
١٥ - Schmidt, Walter:
Das Südwestliche Arabien. Frankfurt - M 1913

١٦ - Schweinfurth, G.:
Briefliche Mitteilungen von Prof. Schweinfurth an Prof. Ascherson Über seine Reise in Südarabien.
in: «Verhdl. d. Gesell. für Erdkunde Z. Berlin». Bd. XVI, 1889

١٧ - Weber, Otto:
Forschungsreisen nach Südarabien bis Auftreten Ed. Glaser, in: «Der Alt Orient», 8 Jg., Heft 4, Leipzig, 1904.

١٨ - Welter, Mathias:
Geographie im Jemen, Bedeutungswandel einer Wissenschaft für ein Entwicklungsland (Dessertation), Bonn, 1988.

١٩ - Weltgeschichte in Zehn Bänden, VEB Deutscher Verlag der Wissenschaften, Berlin, 1966.



الصفحة

الصفحة

الصفحة

الفصل ا

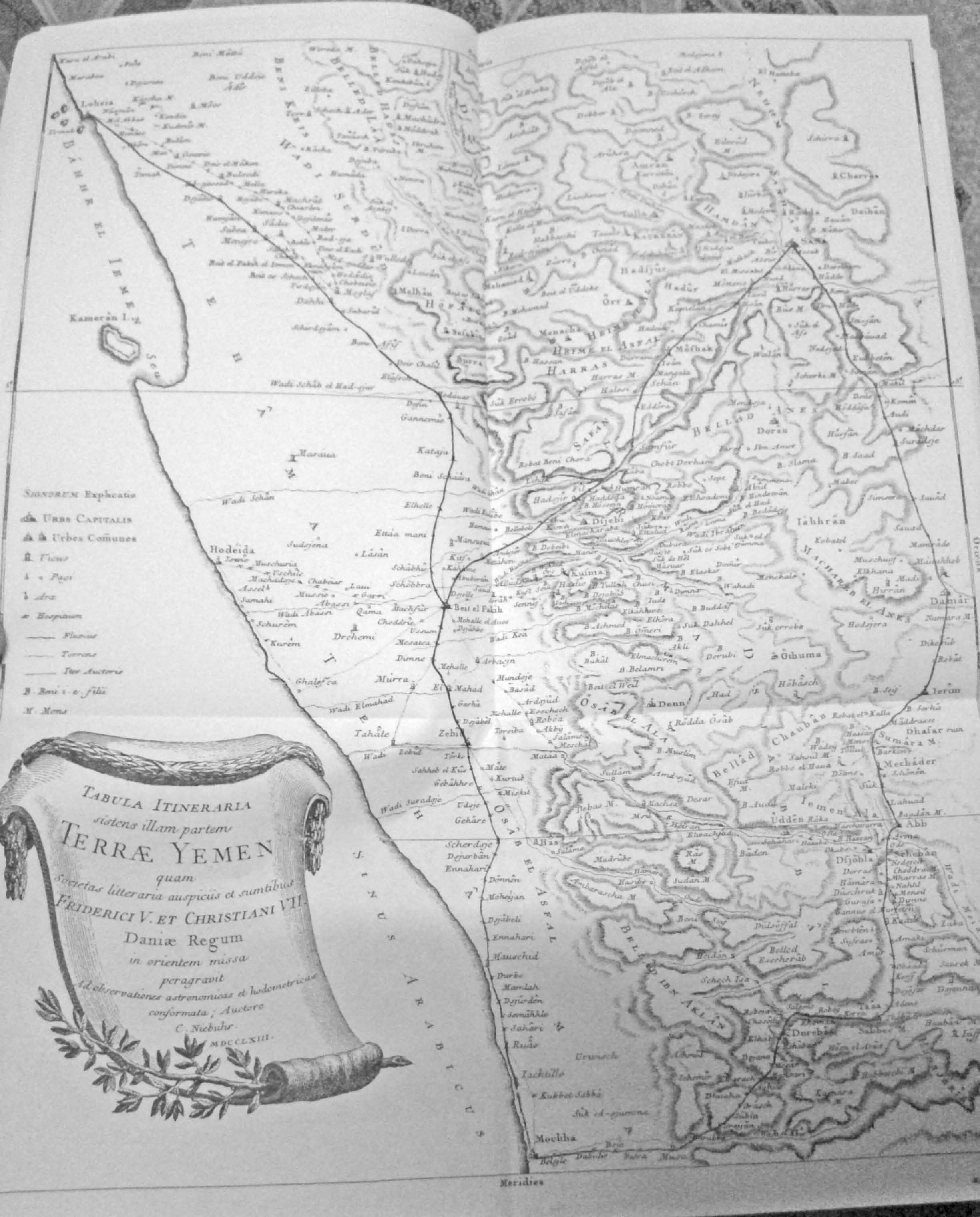
الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

صفحة



Tabula Itineraria
sistens illam partem
Terræ Yemen
quam
Societas litteraria auspiciis et sumtibus
Friderici V. et Christiani VII.
Daniæ Regum
in orientem missa
peragravit
Ad observationes astronomicas et hodometricas
conformata; Auctore
C. Niebuhr.
MDCCLXIII.
Signorum Explicatio
Urbs Capitalis
Urbes Comunes
Vicus
Pagi
Arx
Hospitium
Fluvius
Torrens
Iter Auctoris
B. Beni i. e. filii
M. Mons
Sinus Arabicus
Kameran I.
Loheia
Hodeida
Beit el Fakih
Zebid
Mochha
Sana
Hamdân
Harras
Belled Anes
Damar
Jerim
Abb
Dsjobla
Taas
Meridies
sculp. Hafniæ 1772.